التوحيد http://mostafamas.maktoobblog.com صوت

أسرار طرابلس

مابل لومس تود

الناشرون دارف المحدودة
لندن

التوحيد http://mostafamas.maktoobblog.com صوت

الطبعة الثانية

صوت http://mostafamas.maktoobblog.com التوحيد

مابل لويس تود

أسرار طرابلس

الناشرون دارف المحدودة
لندن - ١٩٨٥

صوت http://mostafamas.maktoobblog.com التوحيد

التوحيد http://mostafamas.maktoobblog.com صوت

Printed and bound in Great Britain
by A. Wheaton & Co. Ltd, Exeter

ISBN 1 85077 025 5

التوحيد http://mostafamas.maktoobblog.com صوت

مقدمة

إن « المناوشات في طرابلس » التي كانت الصحف تشير اليها بين الحين والآخر في اواخر ايلول (سبتمبر) سنة ١٩١١ ، تحولت الى حرب واسعة النطاق ذات أهمية عالمية .

ويرى صديق انجليزي يقيم هنـــاك ، ان اشارة الاضطراب الأولى جاءت في الصباح الباكر ليوم ٢٦ ايلول ، حين شاهد هو وعائلته من منزله الصيفي في شارع الشط الوصول غير المتوقع لباخرة ذا مدخنتين (درنا) الى الميناء ، محملة بالأسلحة والذخائر ، وفي الحال بدأ انزال حمولتها .

وسمعت ابنته الصغيرة في اليوم التـــالي ، وهي تدرس في مدرسة ايطالية في المدينة ، ضجيجاً مفاجئاً يختلط بكثير من الحديث العالي ، جاء في وسطه القوّاس الايطالي وأحد موظفي القنصلية الايطالية الى حجرة التدريس ، مشيرين على الأوانس والاطفال بالمغادرة السريعة ، وقد أبحر اغلب هؤلاء حالاً على « هرقل » .

ووصلت ، خلال الجزء الاخير من بعـــد ظهر ذلك اليوم باخرة حربية ذات ثلاث مداخن ، وقد شاهد وصولها العظيم كل السكان بتوتر كبير ، وكان الضباط الأتراك والعرب ، على كل حال ، يعبرون عن

ثقتهم المطلقة في أن الاستقبال الايطالي سيكون حاراً وقصيراً .

وأبحرت « هرقل » المليئة من مقدمتها الى مؤخرتها بالرعايا الايطاليين في اليوم التالي ، وبعد ذلك في ٢٨ ايلول وصلت ثلاث عشرة بارجة الى الميناء ، الواحدة تلو الأخرى ، في صف عظيم ، كل منهـــا ترفع العلم الايطالي بكبرياء ، وكانت الشمس الافريقية المضيئة على التشكيلة العظيمة تجعل من هذا كله مشهداً بارزاً .

وخلق المنظر تأثيراً ، عميقاً ، لا على الوطنيين والسكان الاتراك فقط ، ولكن على القـــلة الاوروبية الباقية أيضاً .

وانسحب الجنود الاتراك الى بوميلياتـا في اليوم التالي ، ودب بين المالطيين خلال اليوم الذي تلاه نوع من الذعر فاندفعوا جماعات على ظهر السفينة « كاسل جارت » ، المحملة بالحلفا في الميناء ، ونتيجة لذلـــك اختفت من المكان . وقطع الايطاليون الاتصال ، على بعـد حوالي ثلاثة اميال من الشاطىء في اول اكتوبر (تشرين الاول) .

وطبيعي ان تنتج هذه الاحداث السريعة هياجاً عظيماً جـــداً ، فعقدت اجتماعات قنصلية في كل ساعات الليل والنهار ، مقدمة النصائح والمشورات للحاكم العام، وعارف بيك الوكيل السياسي ، ولكن المفاوضة الطويلة استنفدت في النهاية صبر امير البحر الايطالي، فقدم انذار الثالث من تشرين الأول (اكتوبر) الى كل القناصل ، بأن القصف بالقنابل سيحصل عند الظهر . وحاول كثيرون ، حتى عندئذ ان يهربوا ولكنهم وجدوا ان بحارة القوارب العرب قد سحبوا قواربهم الى الشاطىء ، وقد رفضوا ان ينقلوا أي شخص الى اية باخرة .

وكتبت زوجة احد اصدقائنا ، وهي تحتفظ بيوميات مشوقة عن هذه الاحداث المروعة : ان فزعاً دبّ عندئذٍ، وان الناس كانوا يتدافعون في الشوارع وكأنهم جنوا » . وبحث كثيرون من رعايا البلاد الواطئة والعرب والاتراك واليونانيين بلا تمييز عن ملاذ في بيوتهم حتى اصبحت ساحات الدور وقاعات الاستقبال غير قادرة على استيعاب أحد .

وعندما بدأ قذف القنابل أخيراً ابتدأ ضجيج رهيب، وكانت البيوت تهتز كأنما من زلزال ، وكان اللاجئون يصرخون صراخ حزن ورعب. بيد ان اصدقاءنا الانجليز لم يكونوا خائفين ، وقد حصلوا بذهابهم الى دار شركة البرق على البحر، على منظر نفيس من على شرفتها ، وظلوا حتى سقطت قذيفة في البحر على بعد عشرين ذراعاً، واخذت القذائف المتناثرة تتفجر حولهم وتتناثر عليهم، وبدا من الحكمة الانسحاب الى خص على شرفة سطحهم ، أكثر احتماءً بقليل، ولكنه يقدم منظراً عظيماً . وتوقف اطلاق النار في السادسة ، عندما انسحبوا بعد ان جمعوا شظايا القنابل المتساقطة (لا تقل عن عشرين رطلاً انجليزياً) الى الغرف المزدحمة التي تحت .

وفتحت النار في اليوم التالي على شارع الشط وكانت القـذائف تحدث زئيراً مخيفاً خلال مرورها في الهواء، ليتبع ذلك اهتزاز انفجارها الرهيب. وكان خطأ قلعة شارع الشط باطلاق النار على زورق طوربيد من المفروض انه يرفع علماً ابيض السببَ السريع لهذا التراشق بالنيران، الذي اوقف بعـد ايضاح ـ ولكنه لم يتوقف حتى هُدّم البيت الريفي جزئياً. وقد نهب تماماً في الاسابيع التالية، وخلف مفتوحاً لكل رياح السماء .

وسحب الدرك والشرطة ، الذين كانوا في الحراسة ، خــــلال هذا اليوم ، وكان هنالك تخوف كثير من أن يطغى على المدينة العرب المتدفقون، بيد ان حسونة باشا ، رئيس البلدية ، وهو امير من اسرة القرمنلّي ، قام بحراسة المدينة بنفسه كل الليل على ظهر جواده ، مع نفر من الشرطة ، مبقياً على الشاطىء الجماعات المتدفقة. ومنعت طلقات البنادق والصرخات النوم عن كل بيت .

ورفع في الخامس من تشرين الأول « اكتوبر » علم ابيض على سارية العلم في القلعة ، فنزل الايطاليون الى الشاطىء ، واستبدل العلم الابيض في الحال بعلم بلادهم الكبير . عاد الأمان الى السكان المضطربين ، ونظمت حراسة المدينة في الحال بواسطة البحارة .

وحين نسف الايطاليون ، فيما بعد ، قلعة جل جرش ، هزت المدينة من أساساتها ، وانتثرت مجموعة اصدقائنا من الآثار الرومانية الجميلة شظايا على الأرض . وانتشرت الكوليرا في نهاية تشرين الأول (اكتوبر) التي أضافت رعباً جديداً واضطراباً . وامتلأت المساجد بفقراء العرب القادمين من الواحات ، الذين أمر الحاكم الجنرال كانيفا ، باخلائهم . وكانت العربات ترفع الجثث في الصباح والمساء وتنقل بعيداً لدفنها .

وحدث قتال عنيف يوم العاشر من تشرين الثاني (نوفمبر) ، وهو يوم لا ينسى لظهور بالون اصفر كبير يحمل ضابطين ايطاليين يقومان بعمليات رصد . واحتفل في اليوم التالي بعيد ميلاد ملك ايطاليا بالاستعراضات وتزيين السفن واطلاق قذيفة او اثنتين تئز في الهواء ، وبحفلة استقبال .

وشهدت السنة الجديدة معارك اكثر ، كما شهدت تحولاً كبـــيراً في طرابلس الناعسة التي في ذاكرتنا . وكان الجنود الايطاليون الآن يملأون الشوارع ، ولقد غيرت نهائياً الخيل والعربات ، والسيارات (دون حد للسرعة) والضباط الذين يمتطون الخيول، وكل مستلزمات حياة الموانيء الحديثة ، المدنيةَ القديمة الحالمة ، التي أصبحت الآن والى الأبد من الماضي .

ولم يعد العرب يجلسون في الغسق على الرمال متكئين على جدران المساجد مثل صف من الاشباح في المساء الساكن ، منتظرين أذان الصلاة. ولن تفتح «بوابة العبيد » ، وهو أحد اسماء طرابلس القديمة ، ابوابهـــا بعد لهذه التجارة النفيسة ، ولكن الشريرة ،وسيكون لسكان غدامس ، الذين احتكروا التجارة كلها الى قلب الحبشة،والذين تحالفوا مع الطوارق، « قراصنة الصحراء » الجبارين قوانين جديدة عليهم ان يراعوها .

ولكن في الحلم بايام السنوات الماضية اللذيذة الناعسة ، تشرق الوجوه الودودة لكثير من الاصدقاء من كل شارع مسقوف من شوارع المـدينة البيضاء ، مبتسمة لنا من الاسطحة والبساتين ـ وحتى من المساجد المعتمة والمآذن الصاعدة الى السماء .

الى هؤلاء جميعاً ،الذين احبهم واتذكرهم ،انجليز واتراكاً وايطاليين وفرنسيين وعرباً ،أكرس قصتي الصغيرة للحياة التي تلاشت قريباً والتي عشناها معاً ، وهي حياتهم كما هي حياتي •

برج المراقبة م. ل. ت

الهرست ـ ماسا شوستس

مارس ١٩١٢

فهرست المحتويات

رقم الفصل		صفحة
	مقدمة	٥
١	استهلال	١٧
٢	طرابلس	٢١
٣	رحلة كسوف الى طرابلس	٢٥
٤	الوصول	٣١
٥	الطرق العامة	٣٤
٦	موجز تاريخي	٥٠
٧	طرابلس والولايات المتحدة	٥٦
٨	قلعة الباشا	٦٠
٩	السكان والحرف والمدارس	٦٤
١٠	القنصلية البريطانية العامة	٧٣
١١	القوس الروماني والآثار القديمة	٨٤
١٢	الى الكهوف	٩٣
١٣	الآبار والبساتين	١٠١
١٤	بيوت الحريم وباحاتها	١٠٩
١٥	حفلات الزواج عند العرب	١١٥
١٦	استعدادات الزواج	١٢٤
١٧	حفلة زواج اسلامي آخر	١٢٧
١٨	حفلة زواج يهودي عربي	١٣٠

١٩	كسوف سنة ١٩٠٠	١٣٤
٢٠	سوق بيانورا	١٤٥
٢١	سوق الخبزة والقوافل	١٥١
٢٢	الموسيقى والموسيقيون	١٥٨
٢٣	المنفيون الاتراك وآخرون	١٦٥
٢٤	المساجد	١٧١
٢٥	مراسيم دفن الموتى	١٨١
٢٦	غداء عربي	١٨٦
٢٧	استعدادات من أجل الكسوف	١٩٣
٢٨	كسوف سنة ١٩٠٥	١٩٨
٢٩	الصحراء	٢١٣
٣٠	بالسلامة	٢٢١

صوت http://mostafamas.maktoobblog.com التوحيد

جدول الصّور

	صفحة
الصيدلية الايطالية	١٩
الخدمة الاجبارية في الجيش التركي	٢٣
خرائب تعصف بها الرمال	٢٩
الجولة الأولى: كشف عن امكانيات الشرق(سوق بين البيبان).	٣٥
العربة ذات العجلتين وكانت تستخدم في التنقلات	٣٩
منظر قديم لشارع الأربع عرصات	٤٣
الجمرك والكرنتينا	٤٧
من سطح القنصلية الفرنسية	٥١
تاجوراء (جامع مراد آغا)	٥٢
استحمام الجمال	٥٧
ورأيت البيوت التي اعتقل فيها الأسرى	٥٨
تدريب كتيبة عربية	٦١
احتفالات عربية تركية	٦٥
السودانيون كثيرون	٦٦
مدرسة تركية للصبيان	٦٩
اكوار ... كالتي استخدمت من قرون بالضبط .	
يوم سوق الثلاثاء	٧٠

صوت http://mostafamas.maktoobblog.com التوحيد

درج من الحجر حفرته قدم مائة وخمسين عاماً .
(مبنى القنصلية البريطانية) ٧٥
المسجد ذو السبع عشرة قبة يبرز بياضه حتى في مدينة البياض هذه ٨١
قوس النصر ٨٥
خرائب لبدة العظمى ٩١
طريق تونس ٩٥
ف . الزاهد والنخيل ـ ت . احدى مغارات قرقارش ٩٦
بعض الكهوف من صنع الطبيعة وبعضها مقالع قديمة ٩٩
لكل حديقة بئرها ١٠٣
الجادات والطرق التي تفضي الى خارج المدينة ١٠٤
العودة في المغيب ١٠٧
وكان كثير من باحات الحريم مرصوفاً رصفاً جيداً ،
وكان غطاء الجدران من بلاط جميل ١١١
قرية سودانية ـ طرابلس عبر الخليج ١١٢
كوخ سوداني ١٢١
كل الآلات كانت جاهزة على سطح شرفة القنصلية ١٣٥
تلغراف من جورجيا ١٣٦
الأهلّة الصغيرة التي كشفت عنها الاوراق خلال الكسوف الجزئي ١٣٩
ف . ام متلهفة ـ ت . أغطية قش ... حماية للكسكسي الثمين ١٤٥
ف . جمل محمل بنبات الحلفا ـ ت . يتفرق الحشد عند الظهر ١٤٩
سوق الخبزه ، نادي الضباط وقبة سيدي حمودة ١٥٠
وجاء الخبر ... ان حوالي ثلاثماية رجل
وجمل كانوا جاهزين لبدء الرحلة ١٥٥
ف . ما زالت الاحمال تغطي الأرض . ت . القائد : جمل سباق
بسرج من سروج الطوارق العالية ١٥٦

قرية منفوخة بفم بدائي
وتقف امام الجدران البيضاء ١٥٩
واعترف الباشا بأنه مهتم جداً بالنواظير (العدسات المكبرة)
(رجب باشا في الوسط) ١٦٤
واحد من هؤلاء ... كان ما زال يسعى ليعرف لماذا نفي ١٦٧
بيته الفوضوي (أدهم بك) ١٦٨
يمكن ان ترى دزينة من المآذن من على سطح بيتي ١٧٣
جالس أمام المسجد يطلب الحسنات ١٧٤
ضباط عديدون بسيوف طويلة (رجب باشا وحاشيته) ١٧٧
قبتان تبدوان عند دخول الميناء (قبتا مقبرة القرمنلي). ١٨٣
بئر من الماء العذب على حافة الصحراء ٢١٦
وكان غروب الشمس متوهجاً مشتعلاً ٢١٩
المآذن المندفعة الى أعلى ٢٢٣
ف . في الحديقة شارع الشط ـ ت على الشرفة ١٨٤
جمل يتهادى في طريق العودة الى البيت ١٩١
ف ، استعدادات للكسوف ـ ت . تنظيم خيالي لالتقاط الظل ١٩٢
ادهم بك ، منفي تركي ١٩٩
وكانت مئذنة مسجد قرجي الرائعة ... مليئة بالمسلمين ذوي
الثياب البيضاء المتطلعين الى السماء ٢٠٥
...اشرطة ساطعة استدارت بانتظام ٢٠٩
وتحرك صف من الجمال عبر الرمال غير المحدودة ٢١٥

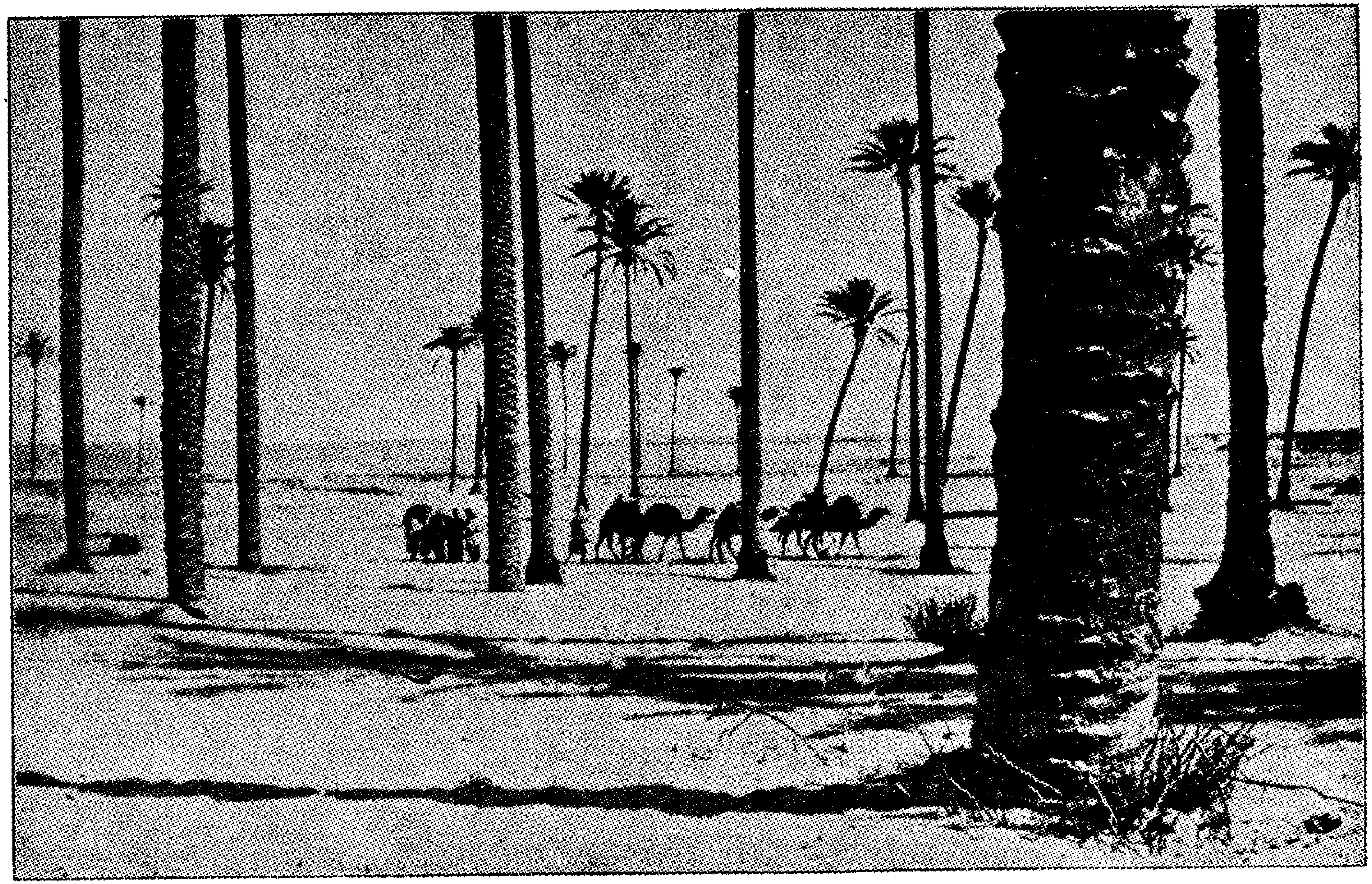

شاطىء شمال افريقيا السحري

الفصل الأوّل

استهلال

على المرء ، اذا ما اراد خاصة ان يكتب قصة طرابلس العجيبة ، ابنة البحر والصحراء ، لا ان يكون مؤرخاً مطلعاً ، أو عالم آثار متمرس ، أو خبيراً في علم السلالات ، ولكن عليه ان يكون متضلعاً واسع الاطلاع بالعربية ، وفي العبادات والمعاملات الاسلامية ، كما عليه ان يكون متضلعاً واسع الاطلاع بالأعراف المحلية لهذا الدين العظيم ، الذي اكتسب الواناً ، كما هو عليه ، من البيئات المختلفة . واذا ما أراد المرء أن يقدم عرضاً واضحاً لشاطىء شمال افريقيا الآسر ، وان كان محزناً ، فعليه ان يكون دارساً عالماً بالاقتصاد السياسي ، ايضاً ، مع نظرة عالمية على اسباب الحكم وآثاره .

وتتمتع طرابلس الغرب ، بحماية حاجز صخري طبيعي ، يدل دلالة واضحة على أن مدينة كانت دائماً هناك ، منذ الرحلات المبكرة للبحارة الفينيقيين . هزمتها روما ، ولكنها ابقتها في ازدهار عظيم ، حتى القرن السابع من تاريخنا ، وتدفق عليها المسلمون ، وكانت فريسة الفندال ، واحتلها شارل الخامس ، وحكمها باشوات محليون ، واستولت عليها تركيا ، وهاجمتها بالمدفعية ايطاليا — فمن هو صاحب الحق الأدبي بطرابلس اليوم ؟

لقد وجّهت حوادث عام ١٩١١ المثيرة ، اهتماماً شعبياً اليها اكبر مما تمتعت به خلال اكثر من قرن . وسوف لن تُنسى نسياناً كلياً مرة ثانية . وانه لمن الصعب ان نعرف لماذا تجوهلت هذه المدينة الشرقية الساحرة ، ولكن الزيارات المتكررة

لاغراض فلكية كشفت عن جمال فتان في المعيشة ، وثروة في التاريخ ، لا تستنفدها سنوات من الملاحظة والدرس .

وكان بعض الكهنة اليهود في طرابلس ، من بين اكثر الرجال علماً ، وكانت عقول هؤلاء مخازن معلومات . وبما انهم يتكلمون العبرية فقط تحدثت معهم بواسطة مترجمين ، ولكن هذا الحقل الغني للبحث هنا ينتظر الترجمة لعامة الدارسين .

واذا كنا نحن ، ابناء العالم الذي يكتب بالانجليزية ، قادرين على تكلم الفرنسية والألمانية جيّداً . فإننا نشعر بأننا مهيأون تقريباً لمعيشة كوسموبوليتية واننا لنُظن بمعرفة قليل من الاسبانية والايطالية ، بالاضافة الى ذلك ،لغويين افذاذا ،أكفاء تماماً لاحتلال العالم . ولكن ماذا عن ألسِنة الملايين الأخرى التي لا تعد تقريباً .

ويستطيع ، حتى أطفال الأزقة الصغار في طرابلس ، استعمال كل اللغات المتداولة هناك استعمالاً متعاقباً . ولا بُدّ من أن يضل الأمريكيون تماماً في دوامة اللهجات تلك.

وكانت ابنة القنصل العام لبريطانيا العظمى مثلاً للكوسموبوليتي الحقيقي ، الذي يحس ان العالم على سعته بيت له . ولقد شاهدتها مرات تقدم الشاي بعد الظهر لمواطنين من نصف دزينة من القوميات ، مخاطبة كلاً بلغته ،متحوّلة فوراً وبكياسة من لغة إلى أخرى ، وعلى رأس لسانها الماهر الطلق الانجليزية والفرنسية والتركية والايطالية والعربية واليونانية الحديثة والمالطية .

وبمثل هذا التبدل والمرونة في « التلون » فقط ، يستطيع المرء ان يواجه المشاكل المعقدة ، التي لا حصر لها ، لمثل هذه التشكيلة المتعددة الأجناس.

وسأضيف فقط ، فيما يتعلق بطبيعة طرابلس وقصتها ، ان هذا الكتاب ، لا يلمس حتى الألف ناحية وناحية التي يجب ان تبرز . وانني أقدم صورة غير تامة فقط،لهذا الاقليم غير العادي ، كما رأيته ، مع انها صورةمرسومة بيد مُحبة ولاهجة بالتقدير ، على الرغم من شهور من الاقامة هناك ، وتشوّق دائم لكل مظاهرها الخلابة .

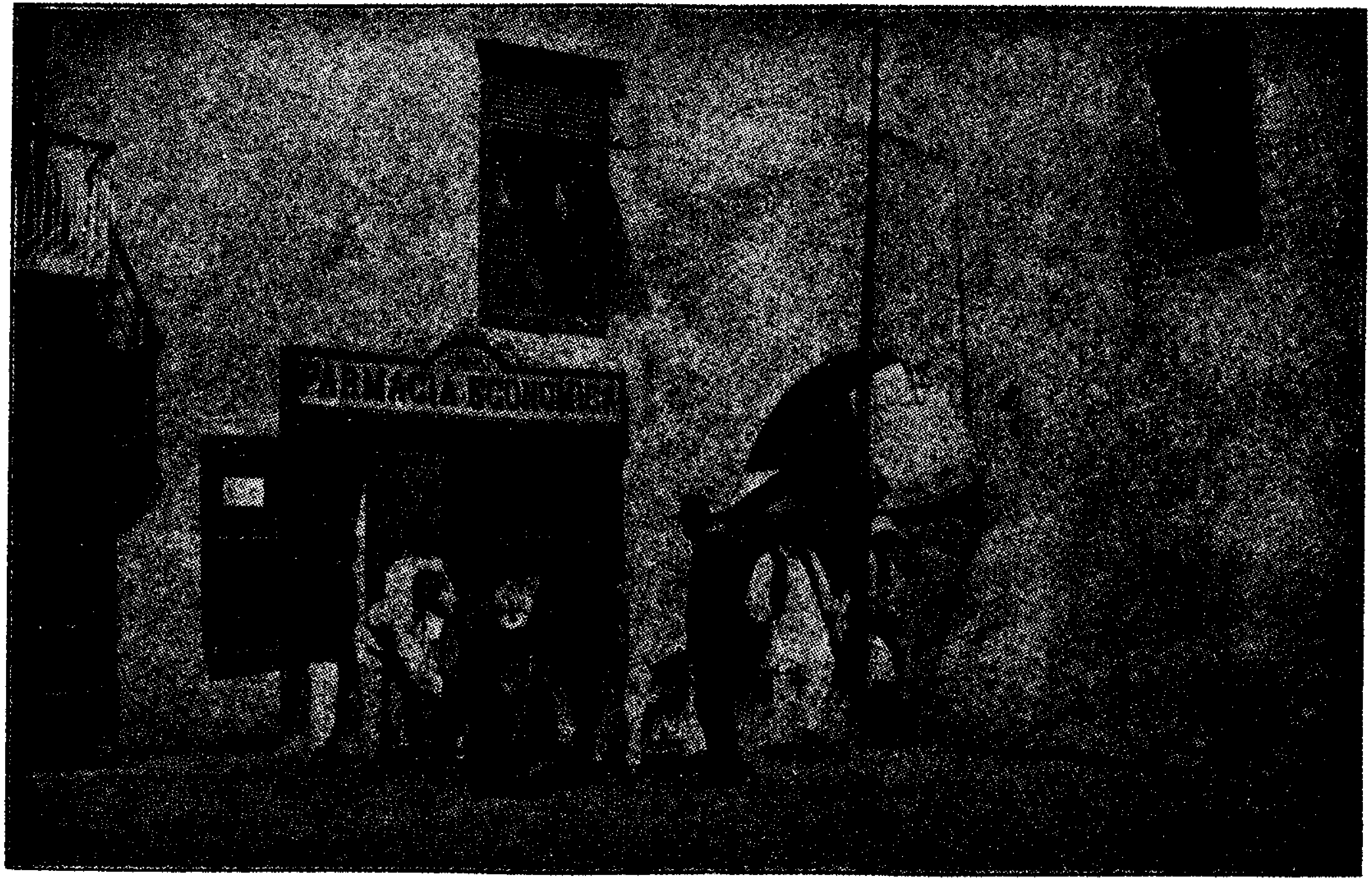

الصيدلية الايطالية

الفصل الثاني

طرابلس

تنتظر طرابلس ، وقدمها في زرقة البحر الأبيض المتوسط ، و « رأسها في نار السماء » وظهرها مقابل الصمت الأصفر للصحارى الأبدية ، قدَرها الأخير.

وكيفما حلت التعقيدات الدبلوماسية ، فإن طرابلس الناعسة الشرقية ، نصف الوسطوية [1] ، لن تكون أكثر مما هي . ولا بُدّ من أن تفيق اخيراً مدينة الرومان والعرب والأتراك القديمة المسوّرة ، وتحتل مكانها في موكب العالم الحديث .

وقد انتشرت ، من سنوات، علائم منذرة وتنبؤات بالتغير . وبينما كان قسم كبير من تجارتها في أيدي اليهود، والمالطيين ، استولت ايطاليا عملياً ،لامتلاكها مصالح واسعة أخرى في المنطقة ، على الملاحة . «ستكون طرابلس ايطالية يوماً » هذا ما كان شائعاً على ألسنة كثيرة .

ولم تكن الخدمة الاجبارية في الجيش التركي برمتها لتلقى قبول القبائل الوطنية المستقلة ، وعلى الرغم من الايمان بنبي واحد ، تميز العرب بنوع من الحياد المترقّب ، حتى انه ربما كان اكثر تحدداً منه في العلاقات العادية بين المقهورين و « حماتهم » . وعلى كل حال ، فقد كان توتر مُعين واضحاً بين المالطيين والايطاليين ، وحتى لدى أبناء الصحراء الأكثر هدوءاً ، وما من أحد ممن

---

١ — من القرون الوسطى .

يعرفون مدينة طرابلس ، يمكن ان يكون قد فوجيء ، بانقلاب أقرب جارة أوروبية لها، هذا الانقلاب الذي بدا مفاجئاً .

وهناك واحدة من المناطق الباقية، في هذا العالم المفتوح للعابرين ، التي لا لم تكشف فقط ، بل انها ظلت لا يلاحظها السوّاح ، إنهـــا طرابلس البونك والرومان القديمة، وطرابلس السيادة الاسلامية اللاحقة، التي لا يمكن ان تتراجع ثانية إلى ظلام القرون .

لقد قيل ان طرابلس تنتصب ، وكأنها حاجز معين بـــين تونس ومصر . وتبدو كل من فرنسا وبريطانيا وكأنهما تنظران نظرة عدم اهتمام الى قفارها غير المنتجة ، ولكن وضع ايطاليا ، الأكثر تحسساً بقيمتها ، يختلف إلى حد ، ولقد اعتبرت ، في عيون كثير من المراقبين المدققين ، القوة الاوروبية الأكثر ترجيحاً لاحتلال مقاطعة الصحراء وحكمها . ولقـــد حكمت روما مرة افريقيـــا الشمالية . فلماذا لا تطالب ثانية بجزء من ارثها القـــديم ؟ ويمكن ان تُجعل طرابلس ، وهي المنفذ الطبيعي لثروة افريقيا ، مكاناً ذا اهميته خاصة ، في أيدٍ حكيمة .

وتبدو معارك ١٩١١ متناقضة على الأغلب ، عندما نعتبر ان كل المسلمين قدريون : فكل العرب يقولون « القضاء لا يرد ، ورفض المقسوم كفر » . وربما كان العقل الطرابلسي ، على كل حال ، ليس متأكداً تماماً مما كان يشكل قدره المكتوب .

ان المدينة العربية ، وهي أكثر بهجة في ظل حكم العثمانيين ، مما يمكن ان تكون عليه ثانية : حالمة ، قذرة ، حقيرة رائعة ، صاخبة ، آسرة جميلة ، غير صحية – انها تأسر عواطف المرء . وانها لتأتي لتحل في القلب .

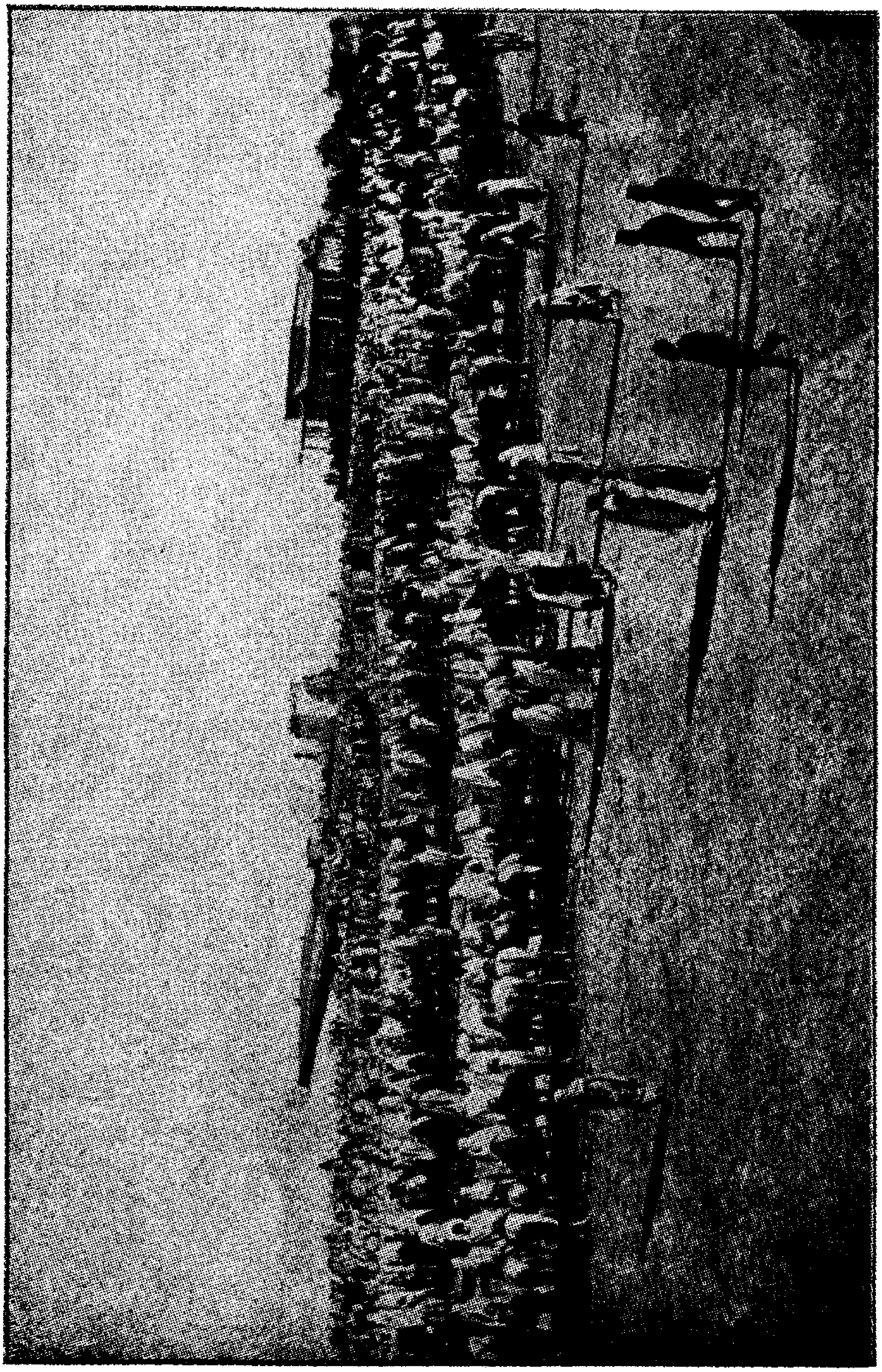

الخدمة الاجبارية فى الجيش التركى

الفصل الثالث

رحلة كسوف الى طرابلس

كان سرورنا بنفس القدر عندما حظينا مرتين برحلة «كسوف الى طرابلس» وقد قادنا اسوداد الشمس المتوقع في ايار (مايو) سنة ١٩٠٠ الى هذه الشواطىء المذهلة، كما قادنا ثانية، في آب (اغسطس) سنة ١٩٠٥ اتفاق فذفي السجلات الفلكية فقد تقاطع مسار كسوف آخر مع المسار الأول فوق المدينة الآهلة نفسها. وقد توجه الفلكي وبطانته، الى هذه الشواطىء البعيدة لمعرفته بسماواتها الصافية، وخلوها من السحب.

واذا كانت «العلوم تعرفنا بأزواج غرباء» فإن مسارات الكسوف مسؤولة عن دفع تابعيهم على طرق بعيدة غـير مطروقة يحتمل احتمالاً شديداً أن تثبت أنها مصادر ثروة غير متوقعة من قبل، في المناظر والسلالات والتاريخ النفيس والعادات، وكل سحر الانسانية الخالدة.

لقد كان هـذا بالتأكيد صحيحاً بالنسبة لطرابلس، طرابلس الغرب. اويا [١] الشهيرة للقدماء. التي يبدأ تاريخها المضطرب في ضباب نشوء الفينيقيين. ويجري عبر الفترة العظيمة للحكم الروماني، التي شهدت كل مجـدها السابق، هذا المجد الذي عُصف به، وحُوِّل الى عدم، بعد الهجرة سنة ٦٢٢ ميلادية،

---

١ - إحدى المدن الثلاث المكونة لطرابلس قديماً.

عندما اغرق الاسلام كل شاطىء الشمال الافريقي مثل "مـد" من الموج الذي لا يقاوم ، وقد صُيِّرت سنة ١٨٣٥ الى مصير ولاية تركية . ان كل سحر هذه النهايات المختلفة ، يتدلى في شوارعها الضيقة ، وعلى اسوارها البيضاء الجامدة ، وطرقها المسقوفة ، وتماثيلها المقطوعة الرؤوس ، وقرميدها الأبيض النقي ، وقبابها المنتشرة كالفقاقيع ، والمآذن التي تخترق السماء .

وقد أثار قدوم فلكي وآلاته اهتماماً مركزاً ، اكثر مما يسمح له الهدوء العربي بالظهور . إنه حدث .. ذو اهمية مدهشة ان يكون قد جاء عبر البحار البعيدة من اجل كسوف ، كان ذلك ما يكون .

ولقد سمعت خلال زياراتي المتكررة لبيوت الحريم ، كثيراً من التأملات والطرائف ، ولكن لم يجرِ التعبير عن قليل من الخوف، فيما يتعلق بحدث غريب ومروّع يقترب . وكان عجوز قرب «بوابة البحر » قد اشاع أنه يحتفظ بذكرى مثل هذه الواقعة من سنوات خلت . ولكن ذلك الاظلام كان من صنع الله . ولكنه لا يستطيع ان يعرف شيئاً عن هذا النوع الجديد ، الذي صنعه كافر ، ولا يجوز استصوا به . وازدرى آخرون فكرة ان الكافر يستطيع إنجازه .

وبينما كان العرب من بين أوائل الذين عرّفوا العالم بعلم الفلك ، فإن هذا العلم يبدو عملياً مجهولاً عند سكان بلاد البربر ، الذين لا يستطيعون اجراء حسابات الكسوفات ، والذين يؤمنون بأنها دائماً تأتي بالشر ، أو تنذر به . وجرى التأكيد في بعض احياء المدينة ، على ان « بلونات » عديدة احضرت ، كأجزاء أساسية من معدات السفر ، وانه عندما يجيء اليوم المحدد ، سيصعد الفلكي رأساً الى « عين الشمس » ليفرغ هناك ما قيمته خمسماية جنيهاً استرلينياً من الكحول ، التي ستسبب بتبخرها ظلاماً كثيفاً وكسوفاً . وعندما سئل بعض ممن هم اكثر علماً ان يصفوا دارة الشمس اجابوا انه ممنوع التحديق في مثل هذا الشيء . وان محاولة تصويرها لا تقل عن ذلك . ولا بُدّ من أن تتبعها كارثة معينة .

تحول الاستغراب والشك ، في زيارتنا الثانية الى صداقة، ولم يُتوقع شر من معالجتنا أمر السماوات .

وكما حدث من قبل ، فان الفلكي بفضل ممثل جلالة الملك ، أقام محطة مراقبته على سطح القنصلية الانجليزية العامة ، التي أطلق عليها شعبياً في الحال وللمرة ثانية ،اسم «برج المراقبة الملكي» حيث نمت غابة صغيرة من التلسكوبات مثيرة دهشة الجموع المتطلعة الى أعلى من الأسطحة التي دونها .

ولكن المنطقة كلها كانت حبلى باهتمام شديد ، منفصل تماماً عن علم الفلك ، وبينما كان زوجي منهمكاً بأجهزته وبالتحضير للكسوف ، وجدت كل لحظة ملأى ، في فترات المساعدات الصغيرة التي كنت استطيع تقديمها في عمليات التهيئة .

وتُقدم طرابلس ، بالبحر الأزرق، والرمال وبياض المدينة الباهر ،وبالعرب والبدو المحيرين والغامضين ، وبآثار مغمورة في التاريخ نصف المنسي ، فكل حجر مليء بالايحاء ، ولأنها الجار القريب لخرائب لا تُحصى عصفت بها الرمال ، كل منها بقصتها الصامتة ، تنتظر التفسير ، ان طرابلس بهذا تقدم مادة لا يمكن تخيلها للفنان وعالم الآثار والمؤرخ ، وتقدم مثل ذلك للمنقبين عن المشاكل السلالية ، ولدارسي علم اللغات على اختلاف لغاتهم .

ان العودة لزيارة بقعة أحببت حيناً ، ثم هجرت ، دعاها لافكاديوهيرن تجربة خطرة . ولكن عودتنا الى هذه الشواطىء الجميلة لا تؤدي الى كشف السر .

إن قصة طرابلس تتغير الآن ثانية . ولكن لتكن النتيجة ما كانت ،فلسوف تكون لها سماواتها الشفافة ، وهواؤها الشبيه بالخمر ، وطقس يكون من الخطيئة الاحساس فيه بصداع أو ألم ، بالشيخوخة أو التعاسة . وربما كان سحر

الشرق والاسلام أقل ، ولكنني لا أستطيع أن اتوقف عن أن أكون شاكرة . لأني عرفت طرابلس ، حينما كان تنفس هوائها ، والمرح تحت أشعة شمسها يعني المسرة ، ليس هذا فقط ، بل حين كانت القوميات المجتمعة ، وألسنة بابـــل ، والشوارع الوسطوية ، تجلب مثل هذا الاهتمام المنعش، الذي جعل كل السنوات التالية أغنى ، وأكثر إرضاءً ، واكثر امتلاءً بخمرة الحياة المسكرة .

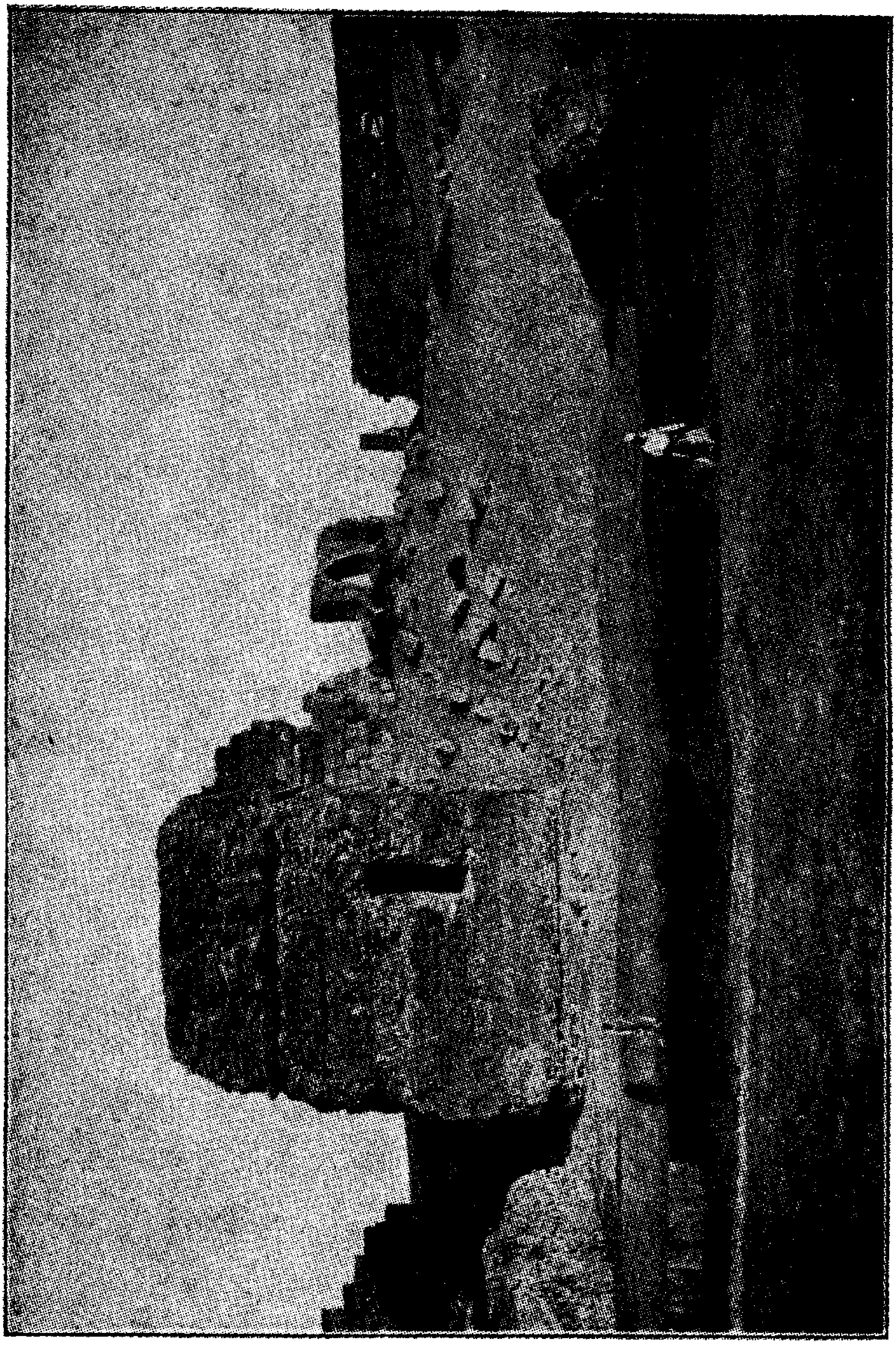

خرائب تعصف بها الرمال

الفصل الرابع

الوصول

تعلمنا كلنا في طفولتنا عن « الولايات البربرية الأربع : مراكش ، الجزائر ، تونس ، وطرابلس » . وربما كان بعض هؤلاء التلاميذ الصغار الذين « سمّعوا » تلك القائمة بطلاقة ، قد رؤوا في السنوات التالية مراكش أو الجزائر ، وحتى ربما تونس ، ولكن انه من المأمون ان يقال ان قليلين هم الذين رؤوا طرابلس ، التي ظلت اجيالاً عديدة بالنسبة للبلاد الأخرى مجرد اسم .

ان ولاية طرابلس تضم عملياً كل شيء على مدى ثماني مائة ميل بين جربة وطبرق ، من تونس الى مصر ، وإلى فزان ، ومدينة غدامس وواحة غات جنوباً . وكانت جزيرة جربة مسرح نزاع رهيب بين المراكشيين والاسبان خلال الحروب الاسلامية في العصور الوسطى . وهنالك آثار على الشاطىء الشمالي لأهرام مبني من جماجم المسيحيين ، نذيراً لهم حتى لا يحاولوا مرة أخرى إخضاع الجزيرة .

ان طرق الوصول الى طرابلس سهلة . فمن نابلي يجري خط من البواخر الايطالية المريحة الى مسينا ، ومن هناك تنحدر الى شاطىء صقلية الجميل ، متوقفة وقفات غير عجلى في كاتانيا وسيراكوز ، ومن ثم تسير رأساً الى مالطا حيث تكون للمرء ساعات لزيارة فاليتا وضواحيها . ان وصول ميناء طرابلس

المتلألىء في الصباح الباكر كان مشهداً مسرحياً تقريباً لسفن أجنبية ترفع أعلام اليونان وتركية وفرنسة، ولقوارب صغيرة محلية ، ولصيادي الأسماك والغواصين على الاسفنج ، ولكل الحياة المثيرة للفضول في مجتمع متميز غير - اوروبي .

وهنالك طريق أخرى الى عين الهدف بواسطة البواخر الفرنسية من مرسيليا الى تونس . هذه المدينة العربية - الفرنسية المتلألئة الخلابة ، على الشواطىء البعيدة لحوض املاحها ، مع أنها ملأى بما يثير الاهتمام فيها ، إلاّ أنها في الواقع اقل حيوية ، بكل غنى الحياة فيها ، من الموقع القريب لمدينة قرطاجة الحية في الذاكرة . وتستلقي في الشمس فوق الجمال المحطم والعظمة المدفونة في التربة الصفراء ، قرية عربية صغيرة لامعة ، منحدرة على سفح التل . وتسير الباخرة من قرطاجة شرقاً على طول الشاطىء المتعرج ، متوقفة في المهدية ، وسوس وصفاقس وقابس ، المليئة بالآثار الضخمة ، نتاج الجبال الافريقية السوداء ، وتدفق الحياة الاسلامية التي تملأ الأعمدة والصرح كله ، حتى تجتمع كلها في بريق طرابلس الأبيض الذي يبهر الأبصار في حرارة الشمس اللاهبة - افريقيا المثالية التي تخيلها المرء .

ولقد وصف مؤلفون عرب عديدون هذه المدينة القديمة من البحر ، بكل ثروة الخيال، وغنى التخيل الذي عرفوه جيّداً . ولكن جمال هذا المشهد لا يمكن ان يكون قد بولغ فيه .

ان السور القديم وقلعة الباشا ، والمساجد الرائعة المستديرة ، والعدد الكبير من المآذن التي تعلوها قباب مذهبة وأهِلّة ،والنخيل الكث ، والحزام الأخضر الفاصل بين البحر وكثبان الرمل والصحراء ، والضريحين المقببين الواقفين جانباً على رأس صغيرة ... كل هذه كوّنت مشهداً ذا جمال رقيق . ولا تبدو المنارة القديمة بناءً غريباً ، ولكن جزءاً متكاملاً مع الصخور التي يغسلها المد والتي كوّن منها، وتبدو وراءها ، في المدينة ، أعلام بلدان عديدة ناعمةً بعيدٍ دائم ·

التوحيد http://mostafamas.maktoobblog.com صوت

وتموّج الشعار الوطني فوق المقر الرسمي للقنصل العام البريطاني مرحباً بصمت ، الذي يلي في المودة النجوم والخطوط التي ظهرت هنا [1] . ان طرابلس الشرقية الوسطوية الرائعة ، التي لم يفكر بها المسافرون ، ولم يزرها السوّاح ، متخلفة في اندفاع الحياة الحديثة الذي لا يتوقف .

ويصبح الانطباع الكلي عن الوصول لأول مرة ، مقسماً الى اجزاء مكونة : اقوارب الاسفنج اليونانية ، مشدودة إلى أعلى وجافة على الشاطىء من اجل التصليح ، باب البحر المفتوح كل النهار ،الموظفون الأتراك الكسالى الذين يدخنون على المقاعد ، البحارة اليونانيون الذين « يسحبون » على الأراجيل ، العرب يشربون فناجين القهوة في دزينة من الزوايا – تناقضات حادة ملئت مدينة الرسول الأجنبية الفاتنة هذه .

---

١ – تقصد العلم الأمريكي على ما يبدو .

الفصل الخامس

الطرق العامة

ان نزهة المرء الأولى هي كشف للامكانيات الشرقية .

« بالك ! بالك » ويقفز الانسان جانباً بسبب الصرخة المفاجئة الجافة ، ويمر حمار نحيل مثقل متأنياً ، لا وقع لحوافره الصغيرة على الشارع الرملي الأبيض. وتخب بهمة أعداد لا حصر لها من هذه الحيوانات الصغيرة المحزنة ، رازحة بشكل عام ، تحت سلال من القش ، تضم جرار ماء فخارية ضخمة ، وغالباً ما تحمل خروفاً أو حملاً ، وربما حملت صاحبها بالاضافة اليه ، (جالساً على كل حال بلا رحمة على كفلي الحيو ن الصغير ، ما لم يكن سائراً خلفه ليتسنى له همز الخاصرتين المسرعتين) محركة آذانها العاجزة يميناً وشمالاً ، وهي دائماً متواضعة ، ودائماً حزينة ، وذات هموم لا ترتفع أبداً إلى مقام الأحزان الحقيقية .

ولكن لا صرخات انذار تنبىء بالوصول المفاجيء للجمل . ان قدميه المحشوتين تتحركان كالقدَر . وليس هنالك من مسافر له حقوق على الجمل ان يحترمها ، ويمكن ان يدفع بوجهه الهازيء وشفته السفلى المتكبرة تكبراً لا يوصف والمتجعدة على كتفي المرء من الخلف ، دون أي انذار إلا اقترابه غير المعلن عنه .

وعلى المرء ، لأسباب عديدة ، أن يكون حذراً في الشوارع الضيقة . وانها لغلطة العابر ، اذا ما ألقت به ارضاً الحمير أو الماعز أو العربات المغطاة ذات العجلتين التي تمر أحياناً . وسريعاً ما يتعلم الحذر . وأخيراً ، فان الجمل لا يبدو عليه انه يشعر بنفس العداوة اليقظة للقوقازيين التي يظهرها بوضوح جاموس الماء الفليبيني الرهيب . ولكن غطرسته الشامخة أكبر من ان تعترف باحساس شخصي كالكره .

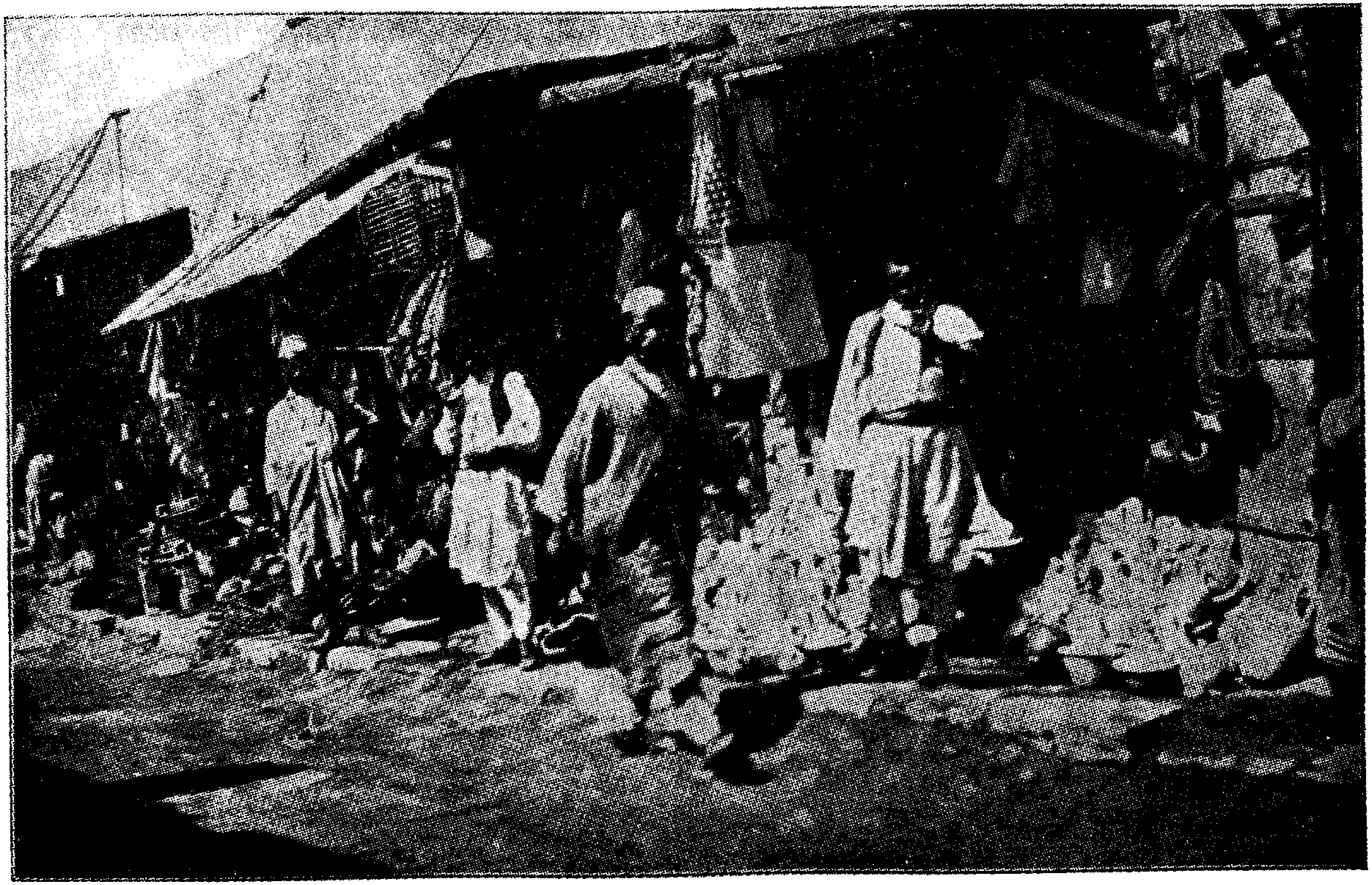

الجولة الأولى كشف عن إمكانيات الشرق . (سوق بين البيبان)

التوحيد http://mostafamas.maktoobblog.com صوت

وان له لأصواتاً مختلفة .

وعندما ايقظتني صرخة حادة ومديدة ، خلال ليلة من ليالي الأولى في المدينة البيضاء ، فكرت ، والنعاس غالب علي بقطار في مأزق . وأظهر لي قليل من الصحو استحالة سماع أصوات القطار عبر عدة مئات من الأميال . انها لم تكن غير دعاء الليل لجمل مدجن ، معلناً عدم رضاه الأبدي لزملائه المتألمين ، أو ربما كان يحلم بفلوات صحراوية تعصف فيها الرياح ، فما من بيت بعد لخفيه المشتاقين . وقد بتنا نشعر مع كبلنج :

انه لشيطان ونعامة ويتيم في واحد

انه يمر في الشوارع الضيقة باباء لا حد له ، ولكن كان هنالك جمل آخر يقوم بدورته الرتيبة عاماً بعد عام ، في دارة فسيحة مفتوحة ، بسقف معقود ، تغطي عينيه كمامتان بيضاويتان ، وهو يطحن القمح بين حجري الطاحونة الأعلى والأسفل . ان قروناً من العادة تقف وراء هذه الطريقة البدائية .

وتبدو نوعاً ما ، على جانب من الشارع المزدحم ، في الزوايا ، وعلى المصاطب هنا وهناك ، كومات خرق ، وكأنما نثرت بدون اهتمام ، ولشد ما يفاجأ المرء عندما تنتصب هذه الكتل المختلطة في لحظة ، لتسوي بهدوء من هيآتها ، وتتسلل بعيداً ، فإذا بها عرب مبجلون بلباسهم الكامل . و«الحوالي»[1] حقيقة قابل لأن يكون لباساً في النهار ، وفرشة ومخدة وغطاء في الليل .

وكانت صرخات جوقة الشارع تختلف من فرد إلى آخر : بطاطا ، برتقال وخاصة البيض الأبيض الذي يبيعه رجال سود فاحمون ، وكان يرافق كل سلعة صوت خاص ، ونغمة خاصة ، ولغة أو لهجة .

ويقرأ العرب الأتقياء القرآن ، أمام حوانيتهم المفتوحة ، في استغراق باد ، انهم لم يكونوا أبعد عن شؤون هذه الحياه أبداً ، وكأنما هم على كل حال يريدون نسيان زيادة السعر التي خصوا بها المسيحيين .

ويسحب الخبازون ، دون انذار ، مجارفهم الكبيرة من أفرانهم ، مليئة بالأرغفة الصفراء ، لتبرهن مقابضها الحديدية الطويلة ، أنها حجر عثرة مفاجىء

---

١ ـ اللباس الوطني في ليبيا .

لغير اليقظين . ان هذا المأكول الذي بـــلون السلفر ، (الكبريت) مزخرف أكثر منه صحي . ولا بُدّ من أن يكون ملائمـاً تماماً استخدام الشارع ، نوعاً من ملحق للمخبز ، عندما يكون عقار امرىء ضيقاً جداً على استعمال الادوات الطويلة المقـــابض ، ولا يقـــل سهولة عن ذلك وابهاجاً صف أرغفة امرىء على الطريق ، حيث يختار الزبائن هنا وهناك ما يعجبهم ، ليضعوا قطع عمـلة تركية صغيرة ، ويعبروا صامتين .

وفي سوق الفخـّــار يصنع صبيـــةٌ صباح من اليهود أصصاً شبيهة بالأصص اليونانية ذات العروتين ، التي تعود إلى الفي سنة خلت ، ومـــا زالت تكتشف تكراراً عندما تحفر الآبار ، أو تقام حدائق جديدة . ولقد حرمت الحكومـة التركية التنقيب عن الآثار ، ولكن بدا للمعنيين بالأثريات حفر عدد من الحفر ضرورة حتمية . وما زالت «النسخ » الحديثة تنقل إلى القرى الداخلية الصغيرة كما كانت تنقل منذ فجر التاريخ ، على طرق وممرات تكاد لا ترى من عصور ما قبل التاريخ ، وهي سيئة تماماً كما كانت عندما وطئت أول مرة .

لم تكن شوارع المدينة أحسن ، ولذلك فإن النزهات كانت تتم بشكل عام صباحاً لاعتبارات تتعلق بالنظافة . ويطوّف الصبية الصغار مع طلوع الشمس ، ليكنسوا بالأجزاء الكثة من سعف النخيل ، وليجمعوا الفضلات المتراكمة في سلال ، يحملونها الى الشاطىء لحرقها . بيد ان ربات البيوت تُلقي تدريجيـــاً خلال النهار ، بأكوام متزايدة من كل الفضلات — خضراوات متعفنة ، فواكه وعظام وقشور بيض ، وسمك وكل النفايات التي يمكن تخيلها — حتى أن النزهة وهي ليست بمأمونة في أي وقت من الأوقات ، لم تكن عند الغروب إلاّ بهجة متقطعة .

وكانت العربة ذات العجلتين مركبة صغيرة بهية ، بمظلة زاهية ، وطـــلاء أزرق ، تزينها رسومات خيالية ، كما أن لها ستائر حمراء لمواجهة الشمس الباهرة . ولكنها بلا «زنبركات» ويقع محور العجلتين مكشوفاً بالقرب من الأرض ، ويكاد

العربة ذات العجلتين وكانت تستخدم في التنقلات .

الرنين المبهج لسمط من الاجراس المطوقة عنق الحصان ، لا يعوّض ازعاجات الطرق غير المعبدة . وقد منع الباشا ، فيما بعد ، استخدام وسائط النقل هـذه وأصر على استعمال الخناطير الجميلة ذات الحصانين . ولم يكن للحمير والجمال ، كوسائل نقل ، أي منافس خطر في هذه الايام المبكرة .

وكانت كل الأعمال ، تتم على طول الطرق الضيقة الشبيهة بالأنفـاق – على مرأى من الجمهور . ولوّنت كثيراً من الاقواس زرقة نيلية شاحبة أو وردية أو صفراء ، إلاّ انها تكاد لا تؤثر في البياض الشامل بالنتيجة . وكانت الشوارع أحيانا تسقف بالحصر لتلافي الشمس اللاهبة : أو تعالج ، عن طريق العرائش ، حيث تتدلى عناقيد الدوالي من أعلى ، فوق رؤوس الجماعات المسرعة .

وتتم أعمال النسيج ، بأشد الانوال بدائية في شارع واحد ، ذلك أن لكل حرفة الحي الخاص بها ، حيث تكرس كل الحوانيت والبيوت لصناعة معينة .

وقد جعلت المنسوجات الصفراء والحمراء الأمكنة المعتمة مبهجة تقريبـاً ، إذ كانت النساء المسنات مُكبّـات على أعمالهن ، يرمين المكوكات ويسحبن الخيطان في أوضاع بهية غير واعية ، بينما كانت « الحوالي » تكبر بشكل محسوس بين اناملهن المتحركة بسرعة .

ولكن ما كان اكثر جمالاً ، هو القماش الابيض النـاعم ، المصنوع من وبر الجمل ، والذي يصنع في بعض الأحيان من وبر الجمل والحرير معاً ، وفي أحيـان نادرة جداً من الحرير وحده ، مكوناً حلة ذات نوعية شاعرية .

وكان بعد ذلك رُواق الصاغة ، حيث يضرب الذهب المحلي اللّين والفضة ، ويقطع ويطرق بغلاظة ليأخذ شكله : أساور ذات وزن لا يصدق ومرونـة ، وليرات ذهبية ايطالية تعلق في سلاسل طولها اذرع ، وزينات غريبـة لشعب

ُخلـّف في العصور الوسطى ، لايعرف ولا يستعمل شيئاً يختلف عن تلك الـتي كانت تستعمل منذ قرون خلت . ويتطلع الصنـّاع الصامتون إلى العابر تطلعـاً فضولياً، ثم ينحنون مرة ثانية على عملهم. أما بالنسبة لحشود الشارع فقدكان الأمر يختلف تماماً، فهؤلاء يقتربون منا، وحولنا، في زحام شديد محكم، لتعرض عشرات من السلع الشخصية بضعف قيمتها .

وقد خط على كل حانوت ، أو ُحفِر أو بيّن بطريقة اخرى ، ان اليد التي تبعد العين الشريرة تماماً ، بفعالية مثل فتح أصابع اليدين ، هي ممـدودة نحو الاشخاص الذين هم في خطر ، يرافقها حمزة ! حمزة ! المسكوني.

ووجدت مقاعد جلدية ، مستديرة أو مستطيلة أو بيضاوية في حي آخـر ، تزينها رسوم غير أنيقة ، ُحرقت خطوطها حتى أصبحت بنـّية غامقة ، ولوّنت بخطوط حمراء ناعمة وصفراء ، ممتزجة بقليل من الأسود أو كثير . وقد ِخيط السجاد أيضاً ، بألوان مشابهة ، ولكن اصفر ، وبلا وبر ، وليس مستقيماً دائماً ولا متشابهاً ، وهذا السجاد يمكن ان ُيرى جيـّداً في الاسواق ، ويدرس . هذه الاسواق التي تحوي كثيراً من منتجات المنطقة، حيث تصبح الخصائص الافريقية موضوعاً شاغلاً .

ولم يكن هنالك شيء منظماً ، من اجـل انتزاع اهتمام الاجانب ، في بلد محروم من السوّاح ، ويحتاج المرء للبحث والسؤال عن سلع تعرض عرضاً مغرياً في بلد اكثر « تمدناً » كتونس أو الجزائر . ويمكن ان ُتدفع الرفوف المغـبرة والزوايا المشتبه بها للكشف بعد جهد ، عن قناديل نحاسية عتيقة ، يونانية وإيطالية بجلاء، وشمعدانات ، وطارقات ابواب، ومماسك جعلها الزمن والاهمال سوداء ، ولكنها عظيمة وفنية .

وكان الينبوع التركي نقطة تجمع كبرى في المدينة ، شيد على شرف سلف السلطان الحالي ، وهو يظل محاطاً دائما بحشود مختلفة كل الوقت . ويمر بـه المرء في كل النزهات والمشاوير عبر الجادات الموحلة المسورة التي تفضي إلى الصحراء

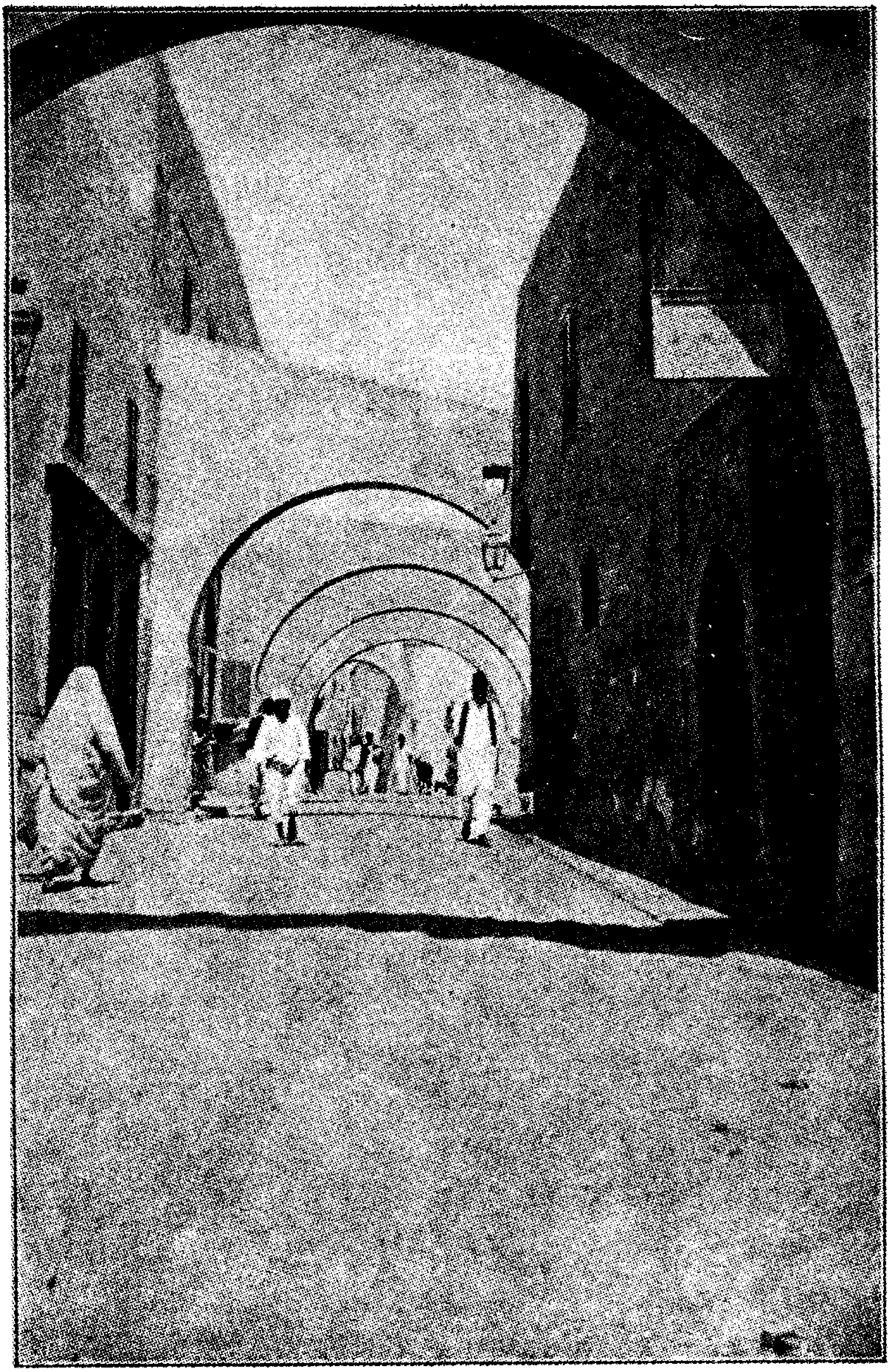

منظر قديم لشارع الأربع عرَصات

الكبيرة حيث تنتظر الأبدية .

وكان نفر قليل من نحّاتي العاج ما زالوا موجودين هنا وهناك ، وكان يتم الحصول على عمل جيد حقاً باعطائهم التصميم ، وبتحديد الأشكال والاستعمالات بدقة .

وقد صُنِعت ، بناءً على طلبٍ ملح ، يدٌ مظلة من العاج ، بحلقات متحركة ، وحفرت طغراء مع أن الصانع ليس له أدنى معرفة بالرسائل أو أهميتها .

وواظب رجل عجوز على صنع مراوح من الاعشاب وسعف النخيل ، تشبه في شكلها العلم المربع ، ولكن يمكن ان تستبدل هذه بأيدٍ عاجية فخمة جداً ، باعطاء تعليمات مفصلة ، ويمكن ان تحاك الأحرف الأولى من اسم المرء بأناقة على المروحة نفسها . وكان بعض الاهلين يقوم بحفر دقيق ، على بيض النعام ، ولكن الايطاليين كانوا يقومون بعمل أفضل في هذا المجال . وكان ريش النعام الآتي من الداخل لا يزال يصدر بشكل محـــدود. وكان تصفيف الريش الخام المائل الى السمرة حسب الحجم والكثافة والصفات الاخرى موكولاً الى صبية من العرب واليهود تحت توجيه ورقابة .

ولقد سُوّرت المدينة سنة ١٩٠٠ تسويراً هائلاً . وكان أن أنشأت المستعمرة الانجليزية الصغيرة ملاعب لكرة السلة ، في مكان مناسب خلف الحاجز الكبير . وكان يقدم شاي بعد الظهر ، بعد الالعاب العنيفة كل يوم .

وكانت البوابات الثقيلة جداً ، تغلق في السادسة امام كل منهم في الخـارج عندما يأخذ المغيب يورّد العمران الابيض بـلون وردي شهي . ولا يستطيـع أحد ان يخرج أو يدخل ثانية حتى الصباح .

وعندما تدار البوابتان معاً ، تلتقيان على صحيفة نحاسية في الشارع ، كل من يطأها ساهياً في عودته من المدينة كان مقدراً عليه ان يرجع . ولقد كان هـــذا

حظي السعيد سنة ١٩٠٠ وسنة ١٩١٠ ! وقد رأيت المدينة الصحراوية مـــرة اخرى ، بعد خمس سنوات ، وكانت البوابة وجزء من السور قد أزيلا . وبزغ شعور غامض لإنشاء شارع واسع على الطريقة الاوروبية ، فرُصف شارع عـلى شاطىء البحر أحيط بسور ودرابزين .

ولم تجرِ محاولة للتعبيد ، وكان تعاقب التل والوادي يجعل أي تقدم لأي وسيلة نقل ذات عجلات عذاباً مستحيلاً .

وفي صباح احد ايام ايار (مايو) العذبة ، ايقظتني قطعان الماعز المارة ، التي صنعت اظلافها الصغيرة جوقة من الطرقات على الطريق ، وكان يرافقها بوضوح موكب من الاجراس التي ترن باصرار مستمر ، وكأنما هي تقصد إيقـاظ المدينة .

وحدث في وقت متأخر من النهار ، شجار في الشارع بين بائع قناني أسود فاحم ، تحملها « عربة جرّ » صغيرة ، وشخص مطربش ذي لون أخف ، اجتمع عليه تدريجياً حشد من كل أمم الارض ، ومن بينهم رجل يحمل طاولة على رأسه . وبدا وكأن كلاً منهما كان ينوي تمزيق عيني الآخر ، ولكن العربيـة لغة مؤثرة ، والاصوات كانت خشنة وعالية ليس اكثر ، لتتحول في النهاية إلى مصادمة ظريفة حقاً . ومرّ وسط الشجار موكب من الاطفال يلبسون مختلف انواع الثياب التي يفترض انها اوروبية ، تقودهم راهبتان أو ثلاث من الروم الكاثوليك يبدون شاحبات ومتخوفات . واطلّ بعدئذ تركي يلبس عمامة ثقيلة ، ورداءً أحمر زاهياً . ثم اطل راهب فرنسيسكاني يلبس رداء بنياً .

وكانت قوارب الاسفنج ترسو احياناً في « المارينا » ، حيث كنا نتناول قهوة بعد الظهر في بعض الاوقات . وكان الرجال المسنون الذين يحيكون السلال الخشبية ، يجلسون في الزوايا ، وكانت جبال من جرار الماء ، من كل الاحجام والاشكال التي يمكن تخيلها ، مكوّمة هنا وهناك . وكان يوجد في سوق السمك سمك احمر زاهٍ وأزرق لامع . ورأيت قريباً من هذا المكان ، في مناسبات

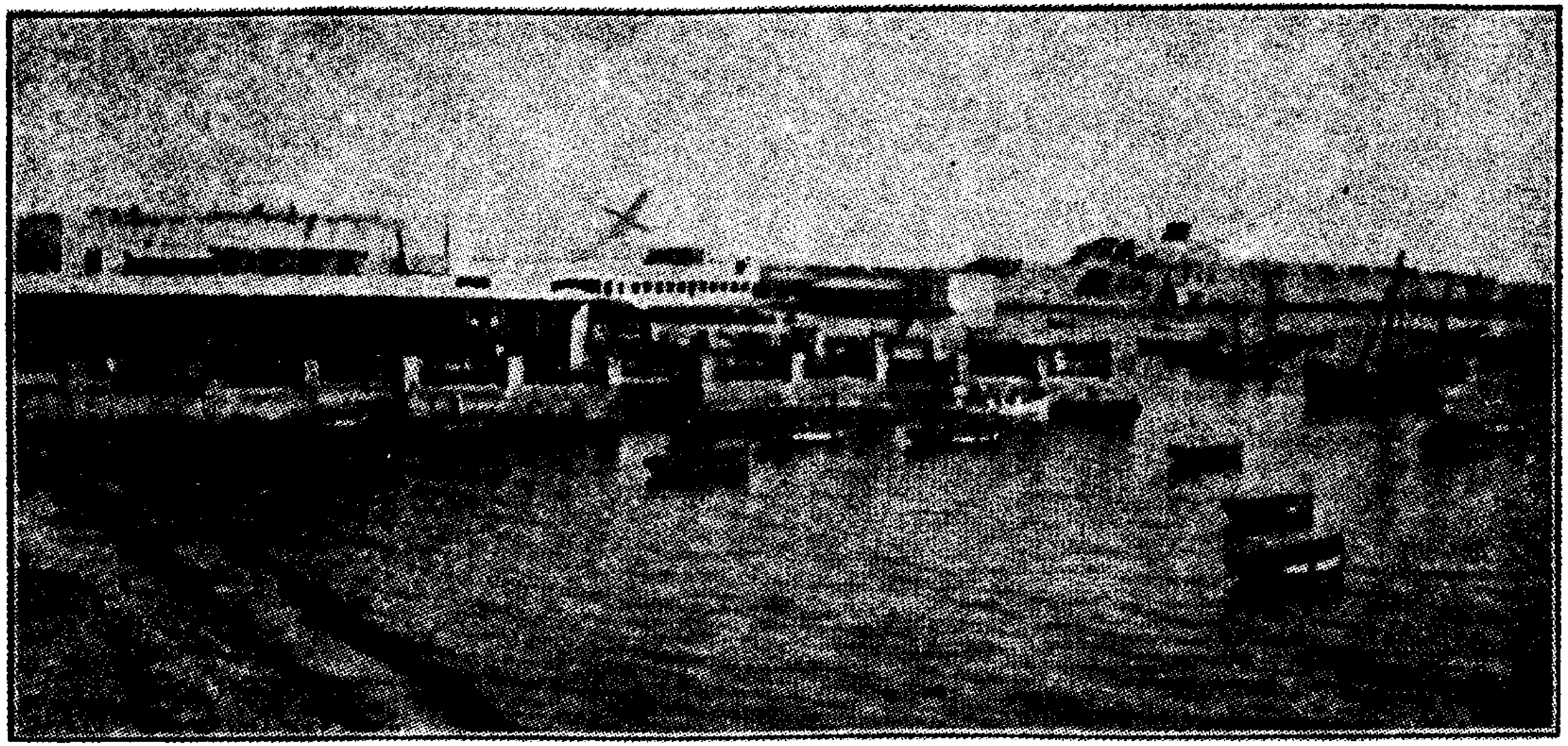

الجمرك والكرنتينا

عديدة ، درويشاً ورعاً ، ذا رأس وذقن شعرهما غزير جعد ، ورأس لا تعتمر طربوشاً ولا « حوليا » ، ونظرة ذات انجذاب غريب في عينيه النفاذتين . ويمر شيوخ الطرق والاتقياء ما بين الحين والآخر ، فتحييهم كل يد تحية احترام .

وكان العرب يحملون مفاتيح أبواب كثيرة ، بادية بوضوح ، على أطراف الشارع . وقد لوحظت العادة نفسها في مراكش والجزائر ولكنها هناك ، ربما كانت لها أهمية مختلفة . لأنه ما زال هنالك اعتقاد بأن المغاربة الذين طردوا من غرناطة ، سيعودون يوماً الى بيوت اسلافهم . وان المفاتيح الضخمة التي يتأمل ان تستعمل ثانية في يوم من الايام ،هي المفاتيح الحقيقية لهذه البيوت، حملها اجدادهم معهم عندما تولوا بوجوههم عن تلك البلاد الجميلة المحبوبة سنة ١٤٩٢ .

وفيما عدا الايطالية ، فإن قليلاً من اللغات التي يفترض طبيعياً أن يكون المرء قد درسها ، تكون ذات فائدة في المدينة البيضاء . وما لم تكن التركية والعربية والمالطية والاغريقية الحديثة ولهجات الصحراء جزءاً من عدة المرء العقلية فإن الاتصال يتم بشكل رئيسي ، عن طريق الاشارة . وكانت هناك قنصليات فرنسية وايطالية وانجليزية ، وهي الأمم الأوروبية الوحيدة التي لها ممثلون دائمون في طرابلس : ولكن في بابل القوميات التي تحيط بالمرء عند وصوله ، ما من كلمة مألوفة كان يمكن تمييزها .

الفصل السادس

موجز تاريخي

كان حظ طرابلس ، منذ بدء التاريخ تقريباً ، تجارب متنوعة . انها واحدة من أقـــدم المدن في العالم ، وقد دمجت « اويا » مع « لبدة » و « صبراته » ، فأصبحت طرابلس ، أو « المدينة الثلاثية » . يحتمل ان يكون الفينيقيون هم الذين أسسوها ، عدة قرون قبل المسيح ، والقليل من أمجادها الأولى يمكن اقتفاء أثره وقـــد كانت يوماً عاصمة سرتيكا ديغو . وكما يشير السير لامـــبرت بليفير (Lambert PlayFair) محسناً التصوير : « كل ما بقي الآن من الدول الـــبربرية الشرقية الثلاث هو تاريخ » . وفي هذه الايام القديمة كان يعتبر خليجها العظيم : « سرت الكبرى » ، خطراً على المـــلاحة ، وكانت وراءه تقـــع « سيراري باركا » (Ceyrari Barka) طريق الدوامات هذه من سيرنيا (Cyreniaca) الى مصر ، التي تكاد لا تقل تهديداً بأخطارها المختلفة . وبلاد البربر كاسم ، اعتقـــد جبّون Gibbon انه مجرد استمرار من ايام قاهريها الرومان ، الذين سمّوا كل ما هو خارج بيئتهم الخاصة بربرياً . ويعتقد كتّاب آخرون بأنه مجرد تكرار لكلمة « بَرّ » Bar ، التي تعني الصحراء ، أوربما من « بربر » ، سكان الوبَـــر الأكثر قدماً من بين سكانها . وكيفما نشأ الاسم أو نشأت البلاد ، فإن لها تاريخاً متقلباً ودامياً من عصور .

وولد سنة ١٤٦ بعد المسيح ، الامبراطور ليكيوس سبتيموس سيفـــيرس (Lucius Septimius Severus) في مقاطعة طرابلس بلبلس ماجنا (الـــتي

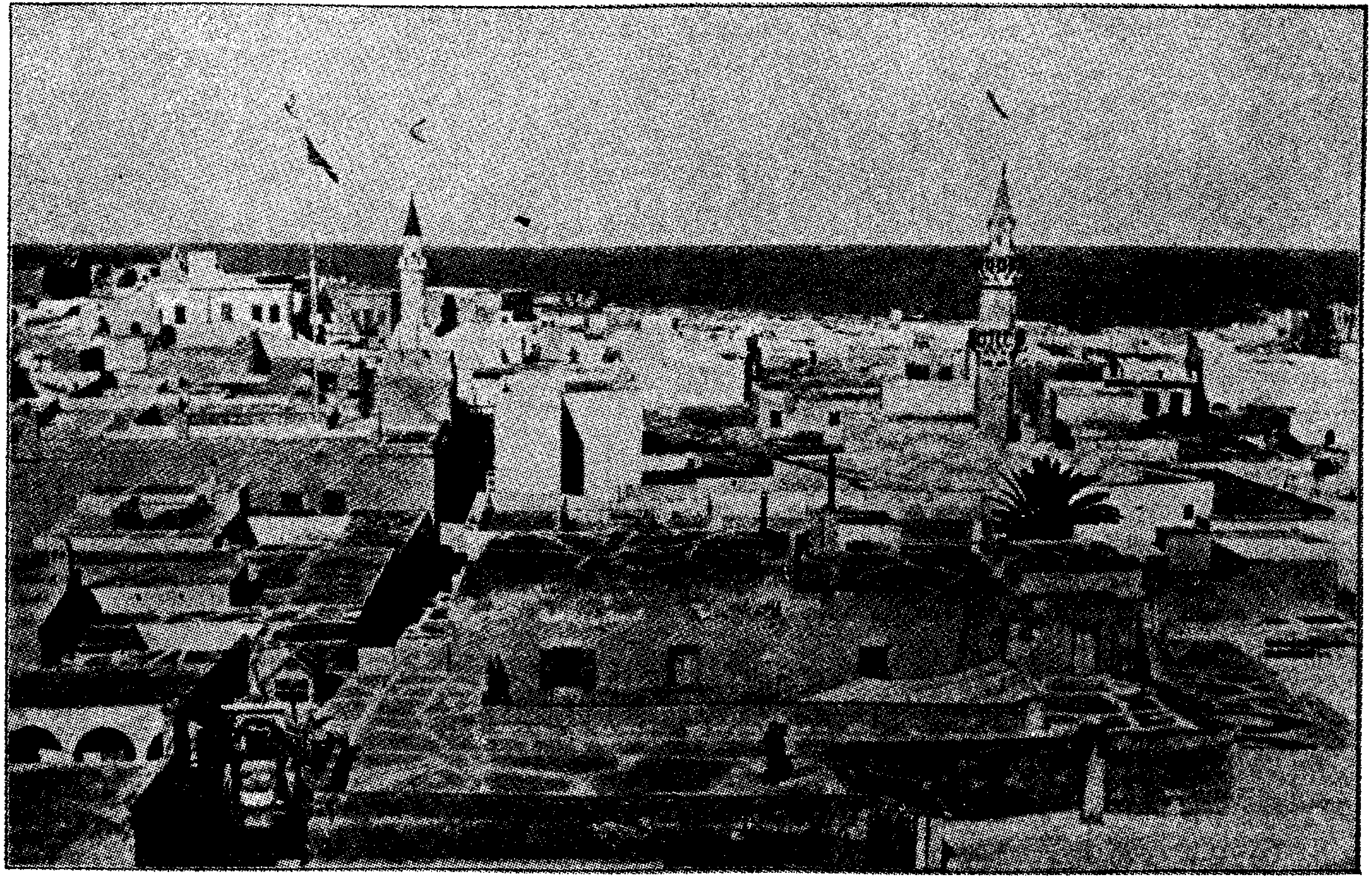

من سطح القنصلية الفرنسية

صوت http://mostafamas.maktoobblog.com التوحيد

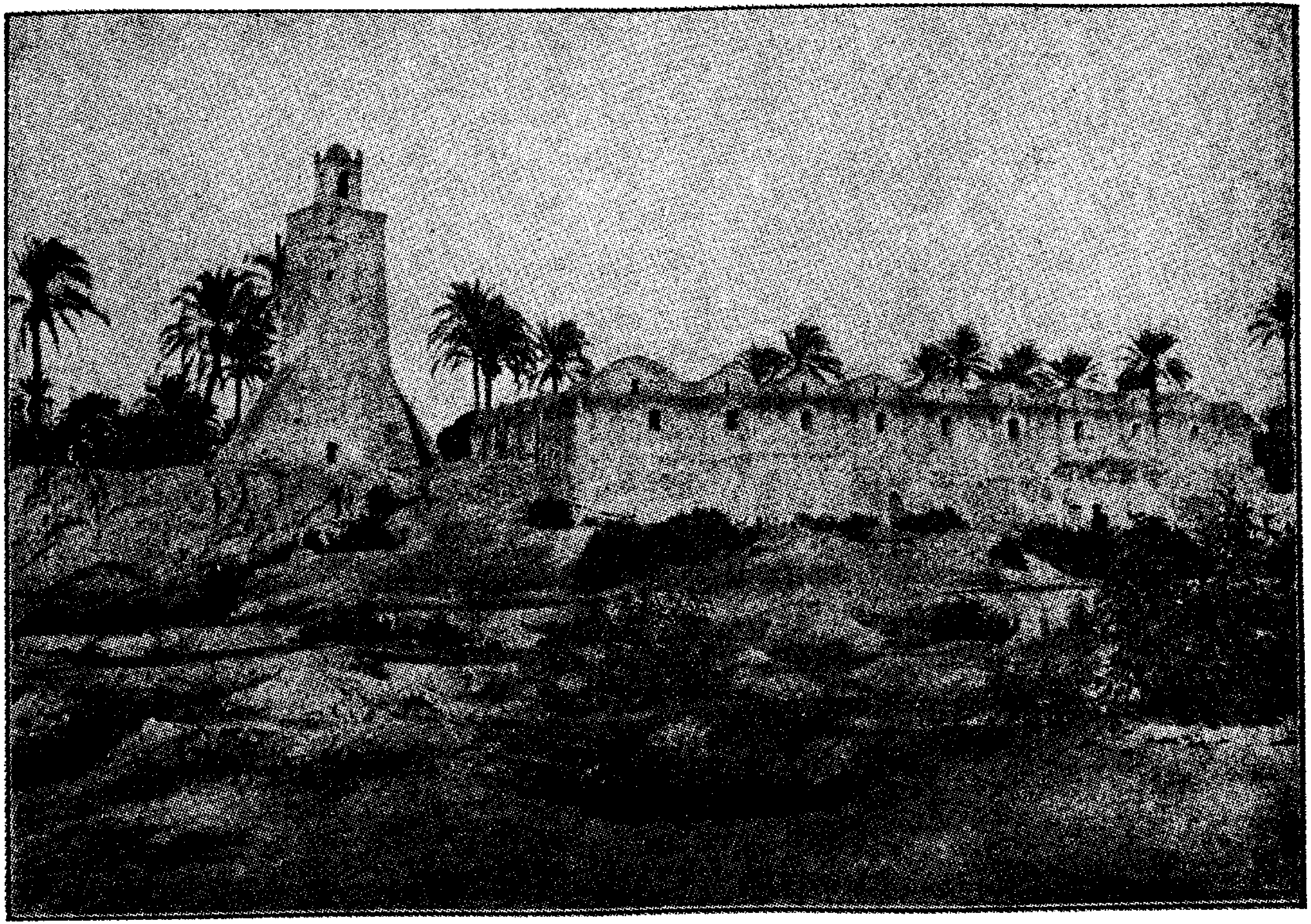

تاجــوراء (جامع مراد آغا)

صوت http://mostafamas.maktoobblog.com التوحيد

دعاها العرب فيما بعد لبدة Lebda) عندما كانت البونية لغة البلاد . وكان سيفيريس ، ذلك الطاغية العسكري الذي لم يتساهل مع أي طغيان غير طغيانه، اول امبراطور روماني تعلم اللاتينية كلغة اجنبية .

وانتقلت من روما الى المسلمين ، من إقامة الأعمال الفنية العظيمة ، الى ضرب اعناق التماثيل ، والقائها على الأرض ، من كونها ضحية الفاندال في القرن الخامس الى خلاصها على يد القائد البيزنطي بيساريوس بعد قرن . وبعد، ففي سنة ٦٤١ (بعد الهجرة التي كانت سنة ٦٢٢) عندما اندفع المسلمون ودينهم في زحفهم مثل اعصار من مكة والمدينة على طول الشاطيء الافريقي ، طامسين كل آثار المسيحية في تقدمهم الذي لا يقاوم ، فإن طرابلس لم يسمح لها أن تبقى حصن النبي غير المنازع .

ولقد حكمها العرب حتى سنة ٧٨٧ بعد المسيح ، لتصبح بعد ذلك خاضعة لحكام تونس زمناً . وفي سنة ١٣٥٢ ارسل طلب الى ابي عينين ملك مراكش ، من اجل خمسين الف قطعة من الذهب ، لتقدم فدية الى الجنويين ... وقد أرسلها على خمس دفعات . وخلال حكم فرديناند الخامس « الكاثوليكي » دخل الاسطول الاسباني الميناء سنة ١٥١٠ ، واحتل المدينة في ليلة واحدة . وهنالك اعتقاد بين سكان طرابلس في أن خرائب القلعة القائمة مقابل المقبرة الكاثوليكية والمعروفة باسم برج بوليلة ، هي بقايا قلعة اقامها الاسبان خلال تلك الليلة المشهودة . وقد رفضت الطبقة العليا في المدينة ان تعترف بالسيادة الاسبانية ، ولجأ كثيرون ، بعد ان تركوا بيوتهم ، الى الواحات القريبة ، وخاصة تاجورا ، التي اصبحت مركزاً هاماً .

وتنازل شارل الخامس الكلي الحضور ، بعد ذلك ، حوالي سنة ١٥٢٨ ، عن مالطا لفرسان رودس ،وتنازل معها عن حكم طرابلس، التي حكمها الرهبان حتى سنة ١٥٥٣ ، حين طردهم منها القرصانان التركيان الشهيران دراجوث

العظيم الرهيب وسنان . وتنسب اسوار المدينة الأصلية الى دراجوث الجبّار . فلقد كان يعلم جيّداً لماذا كانت الأسوار مطلوبة . وتعتقد بعض المراجع بـأن الفرسان هم الذين اشادوا الاسوار ، يساعدهم السجناء العرب ، وربما كان القرصان قد اعاد بناءها . وكان دراغوث وباربروسا يطوّفان البحار بسفنهما ، ويُفترض ان يكون دراجوث ، الذي مات مقاتلاً من اجل الاستيلاء على مالطة ، قد قبر في أحد جوامع طرابلس التي بناها ، أو بالقرب منه . وقد نجحت طرابلس نجاحاً عظيماً ، كمركز للقرصنة .

وأرسل كرومويل سنة ١٦٥٥ ، أي بعد قرن من هذا التاريخ ، ناظـراً بعين يقظة الى القوة المتزايدة لبلاد البربر والى بلية قراصنتها ، أمـيرَ بحرٍ لديه يدعى «بليك» الى هذه المنطقة المضطربة ، وقد وزع هذا العقاب البدني توزيعاً تعسفياً. وقد ابقت الثورات وصدامات المصالح المختلفة والأمم المختلفـة السلطة في اضطراب أجيـالاً . واصبح احد امراء اسرة قرمنللي حاكماً حوالي سنـة ١٧١٠ . وحاول هذا ، وقد ازداد طموحه ، ان يصبح ، عملياً ، مستقلاً عـن الاستانة ، ولكن لخشيته من ضباط معينين ، موالين جداً للسلطات ، تذهب الرواية الى ان احمد باشا دعاهم في مناسبة الى وليمة ، ما عادوا منها ابداً . وظل خلفاؤه يحكمون « كبايات » اكثر من قرن فيما بعد ، وهي الفترة الوحيدة التي تقترب من ان تكون « عصراً ذهبياً» ، عرفته طرابلس الفقـيرة أبداً . وكان آخر حاكـم من اسرة قرمنللي ، وربما كـان أشهرهم هو يوسف باشا .

وحدث سنة ١٨٢٥ نزاع مع ساردينيا ، وقـد بلغت عنجهية يوسف باشا حداً ، حتى ان اسطولاً ارسل لإخضاعه . وقد خضع في النهاية ، وكما قـال الدكتور إيرا (Ayra) و « خفق علم سافوي على القنصلية آنذاك ، وقد حيته المدفعية من قلاع طرابلس ، وعلّم الرجال ان يحترموا العلم ، الذي قدّر له ، بعد وقت غير طويل ، ان يرتفع فوق العاصمة ، رمزاً لوحدة ايطاليا وحريتها ،

وهكـــذا لم يكن خريف سنة ١٩١١ أول وقت تكون فيه ايطاليـــا فاتحة .

وكانت القلعة الرئيسية والمنارة قد بنيتا على موقع برج قديم ، يدعى الآن برج التراب .

وتروى حادثة مؤثرة عن عبد المؤمن ، الذي كان يأمل ان يتسلم الحكم بعد سيده : ابن تومـــارت .فلقد علـّم هذا أسداً ان يتبعه ككلب ، وعلـّم طيراً ان يقول : « النصر والقوة لك ايها الخليفة عبد المؤمن » . وبينما كان مجلس ميوه هادي يتداول في أمر خليفة لابن تومارت ، جاء هذا الاسد مندفعاً ، وكأنـه قادم من البراري ، وجثم عنـد قدمي عبد المؤمن . وظهر بعد ذلك الطـــير صارخاً بالدرس الذي تعلمه . وكانت النتيجة سحرية : تلاشت المعارضـــة ، واختير هذا الطامح سيداً .

ولكن البلاد افتتحت مرة ثانية . فقد استولت عليها تركيا ، باسم الرغبـة التي لاقت استحساناً ،لوضع حد للفوضى التي احدثتها مطامح اثنين من الأمراء الأخوة ، ابناء يوسف باشا ، محوّلة طرابلس الى محافظة او ولاية تابعة لها سنة ١٨٣٥ .

ومنذ ذلك الحين لم تصنع طرابلس شيئاً لتشجيع التجـــارة ، أو تحسين الاساليب الزراعية ، أو توسيع شبكات الري ، أو لتوسيع التجـــارة ، أو تحديث أية حرفة أو صناعة. وقد وُصِفَت الحكومة التركية بأنها أكثر جموداً من سور الصين . وقد انتظرت طرابلس ، تشلها كل هذه الظروف ، جميلة ، مؤثرة متوهجة ، ولكن كما هي في حالة تعليق النشاط ، ممسكة بأنفاسها الى المرحلة المقبلة . وهكذا فالمدينة ، الشرقية في كل جزئياتها ، لم يفسدهـــا السياح ، وعلى الرغم من خسارتها للتجارة والأهمية ، فقد كانت ما زالت حاضرة لساحل يمتد عدة مئات من الأميال ذي سكان متفرقين ، وبوابة للبحر الأبيض المتوسط على الصحراء .

الفصل السابع

طرابلس والولايات المتحدة

ابتدأ اهتمام الامريكيين بهذا الشاطىء البعيد في سنة ١٧٨٤ ، قرب نهــاية الثورة، عندما جعل القراصنة حياة الجمهورية الوليدة بائسة . ولم يحب بحارتنـــا وسياسيّونا طرابلس مدة تزيد على القرن .

ويبدو ان أول عدوان من القوى البربرية ضد الولايات المتحدة وتجارتها حدث في اكتوبر (تشرين الاول) من ذلك العام . ومن المفروض اننا كنا نحس بضيق كبير من وقوع ثورتنا ضحية سهلة في البحر الابيض المتوسط للقراصنـــة الذين يمسحون البحر حاملين معهم الخطر الاكبر ، وخسارة سفننا ، دون ان نتحدث عن بحارتنا وضباطنا، الذين أسر كثير منهم ، واستعبدوا وعوملوا معاملة قاسية جداً ، على الرغم من المخصصات المالية المدفوعة من أجل الحماية .

ولقد عقدت الاتفاقيـــات ونُقضت ، واشارت إحدى الكراسات القديمة إشارة نادرة إلى أن طرابلس : «لهـــا بعض تجارة قضت ، كريش النعـــام والجلود ، ولكنهم يربحون اكثر من المسيحيين الذين يأسرونهم في البحر ، فهم إما ان يفرضوا فدية عاليـــة عليهم ، كما سنرى في السياق ، في قضية مواطنينا المنكودي الحظ ، الذي وقعوا في أيـــديهم بسبب سوء الحظ ، أو يبيعوهم عبيداً » .

وقد قام بعض الضباط ببطولات رائعة في هذه السنوات المضطربة — بربل ،

استحمام الجمال

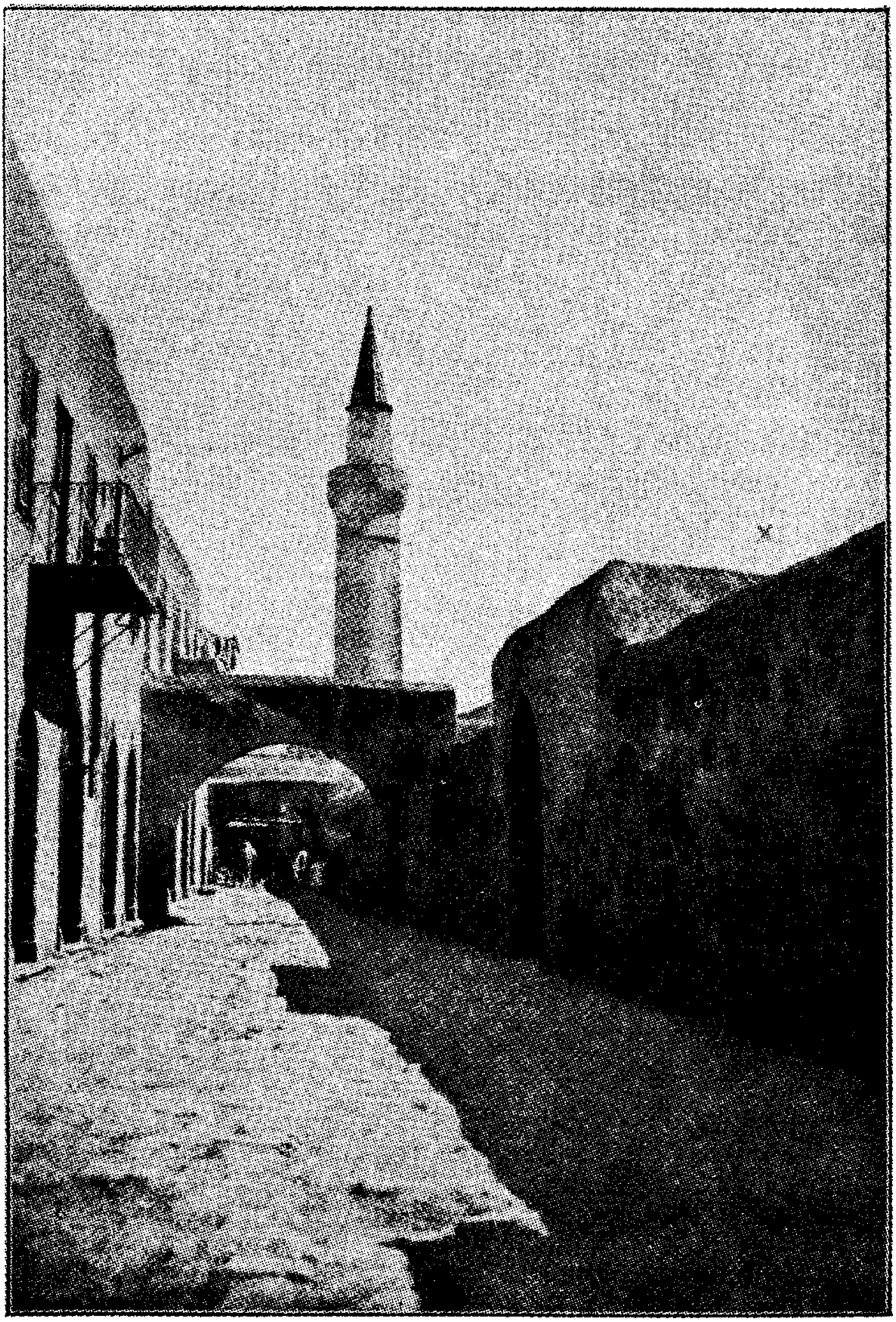

ورأيت البيوت التي اعتقل فيها الأسرى

بيبردج، ديكاتير وآخرون ـ ولكن فقدان سفينتنا فيلادلفيا كان ضربة قاسية ، في وقت كنا نحتاج فيه الى كل مصادر ثروتنا البحرية . وأخرت هذه الكارثة السلم كثيراً ، وعقّد عدد الأسرى الكبير المسألة كلها تعقيداً خطيراً . ان قصص سجن ضباطنا في طرابلس ، ما زالت تروى احياناً ، وما زالت تستعاد حوادث مؤثرة . وقد أريتُ البيوت التي حجز الأسرى فيها ، مع ان أحفاد الأشخاص المعنيين كانوا يترددون تردداً واضحاً في الحديث عن المظاهر المختلفة لهذه الفترة .

وحاصرت سفننا طرابلس سنة ١٨٠٤ بقيادة الربان بربل ، بعد خسارة فيلادلفيا ، ووضع هو وبيبردج الخطة لتدمير البارجة ، التي رفعها الباشا وضباطه ووضعوها تحت الوصاية . وقد نفذت حمله التدمير ، بقيادة ديكاتير ، تنفيذاً عظيماً . اصبحت فيلادلفيا كتلة عائمة من النار ، وعندما وصلت النار مدافعها اطلقت قذائفها ، لتهبط في النهاية في المياه الضحلة قرب الشاطىء ، محطمة نهائياً . ويمكن ان ترى بقاياها المحروقة في أي يوم هادىء ، تحت مياه الخليج الصافية ، وتقف قطعة من قاعدتها التاريخية الآن على مكتبي.

وزاد هذا العمل العظيم من مكانة بحريتنا كثيراً ، وقد دعاه نلسون العظيم : « اعظم عمل شجاع ومقدام في عصرنا » . وكان الاستيلاء على فيلادلفيا وقطرها لتعود ثانية الى اسطولنا ، نتيجة اكثر كمالاً ، ولكن أوامر امير البحر كانت واضحة . وكانت مخاطر محاولة الهرب بها عظيمة جداً .

واستعيد السلام في النهاية ، وانتهت أعمال السلب التي كان يقوم بها قراصنة البربر . فقد اصبحت تركيا سائدة سنة ١٨٣٥ ،ووقفت طرابلس منذ ذلك الحين جامدة .

الفصل الثامن

قلعة الباشا

هذا المقر الرسمي للحاكم ، الذي كان قلعة قديمة ، هو مدينة صغيرة تقريباً قائمة بنفسها . وكان الوصول الى ممراتها الخارجية شيئاً سهلاً على السكان ، الذين كانوا يزدحمون على مداخلها البيضاء بعرائض ومطالب وأعمال يظنونها هامة ، منتظرين بصبر شديد الوقت الذي يسمح لهم فيه الجنود والحجاب الاتراك بالدخول الى القاعات الداخلية . وربما كان كثير منهم لم يصل أبداً إلى الأمكنة المطلوبة ـ ولكنهم كوّنوا حشداً بهياً ، جعلته السلطة الشديدة يحتفظ بشكل نظامي .

وقد اقيمت هنا دوائر الدولة الرئيسية والمحاكم والسجون والمخازن والمستودعات العسكرية . وكانت هنالك ثكنة عسكرية للمشاة . وقد وضع الفرسان والمدفعية خارج المدينة . وكان يعقد نوع من المجلس البلدي (بلدية) ، الذي يختاره الباشا ، جلساته هنا . وكانت تدرس في هذه الاجتماعات مالية المدينة ، وتنظيف الشوارع (وكما يشير كاتب إيطالي إلى هذا الأخير ببساطة : عمل غالباً ما يكون اسمياً) والاضاءة ، كما تدرس مصالح اخرى خاصة بالمدينة . ولم تكن الاضاءة مسألة معقدة غير عادية : فقد كانت توضع قناديل شاحبة ، تعمل بالنفط ، في الزوايا المظلمة ، هنا وهناك .

ويضم البناء الضخم ساحتين واسعتين ،وقد اقيم بثبات على الصخري الطبيعي

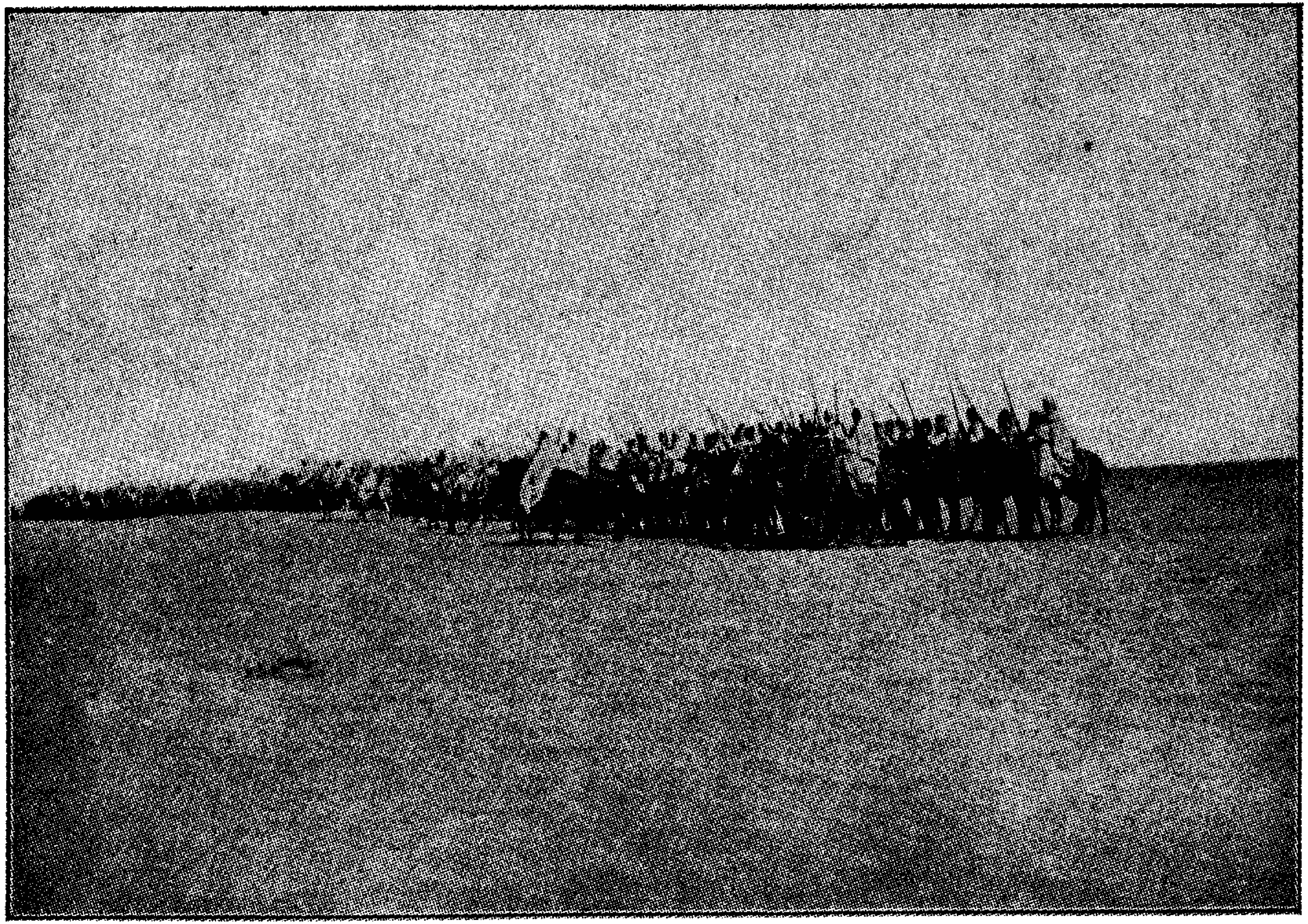

تدريب كتيبة عربية .

الذي تبرز طبقاته ما بين الوهلة والأخرى في الاسوار والزوايا ، واحتلت الزوايا احجار قليلة عليها كتابات رومانية .

ولو تتكلم هذه الجدران الصامتة ، فستكشف سنوات من التاريخ غير المكتوب وغير المحفوظ ، المليء بالعاطفة والبطولة والقسوة وخيانة الحياة . وفي إحدى الزيارات للباشا اقترح أن يرينا القلعة ، وارسل اثنين من الرسميين ذوي الثياب الفخمة ليكونا دليلين لنا . ولم نكن مبطئين لننفذ الاقتراح الضمني بالتفرج على ما كان محدداً بشكل خاص . فقد كانت كلها ممتعة امتاعاً لا حد له ، من حجرات الباشا المرتبة للاستقبال ، حيث كانت تقدم القهوة التركية والمرطبات التركية ، الى السطح الذي قُدِّم ليكون مقر قيادة لاستطلاعاتنا ، والذي يشرف على الخليج والملاحة والرمال .

واحتفل في أول ايلول (سبتمبر) بالذكرى السنوية لاعتلاء السلطان العرش احتفالاً عظيماً . وقد امتلأ النهار بالمواكب والاحتفالات التركية . وأقام الباشا في المساء حفل استقبال رائع . وتحركنا إلى بوابة الحديقة ، فوق رمال بيانورا ، المليئة بالعرب المختلطين ، والجمال النائمة . كان السرادق يتلألأ بالأضواء والزينات ، وكانت الفرقة الموسيقية التركية تعزف عندما دخلنا . وخلقت الستائر القرمزية والبيضاء والكنبات والمطرزات منظراً بديعاً .

وقد استقبل في الداخل قليل من الذين دعوا دعوة خاصة ، بينما بقي الحشد الكبير في الخارج باحترام . حيانا اولاً هـ . بيك ، متألقاً في بزة رسمية ، ومررنا عبر خطوط الحضور المنتظرين من ضابط إلى آخر ، حتى وصلنا الباشا نفسه في النهاية ، الذي أصرّ على أن نشاركه في الجلوس على ديوانه الخاص ، وأبقانا بجانبه كل بقية السهرة .

وكانت ، في الأعلى ، حديقة خاصة مغلقة ، وضعت فيها الفرقة الموسيقية . وقدمت القهوة والبوظة والحلويات والكعك بسرعة . وكان الباشا يتحدث بطلاقة الينا بالتركية التي كان يحوّلها احد موظفيه إلى فرنسية ممتازة . وهكذا مر المساء رائعاً . وانتهى العيد بألعاب نارية مشهودة عندما عزفت الفرقة تحيتها الختامية للسلطان .

الفصل التاسع

السكان والحرف والمدارس

انه لمن الصعب حل اللغز القومي لسكانها الاربعين ألفاً أو يزيدون . وانــــه لمن المستحيل تقريباً إجراء إحصاء يركن اليــــه ، ذلك ان مبادىء القرآن (الكريم) ، حسب تفسيرات معينة ، تعارض مثل هذه الدقة [1] . وكان أقــل من خمسة آلاف اوروبي ، اكثرهم مالطيون ، من المقيمين عملياً . وربما كان البربر يمثلون الأرومة الأصلية ، ولكن الفروقات بالنسبة للناظر ، بين العرب والمغاربة والبدو طفيفة . والأشخاص القليلون المنحدرون من اب تركي وأم عربية يدعون كورجلي أو كولجلي (Courugli or Colugli) . وما تظهره المدينة من اختلاط كبير بين الاجناس بالزواج ، جعل مهمة معرفة القوميات اكثر صعوبة . وكانت هنالك عائلات كثيرة عربية ايطالية هجينة ، وفي مثل هـــذه الحالات كانت مسلمة في معتقدها .

وهناك كثير من الفزانيين والسودانيين الزنوج، وعديد من اليهود، والايطاليين والمالطيين والألبانيين بسراويلهم المنتفخة ، وغواصي — الاسفنج اليونانيـــين، والصقليين ، والدراويش المهوّمين والزهاد الأتقياء . ويُري الجنود المتكاسلين في

---

١ — ان المؤلفة هنا طبعاً تنحرف عن الصواب ، فليس من تعارض بين الاسلام والعلم، وهذا ما تشهد به العلوم عند العرب .

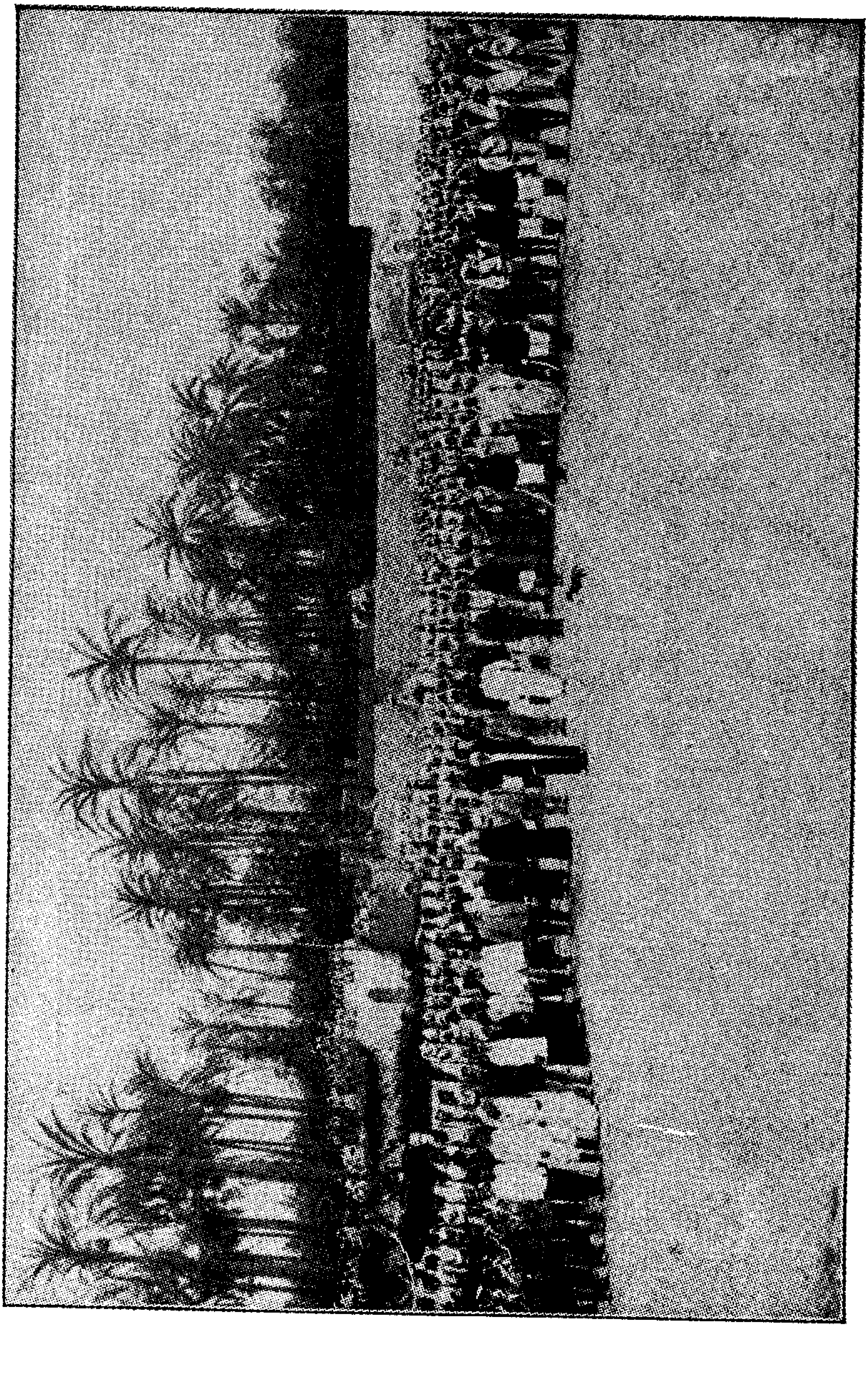

احتفالات عربية وتركية

السودانيون كثيرون .

تكناتهم أو على الأسوار الطينية لحدائقهم ، اكبر تنويع في الألبسة ، وبينما هم قذرون وغير مرتبين، فإن لهم بشكل عام وجوهاً طفولية أمينة أنيسة .

ويضاف الى جماهير المدينة المختلفة المحيرة عشرة آلاف من الجنود ، يقيمون بشكل رئيسي في المدينة أو على مقربة منها . ويقيم في طرابلس إقامة دائمة ستة عشر شخصاً يتكلمون الانجليزية ، ولم يكن هنالك قنصلية للولايات المتحدة مع ان قنصلية انشئت سنة ١٩١٠ ، غير ان القنصل الانجليزي العام ، كان جيشاً في واحد ، مهتماً بلا تحيز برفاه اكثر المالطيين جهلاً ، وبالمصالح الانجليزية الواسعة بنبات الحلفا ، وانواع أخرى من التجارة ، كما كان يهتم ببعثات الكسوف الأمريكية . وكان هنالك ثلاثة مراكز بريد ، تركية وفرنسية وايطالية ، كان لا بد من ان تُوجد سهولة رائعة في نقل البريد . وكان المكتب الايطالي يخدم الشؤون البريدية الانجليزية . وبما ان العملة التركية كان ميئوساً تقريباً من معرفتها ، فإن معاملاتنا المالية كانت تتم بشكل عام بالليرة[1] . مع أن الفرنك الفرنسي كان يلقى ترحيباً حاراً .

ان فنادق الحلفا العديدة متميزة ، وكنا نقضي امسيات مسلية في واحد كبير يملكه صديق انجليزي . ووضعت حزم تبلغ اطناناً من عشب زكي الرائحة حول السور العالي ، حيث كان جيش من الرجال السود ، في أشكال مختلفة من الثياب الرثة التي تستحق التصوير ، ينتزعون الجذور الميتة ، وكل العيوب التي لا تجعلها من الدرجة الأولى . وتُحمل رزم ضخمة على رؤوسهم ، مُتوازنة توازناً رائعاً ، بعد عملية الفصل هذه ، لتلقى في نوع من الصناديق الحديدية ، قفز اليه رجلان ، يرزمانها رزماً شديداً ومتماسكاً . وتدار في آلة

---

١ ــ عملة ايطالية .

تتحرك بضغط البخار ، وتضغطها ستة احزمة فولاذية ، حتى تخرج رزمة نظيفة مشدودة جاهزة للشحن في النهاية . ويدحرجها زنوج بخطافات عبر بوابة ثم يسحبونها في زقاق ضيق إلى المخزن . ويقال بأن طرابلس كانت تجني أكثر من مليون فرنك في السنة من تصديرها . وعند وصولها من الداخل ، كان يدفع للعرب الذين احضروها بدل وزنها وخزنها ، كما كانت تدفع ضريبة للحكومة .

وكانت الحنطة تستورد بكميات كبيرة ، ولكن عندما تضافرت اسباب مختلفة لتقليل الطلب ، استقر الأهلون على جمع وطحن ما هو كافٍ فقط لحاجتهم القليلة. وكان النشاط في الأعمال المختلفة أكثر كثيراً في الايام الماضية .

وتُقدم الحياة اليومية صورة حية لقوميات لا تجارى في أية منطقة أخرى . وكان العرب منتشرين وموجودين دائماً ، مثل الاطياف التي تبدو في الاحلام ، يرتدون الحولي الابيض ، ويجتازون شوارع المدينة الشاحبة بصمت وهم سواسية في طيفيتهم ، وتلتف النساء بثيابهن التفافاً كاملاً ما عدا عين سوداء واحدة ، ويبدي الرجال وجوهاً سمراء ذات رصانة وإباء لا يمكن التعبير عنها. ويملأ الشوارع الرئيسية ، اليهود المتعجلون والمالطيون ذوو الوجوه المستديرة ، والنساء في اللباس الوطني ، وأمم الصحراء المتدفقة ، تمتلىء الشوارع بهؤلاء من كل لون ، ابتداءً من الاصفر إلى البني الغامق جداً ، ومن ثم إلى الاسود القاتم الشبيه بالابنوس ، أو الاسود المجلوّ مثل الجلد المصنوع – انهم خليط من البربر والزنوج والفزانيين والسودانيين في « مشهد متحرك » .

وكانت ادارة الكلية المسماة الكلية التركية في المدينة ، ولكن كان على الطلاب ان يتموا أية دورة دراسية في الاستانة ، خاصة إذا ما اختاروا الحياة العسكرية. وكانت هنالك مدرسة فرنسية للصبيان يديرها الرهبان الماريانيون. وكانت هنالك مدرسة للبنات وملجأ تديرهما راهبات القديس فنسنت ،

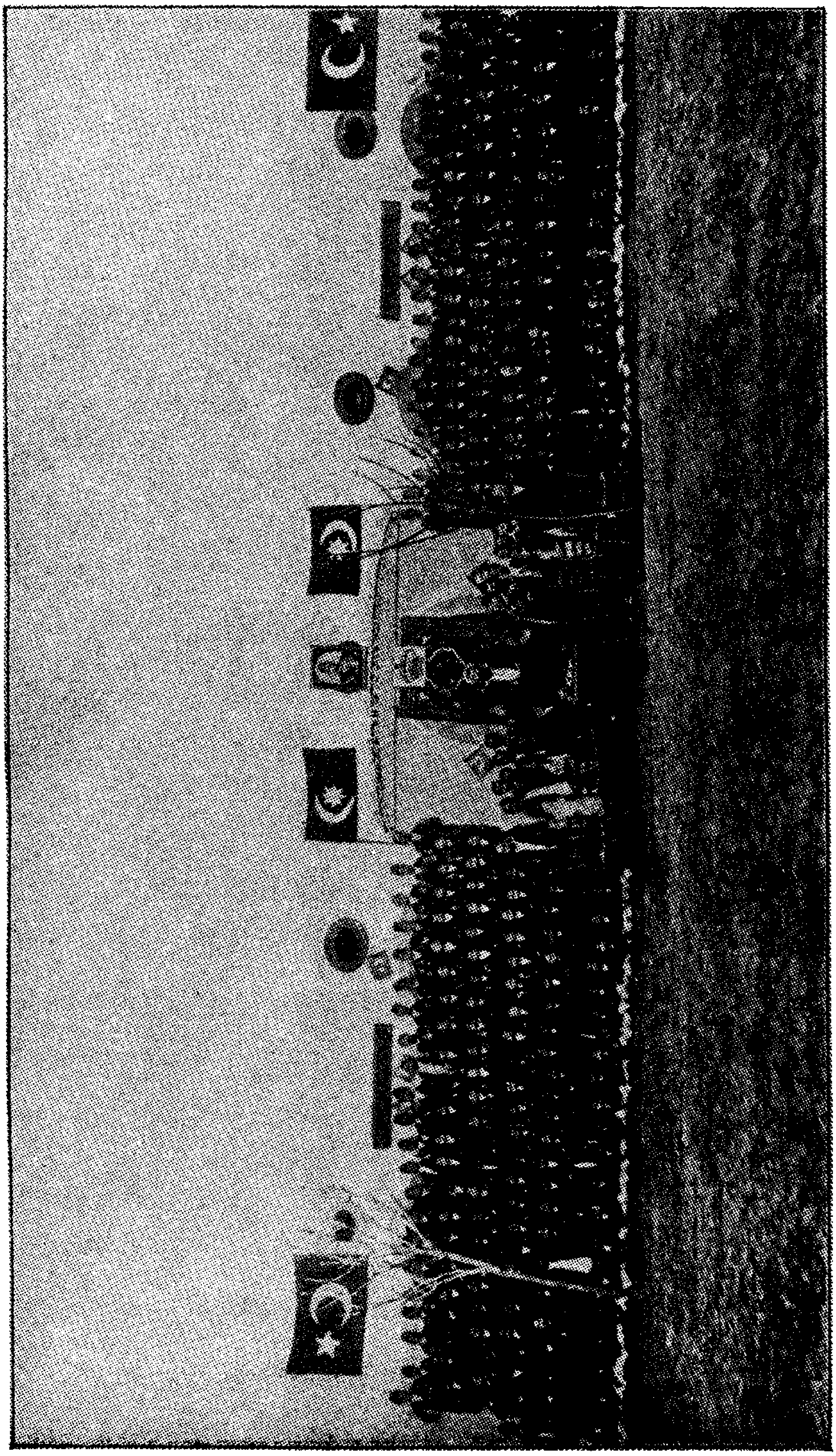

مدرسة تركية للصبيان

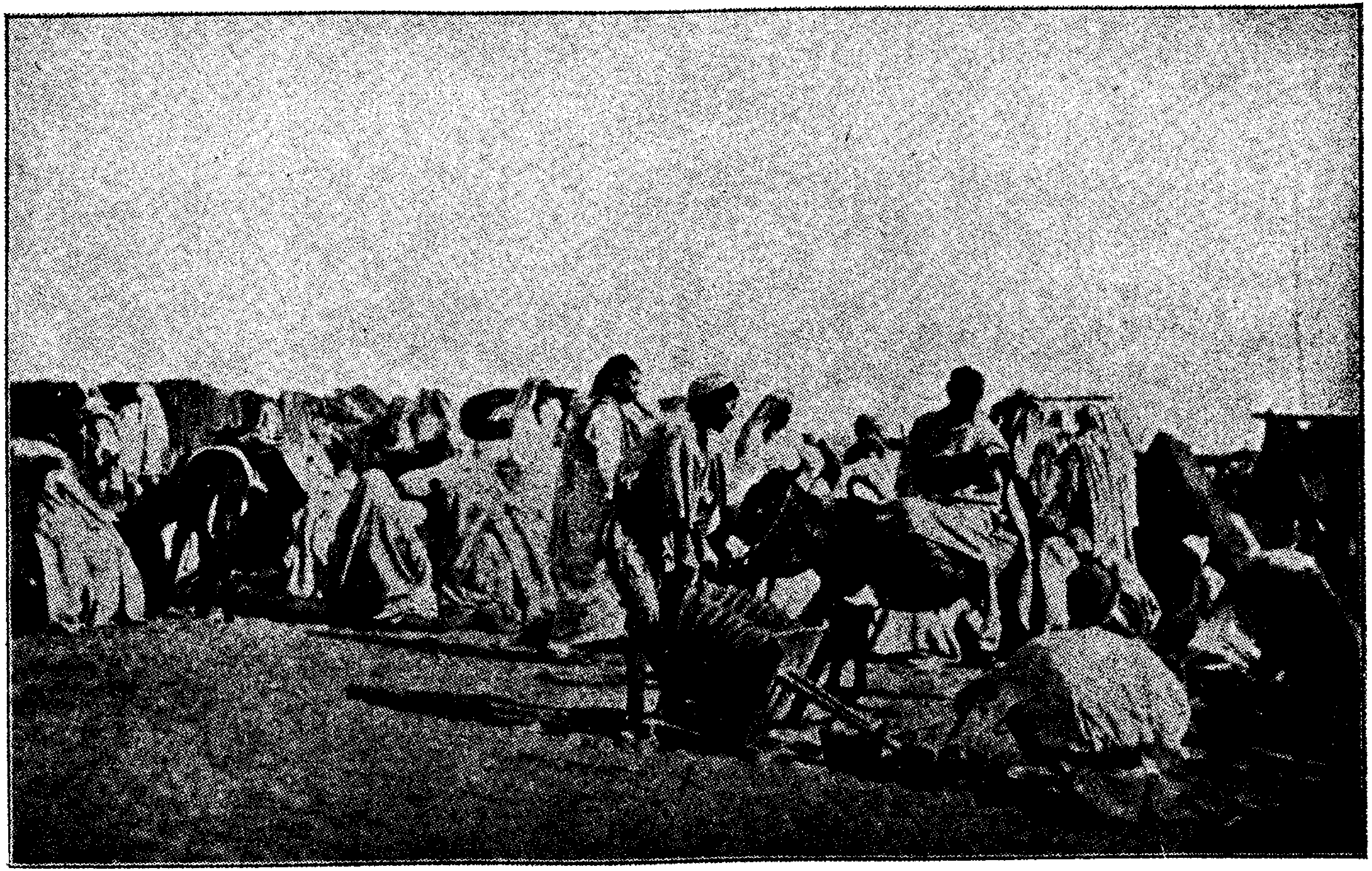

أكوار .. كالتي استخدمت من قرون بالضبط . (يوم سوق الثلاث — الحدّاد والمنفاخ)

ومؤسسات بإدارة الاتحاد اليهودي .

وكانت هنالك مجموعة من اجهزة قياس التقلبات الجوية التي وضعها البروفسير بلازو (Palazzo) ، وهو من روما ، على سطح المدرسة الايطالية للصبيان ، لاستخدامها خلال كسوف سنة ١٩٠٥ . وادارت ايطاليا مدرستين ابتدائيتين للصبيان والبنات ، وروضة اطفال ، ومدرسة تقنية تجارية ، الحقت بها محطة مراقبة التقلبات الجوية . وقد قدم المدير الأخير للتعليم الاجنبي جوسيب ايرا (Sig . Giuseppa Ayra) تاريخ التقلبات الجوية العام لطرابلس في مجلد صغير نشر في تورين قبل عدة سنوات . وكانت محطة المراقبة التي اسستها ايطاليا سنة ١٨٩٢ المحطة الوحيدة بين تونس والاسكندرية ، وقد احتلت موقعاً هاماً .

وكانت المدرسة التقنية للاطفال الفقراء والأيتام قد احتلت بناية حديثة ، حيث رحّب بنا مدير رزين كفوء وقدمت لنا القهوة التركية بسرعة في غرفة الاستقبال البسيطة .

ورُوفقنا عبر غرف اخرى ، حيث كان الصبيان يعملون على المخارط ، ويصنعون الاثاث والمعدات والاحذية ، ويحوكون الحرير « حوالي » ومواد للبس وستائر . وكانت ورشة الحدادة مزودة باكوار وُعدَد ، تشبه تلك المستعملة من قرون تماماً ، وكان هنالك ثلاثة رجال يطرقون سنداناً وهم يرددون نغماً عربياً محبباً . وقد عمل رجال من كل الألوان معاً بسلام ، السود من السودان ، والسمر من مصراته وقابس ، والعرب ذوو اللون الأفتح ، لقد كانت كل الأجناس متصادقة متوادة دون تمييز .

ووصلنا ، عبر حديقة حارة ، بعد ان اجتزنا حظيرة مليئة بالاكياس والماعز

(كانت مرة مقبرة للعرب) –البناية حيث البنات كنّ مشغولات بصنع السجاد ، وكان على صبيّة محتشمة سوداء فاحمة السواد ان تسبقنا لتنذر المدرسة بوصولنا ، حتى تتمكن الصبايا الصغيرات ، وبعضهن كنّ قد بلغن من العمر مـــا يجعلهن جذابات ، من وضع براقعهن على وجوههن قبل ان يصل مدير المدرسة والرجال الأجانب . وكانت البنات اللواتي دون العاشرة يبقـــين حاسرات .

التفتنَ كلهن وحييننابطريقة فتانة ، ثم عدن ثانية باشارة الى حياكتهن ، التي كنّ يقمن بها بسرعة عظيمة ، ناسخات « رسمة » من المفروض ان يكون فنان قد أعدها . كان الشغل جميلاً جداً ، أما النماذج فرديئة – اعـــلام وشعارات وطنيـــة ، وخارطةُ افريقيةٍ ، ذات الرسوم الجافة والألوان الزاهية الفجة .

وتوجد بعض المراكز الواسعة خارج المدينة ، ولكن لا يوجـــد عملياً أي مركز في الداخل . وفي بنغازي عاصمة سيرنيا كا (Cyrenaica) ، القريبة من خرائب هسبيريا Hesperia[1] القديمة)التي سميت فيما بعد بيرينس)عشرة أو إثنا عشر الفاً إلى جانب الحامية التركية . ولم يكن هنالك اتصالات منتظمة مـــع اوروبا أو مع طرابلس ، وقـــد يمر احياناً شهران تقريباً دون أن تتوافر هذه الامكانية . وحاكمها من مرتبة أدنى من مرتبة باشا طرابلس ، ولكنه مع ذلك مستقل عنه . وفي سيرينيا كان حوالي مائتي ألف من السكان ، وعلى مركـز البريد الايطالي ان يحتفظ بالبريد مدة شهر أو أكثر قبل أن تتهيأ أيـــة وسيلة لنقله ، وكانت البواخر الانجليزية الجوّالة ، أو المواصلات التركية هي ناقـــلة البريد الوحيدة الممكنة .

وتجتمع مجموعة قرى فقيرة في جبل غريان ، حول قلعتين تركيتـــين وحاميتيها ، قصر الغريان وقصر الجبل . وزنتان هي مركز جالية مـــن سكان الكهوف الحقيقيين . وسكان هذه القرى « التحت ارضية » يعيشون في مآوٍ منحوتة في الصخر ، لا يتركونها إلاّ من أجل العمل والحصاد .

---

١ – تعني الغرب ، مكان بنغازي الآن .

الفصل العاشر

القنصلية البريطانية العامة

ان بيت الممثل الرسمي لبريطانيا ، واحد من أقدم واوسع واكثر البيوت إثارة للاهتمام في المدينة . لقد بني سنة ١٧٤٤ ، ومساحته مائة قدم مربعة ، وهو محاط بفناء مركزي عادي ، وقد انشيء اعتماداً على فكرة درء الحصار . انها قلعة قائمة بذاتها تقريباً ، وقد خدمت اغراض الدفاع واللجوء للمقيمين الأوائل في المدينة المضطربة عدة مرات ، قبل ان يهرع اليه المقيمون الذين يتكلمون الانجليزية سنة ١٩١١ . ويحتل الخدام العرب الوسنى مداخله المعقدة فقط في وقت السلم ، ومن هؤلاء القواس الجليل ، والمترجم مفتي ، الذي يقود الزائر المنتظر إلى الداخل ، إذا كان سبب قدومه مقنعاً .

وتقع ، خارج الفناء ، المكاتب والمطابخ واجنحة الخدم : وتعطي الشجرة الضخمة المعمرة التي ترفع اغصانها أعلى من السطح كثيراً ، والشجيرات المزهرة بوفرة سخية ، وترحيب خرير الماء ، مفعولاً مهدئاً وبيتياً للدارة الظليلة . ويوصل درج من الحجر جوّفته أقدام مائة وخمسين سنة ، وعليه درابزين من الحديد ، الى الشرفة فيما فوق . وتقود الابواب الجذابة الى قاعات الاستقبال وغرف النوم والأكل ثم الى مخدع صاحب البيت .

علق على جدار القاعة شعار الدانمرك الوطني القديم – الذي كان سابقاً يزين قنصليته التي اهملت فيما بعد ، وهو ذو اهمية خاصة في تذكر قصص السلوك

الانساني لأحد قناصل الدانمرك ، تجاه السجناء الامريكان خلال الحرب المضنية مع طرابلس ، قبل اكثر من قرن . وعلق إلى جانب الشعار الدانمركي شعار النرويج ، اسفع وبالٍ ، من قنصلية أخرى ما عادت موجودة : وقد اهتم قنصل بريطانيا العظمى العام بأمانة ،بالمصالح القليلة لهذين البلدين في هذه الولاية التركية البعيدة ، ولقد مثّل هو ايضاً الامريكيين القلائل الذين ينشدون شواطىء بلاد البربر ورمالها .

وتُغني الأصص الرومانية العديدة والمنحوتات التي اخرجت من الرمال العادية غرف الاستقبال والقاعة ، بينما تخلق النبابات الوافرة جداً ، والمقاعد وموائد الشاي المصنوعة من البامبو جواً من الضيافة المبهجة .

وكانت السجلات في المكتبة : هذا المكان الذي يسلب اللب التنقل بين الكتب فيه ، غنية بالكتب القديمة والمخطوطات . ولقد عثرت في أحد الأيام على المجلد ذي التسلية النادرة : « حكاية إقامة عشر سنوات في طرابلس بافريقيا » .من مراسلات يملكها رتشارد تولي (Richard Tully) ، لندن ١٩١٦) . وتتضمن القصة المسلية التي يرويها هذا الكتاب القديم ، الذيصدرت منه طبعات تالية ، ولكن دون اللوحات الملونة المضحكة جداً الموجودة في الطبعة الأولى على الأغلب ، في رسائل من المفروض أن زوج القنصل البريطاني العام كتبتها الى ليدي ماري ورتلي مونتاجو (Lady - Mary Wortley Montagu). وقد حفظت هذه السيدة النشيطة ،بشكل حي تفاصيل ذات قيمة ، كلها الآن منسية ، عن بلاد البربر القصية ، منذ أكثر من مائة عام .

وكانت وسائل المواصلات المستعملة ، حتى بعد دخول القرن التاسع عشر ، تنحصر على الأغلب في الهوادج المغطاة بالكتان ، والمحمولة على ظهور الجمال : ولكن هذه كان يقتنيها قليل من المغاربة لنسائهم . أما الآخرون فيمشون . وكان الحِدادُ يميّز في طرابلس في هذا الوقت بالرثاثة اكثرمما يميّز بلون مُعيّن

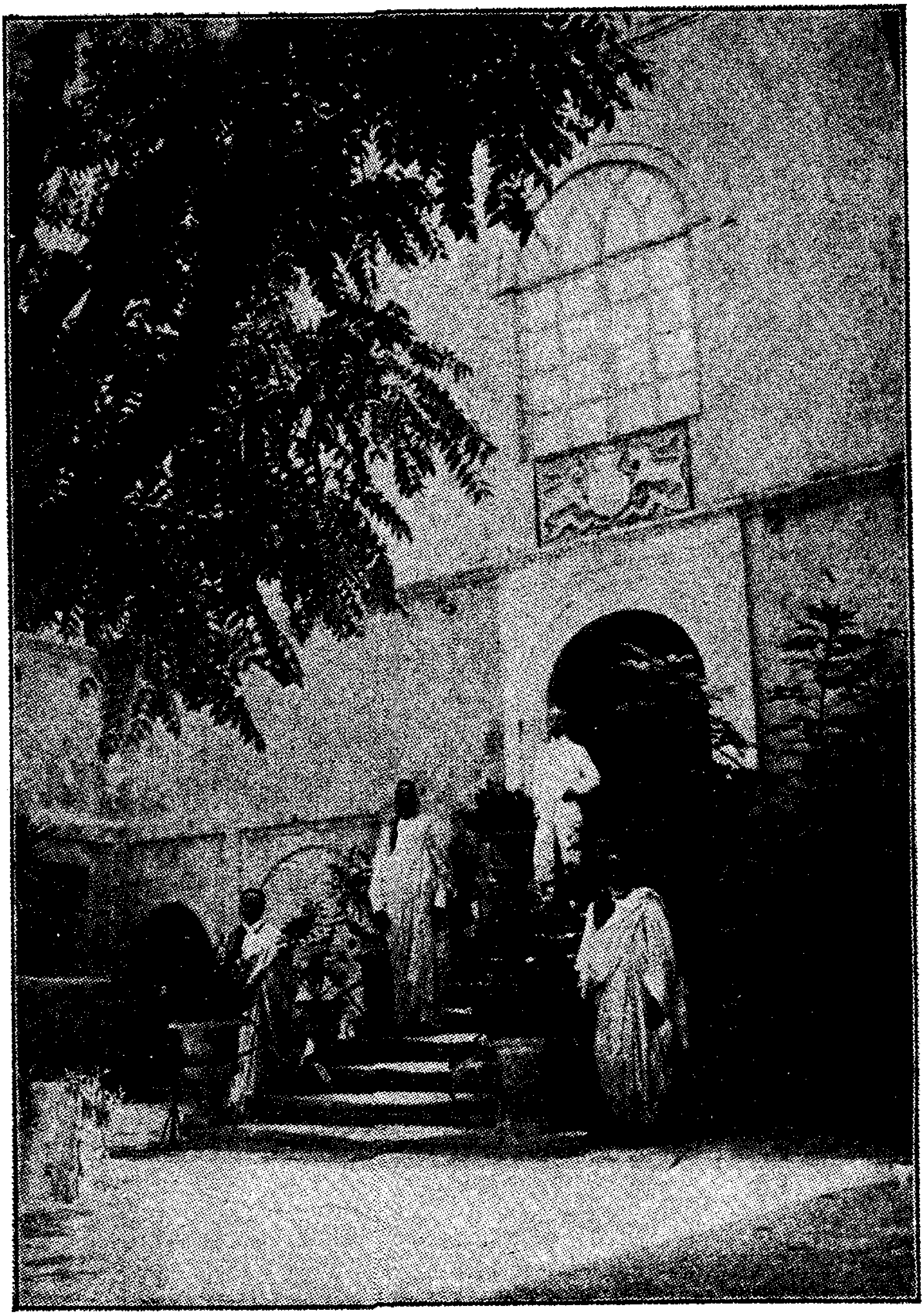

درج من الحجر حفرته قدم مائة وخمسين عاماً .
(مبنى القنصلية البريطانية)

وكلما كان الحزن اكثر ، كلما كان لباس المرء اكثر إهمالاً . والقطعة الجديدة، التي تشترى لضرورة ، تغسل بالماء ، لتنزع عنها جدتها قبل ارتدائها .

وهناك كراسة ، مطبوعة سنة ١٨٠٦ تصف حرب (التربولاين) في الولايات المتحدة – وصفاً نادراً . وهنالك كراسة أخرى ، اقدم كثيراً ، ونادرة جداً ، وجدتها فيما بعد بالمتحف البريطاني .

(آخر الأخبار من بلاد البربر . في رسالة كتبها مؤخراً تاجر هناك إلى شخص ، بعد ان استخدمه صاحب الجلالة هناك بقليل . انها تحتوي على بعض التفاصيل الغريبة ، لإجراءات هؤلاء الملوك الجدد المقدسين ، وقد رويت بصدق تام ، عن هؤلاء الذين كانوا شهود عيان. طبع في لندن لارثر جونسون سنة ١٦١٣) .

وكانت مخطوطة الصحائف اليومية لممثل صاحب الجلالة في طرابلس ما بين ١٧٦٨ و ١٧٧٢ أكثر ابهاجاً من كل الكتب المطبوعة .

انه يبدأ بداية حازمة :

«ان رجل الحرب الذي حملني رسا فيك ايتها الطريق ،في طرابلس ،وانت يا سفينة جلالته ستطلقين مدفع المساء عندما تقفين منتظرة .

مذكرة للسؤال عما يجب ان يعمل من أجل التحية الاضافية . وانتم ايها القناصل عليكم ان تزوروني أولاً . ولا استطيع ان أرد أية زيارة حتى أقدم اوراق اعتمادي اليك ايها الباشا . وعندما أزورك أيها الباشا ، بناء على موعد تحدده ، ذلك الجزء من الهدايا المخصص لي سأحمله معي ، وذلك الجزء الذي تقدمه لموظفيّ سأوزعه في الوقت الذي أراه مناسباً ... سأجدك ايها الباشا جالساً ، وطريقة (التسليم) هي ان أتقدم وأقبل الوجنة اليمنى والوجنة

اليسرى وانحنى له . ثم اجلس على يساره ، لأن هذا هو مكان الشرف في طرابلس .

« اقوم بالزيارة الأولى وحدي .

« يجب أن أهتم بأن احيّى بسبع طلقات ، لأن هذا امتياز لي . وانت ايها القبطان يمكنك إذا اردت ان ترد التحية ... ان الضابط المدني الذي يقدم لك دائماً تقدمة السلطان من المرطبات لتقدم لك كل يوم على ظهر السفينة القهوة وفي غرفة الحراسة ، وليس في كابينك ايها القبطان . وفي كل يوم عندما يغـــادرك الضابط المدني يجب ان يحيى بثلاث طلقـات فقط . ويجب ألا يحيى الأتراك ، مهمن كانوا عندما يزورون السفينة ... في هذا الوقت أو بما أسرع سيقـدم طلب لي لدفع زكونيات [1] ثمناً للتحية التي تطلق بناء على اتفاقية لسفينة جلالته عند وصولها . وهذه التحية واجبة بموجب الاتفاقية ، ويجب ألا يدفع ثمن لها . انهم سوف يطلبون ٤ زكونيات من أجل تحيتي ... التي لا ضرورة لها .

وانت قبطان الباب العالي خاصة والأتراك الآخرون الكثيرون سوف تطلبون دون خجل أي شيء على ظهر السفينة ، أو في بيتي ... ولكن ما من ضرورة هنالك لإعطائهم كلما يطلبون) .

ثم تتبع توجيهات اليه شخصياً ، فيما يتعلق بالأوامر الخاصة بالعلم :

(ان رفع علم جلالته في مناسبات مختلفة يصبح نوعاً من اللغة العامة التي يفهمها المغاربة ، كما يفهمها المسيحيون فهماً تاماً) .

ويتابع ليؤكد حقيقة ان (العلم يجب ان يظل ابياً) وليؤمن له الاحترام ،

---

١ ـ ليرات ذهبية ايطالية .

يعطي قائمة بالمناسبات التي يمكن ان يرفع فيها بشكل مناسب :

« في عيد الميلاد ثلاثة ايام .كل يوم احد في السنة . يوم القديس جورج حسب التقويم القديم والتقويم الجديد. احد الفصح. في الرابع من حزيران يوم عيد ميلاد جلالته . ملاحظة : عند أول زيارة الى كل قنصل ، وعندما يرد الزيارة .ونفس الشيء عندما أقدم أي شخص ذي مكانة اليهم ،أو أقبل زياراتهم أو عندرد الزيارة في أي احتفال عام . تلبية دعوة للغداء أو دعوة للعشاء . ميلاد أي طفل لأي قنصل . يومان من ايام العيد في بيرام ورمضان ، ميلاد أمير أو أميرة للباب العالي . عند أول زيارة يقوم بها لي سفير عيّنه الباشا إلى أي بلاط اوروبي ،بعد أن يعين ،وعندما يغادر وهذه تحدث مرتين ليس أكثر».

وهو يكتب ايضاً عن تدافع القناصل وتزاحمهم عند زيارة الباشا فيما يتعلق: « بمن يدخل اولاً » ، ولكن لما كان لممثل صاحب الجلالة الأولوية دائماً «لم يكن من الضروري بالنسبة له أن يساوي نفسه بهم في التدافع » . وفيما يتعلق بزيارة أمين المال الأول ، « فان هذه تقليعة ، ولهذا فانه يجامل أو لا يجامل حسب سلوكه . وهم كلهم يقدمون القهوة الرديئة، ودون سكر . وعليّ أن أتناولها في كل بيت ، لأن رفض فنجان قهوة يقدمه تركي ، دليل على عداوة » .

وتتتابع الملاحظات السارة كثيراً حول « البترول » والمؤن والأسواق والفصول ، وعن « نبيذ أحمر من شاطىء فرنسا على البحر الأبيض المتوسط» .
ان القوافل وريش النعام والذهب ونبات السنا والسعوط ، ومن مكة الحرير والموسلين ، والاحجار الملونة واللؤلؤ والسجاجيد الفارسية الصغيرة : والعبيد السود الذين يصدرون إلى القسطنطينية : إن كل هذه تلقى تعليقات واعية من هذا الرجل ذي الضمير الحي ؛ الذي كان على ما يبدو يملك ذهناً صافياً في كل شيء إلاّ في الاملاء . وتكشف ملاحظة سطرتها يد معجبة بوضوح فيما بعد ،

أنه ظل نشيطاً حتى النهاية : « لقد مات في سراويله » .

ويمتلىء هواء طرابلس بالالهام في الربيع ، وفي أشد أيام الصيف . وحتى عندما تهب (القبلة) ، جالبة معها ضباباً ذهبياً ناعماً من رمل فلوات الصحارى القريبة الزاحفة ، ويكون الهواء حاراً وجافاً مثل الفرن ، يندر ان كانت اقل امتلاءً بخمر الحياة منها عندما تهب ريح البحر من البحر الأبيض المتوسط، محوّلة لون الماء بحركتها الى الزرقة النيلية ،المنقطة بقبعات بيضاء . وتوجه مياه الأمطار في بعض الفصول من الاسطحة المبيضة باستمرار إلى صهاريج في الأسفل،حيث يمكن ان تخزن لتكون مؤونة العام .

وبعد ان تنحدر الشمس من السماء اللاهبة ، وتنمو الظلال طويلة وباردة ، تصبح (المصاطب) متنزهات المدينة ، حيث تبرز السيدات المحجبات،بيضاوات كالمدينة نفسها ، ليتطلعن باطمئنان ، من فوق العيون الفضولية .

ويقدم السطح الممتد العريض في القنصلية ، لأنه أعلى من أي بناء في المدينة ما عدا مآذنها ، مرابع مبهجة للأمسيات ، بعيدة جداً عن ضجيج أبنية الأودية الضيقة واضطرابها فيما دون . وبعد كل ظهر ، عندما كان ينتهي شرب الشاي في غرفة الاستقبال الجميلة ، وكانت أشعة الشمس تبدأ في أن تصبح معتدلة وأقل حرارة ، كنت أقضي دائماً ساعة أو ساعتين على السطح .

ولما كانت الشمس شديدة الحرارة وباهرة للابصار خلال النهار ، فان الاسطحة تصبح أكثر فأكثر فتنة كلما اقترب المغيب . ويَخْضع البياض الباهر لخفة تبعث السرور ، ويرتقي كل الناس الأمكنة المفضلة المحببة لديهم ، من أجل التنفس ومن أجل منظر مفتوح ، والتماع نجمة .

ويمر في الشوارع الضيقة الحمير والجمال والعرب مراراً وتكراراً ؛ ويمر

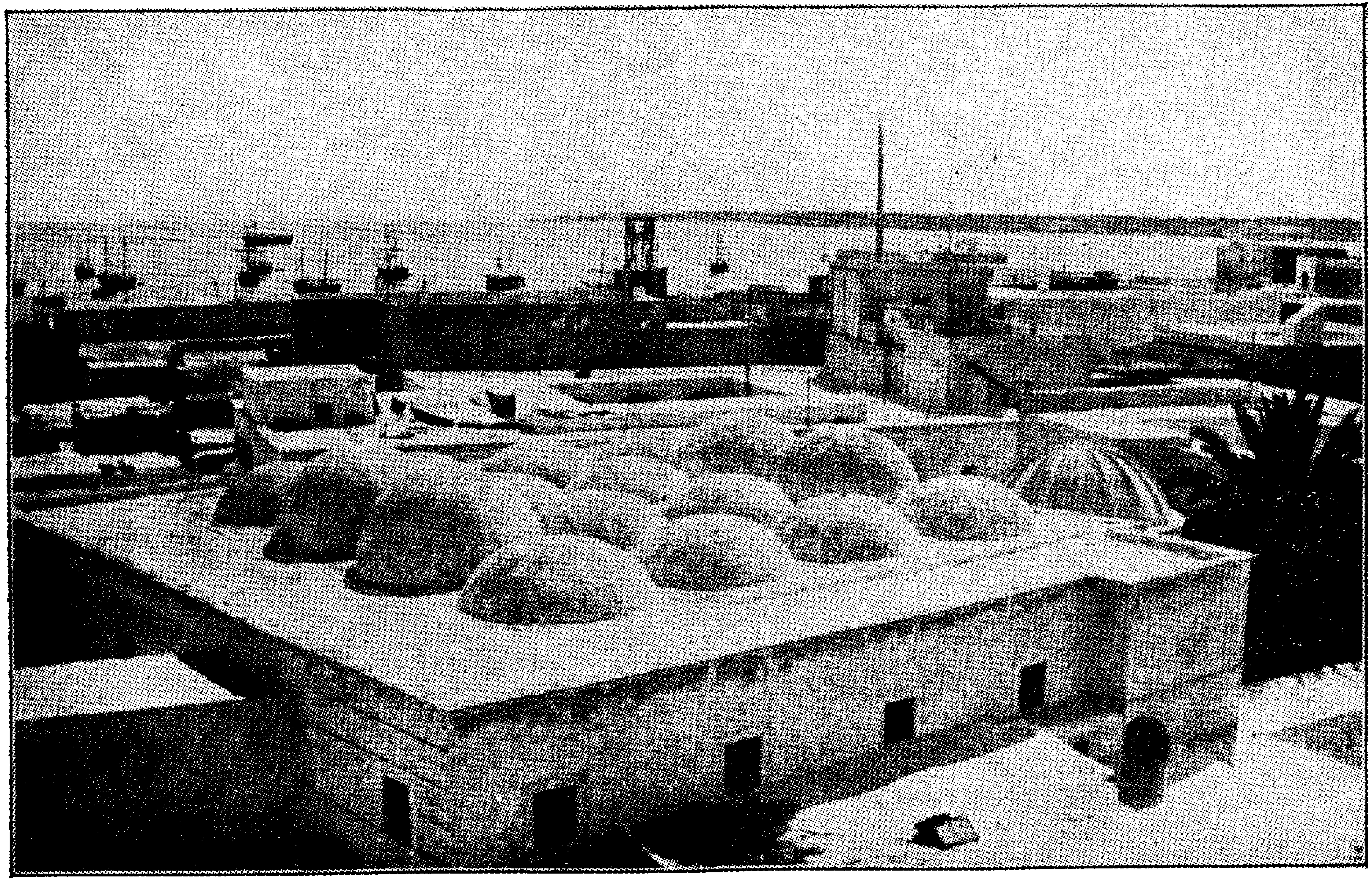

المسجد ذو السبع عشرة قبة يبرز بياضه حتى في مدينة البياض هذه

الخبازون ، بأرغفتهم المستديرة اللامعة ، مكومة أكواماً صفراء حال خروجها من الفرن ، وهي أفضل للزينة منها لحفظ البقاء ، كما يمر الكريتيون والألبان والمالطيون خليطاً مشوشاً ، وتتصاعد أصوات الشارع بنطقها الحاد غير المفهوم الذي يتردد باستمرار .

وازداد الغرب فيما بعد صفرةً وروعة ، نوع من الاشعاع المنتشر ، يـنم عن إمكانيات اكبر محفوظة . ويبرز المسجد ذو السبع عشرة قبة ببياضه ، حتى في مدينة البياض هذه ، ويتثنى البحر الأبيض المتوسط كالياقوت الازرق صافياً على الشاطىء ، وتمتد الصحراء اللامعة امتداداً غامضاً في غبش الفضاء المعتم ، ويريح النخيل الساكن سعفَهُ من الحفيف .

ويظهر عندئذ على المآذن ، تحت القبب الخضراء العليا مباشرة ، التي تتوج كل منها بهلالها الذهبي ، المؤذنون المكتسون بالبياض ، والمرتدون (الحولي) الخيالي ، في أذانهم اليومي الخامس للمؤمنين من أجل الصلاة ، بيض كالبرج العالي الذي يقفون عليه ، ويبدون بصعوبة أكثر إنسانية . وهم ينظرون إلى السماء أولاً ، ثم ينحنون على الحاجز مرسلين اذانهم ، المتفرد بنفاذه ، والمسموع على مدى مسافات طويلة ، ولو أن الاصوات ليس لها رنين حقيقي ، وهي (مضغوطة) بقنوط في نوعها .

وتأتي مرحلة تالية بعد العشاء ، وعندما تغمر الاسطحة والقبب والابراج اضواء المنارة القريبة فجـــأة ، تكاد لا تُعتّم لمعان القمرالتمام ولربما كانت مدينة جن ، جميلة اكثر من التصور . وتبرز شجرة تميل هنا ، وشجرة هناك من بعض الساحات المخفية ، مكتسية اللون الاسود في المنظر الفضي ،وتتصاعد الموسيقى المجلجلة ، دون إيقاع ولا نغم ،جزءاً من جمال غامض خيالي ولكنه رائع . ويتنزه ، في اتجاه الشاطىء ، رهبان يرتدون لباساً بنياً وحزاماً على الكنيسة الكاثوليكية -انهم جانب اجنبي،وليس جانباً متمماً للمساءالشرقي.

الغبار المبجل ، والسنونو المحومة ، آذان صلاة المغرب ، الصحراء المعانقة الصامتة ، ضوء القمر الداني ، وشذى البرودة وازهار الشجر ... هذه كلها طرابلس .

الفصل الحادي عشر

القوس الروماني والآثار القديمة

وكما اثبتت حياة الاهلين في الوقت الحاضر بأنها مغرية – فنون سلفية بسيطة ، مخلفات نفيسة ، قبائل محتشدة – فان الدليل الكلي الحضور على مرحلة عظيمة مرت ، أكثر لفتاً للنظر ، وإثارة للشجون ، وهو يأسر الانسان أسراً مطلقاً .

ان الاقليم كله غني بالخرائب ، والعمران والمقابر والاقواس والاعمدة وأرضيات الغرف ، والتماثيل المحطمة قطعاً ، والقناطر المائية العظيمة ، ولكنها كلها تغطى برمال الصحراء المتحركة دون مقاومة ، أو تبيّض وتلوث وتكسر أو يتلفها عدم الاهتمام والجهل والتعصب. أنّ عظمة ذلك العصر البعيد ، لا تخفيها حتى مثل هذه « الجزرة » الشاملة لكل ما هو جميل . ورغم الخراب الذي يحدثه الزمن ، وإهمال الانسان المحزن ، فان الانقاض ، حتى وهي مشوهة ، تقدم شاهداً نبيلاً على حضارة جعلت العالم أسيرها في يوم من الايام .

ان ألواحاً من الرخام النفيس المحفور جعلت أعتاباً للأبواب ، وهنالك حجاره عليها كتابات نصف مطموسة وضعت في جدران رخيصة حقيرة لاتحصى، وعندتقاطع شارعين ضيقين وكانهما جادتان، شارع الأربع عرَصات وسوق اليهود، تقوم أربعة اعمدة رومانية مقام الزوايا .

ان أنفس آثار هذه الايام القديمة ، مهجور الآن ، وهو قوس النصر ذو

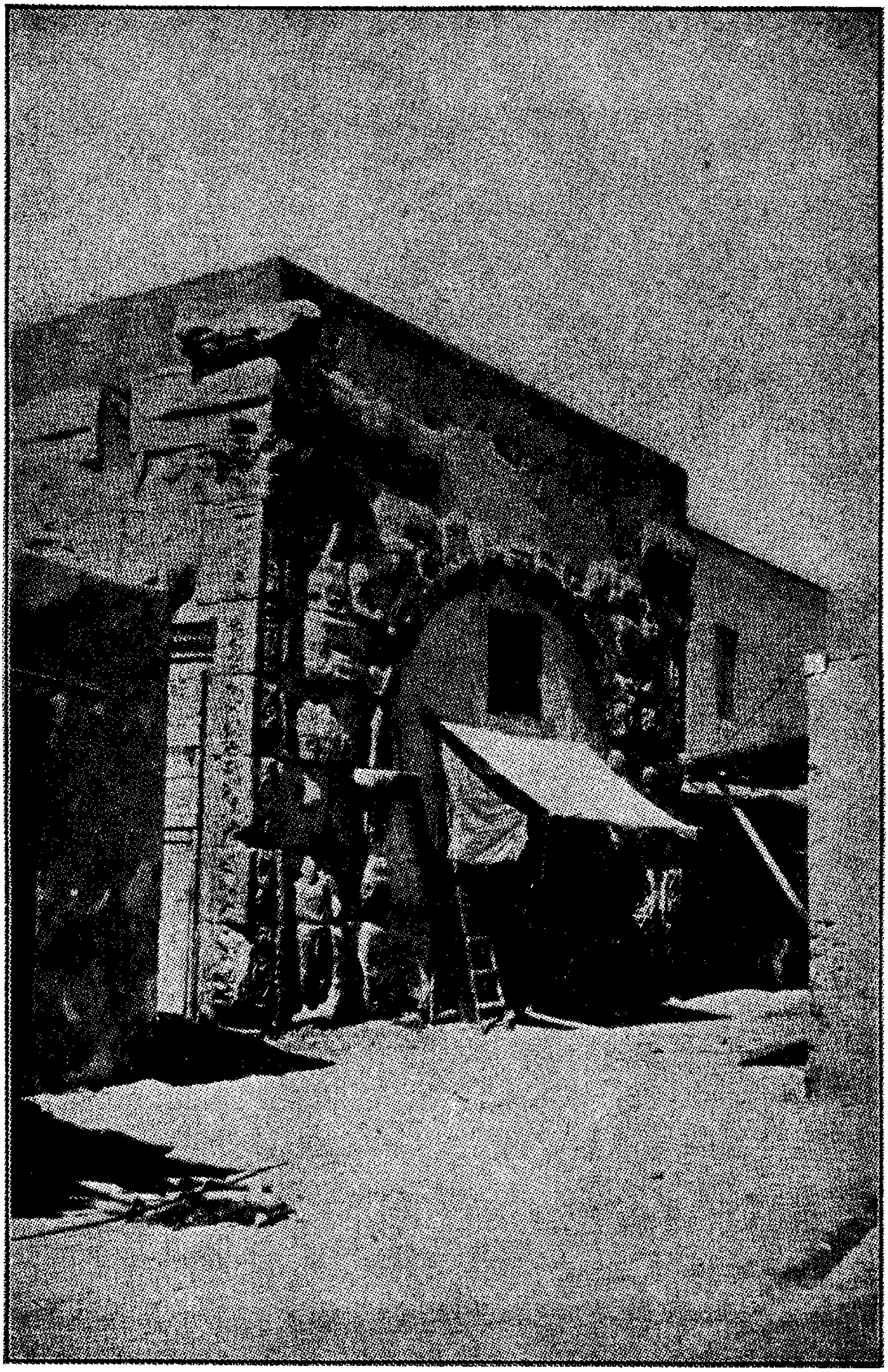

قوس النصر

التوحيد http://mostafamas.maktoobblog.com صوت

الزوايا الاربع ، يقال بأنه ممتد بما لا يقل عن ثلاثين قدماً تحت مستوى الشارع ، ويبلغ اكثر من هذا الارتفاع فوقه ، حيث يقوم حانوت خمر ومستودع فحم بفرح ، فلا تطمسان الا° عظمة مكانهما غير الملائم طمساً جزئياً .

ولقد اقيم على شرف الامبراطور ماركوس اوريليوس (Marcus Aurelius) وبناه مواطن روماني موالٍ ، كان رئيساً للجمارك سنة ١٦٤ بعد المسيح. إن مثل هذه الاجزاء ، من البناء العظيم ، كالتي ما زالت ترى بعد فوق النفايات عامة ، كانت محفورة حفراً بارزاً ، وكان البنيان كله حتى في ضعته يكشف عن إدراك واسع وتماسك متميز في البناء يمكنهما أن يهزءا من القرون ويصمدا برزانة لصدمات الطبيعة والانسان الاقسى منهما كثيراً . « النصر » : رسم انثوي رشيق يقف في عربة يجرها اثنان من فصيلة ابي الهول لهما اجنحة . ورسوم أسلحة ما زال من الممكن تتبعها . ونسر روماني على خوذة وهذه الكتابة اللاتينية :

IMP. CAES. M. AVRELIO. ANTONIN. AVG. P. P. ET.
IMP. CAES. L. AVRELIO. VERO. ARMENIACO. AVG.
SER. CORNELIVS. ORFITVS. PROCOS. CVM. VITTEDIO.
MARCELLO. LEG. SVO. DEDICAVIT.
C. CALPVRNIVS. CELSVS. CVRATOR. MVNERIS. PVB.
MVNERARIVS. II. VIR. QQ. FLAMEN. PERPETVVS.
ARCVM· PECVNIA· SVA· LOCO. PVBLICO· A. FVNDAMENTIS·
EX. MARMORE. SOLIDO. FECIT.[1]

ان كلمات عديدة في السطر الأخير مطموسة تقريباً . إن تعلق الاقارفة بتبيض الجدران التي تحوي نقوشاً ، والقصارة المغربية التي يوجد تحت ملمسها الخشن جمال من كل الانواع ، لم يسلم منها القوس العظيم طبعاً ، وان كل الرمال

---

١ ـ لقد زودني بالنص الكامل والترجمة زميل زوجي الدكتور هوفتون (Houghton).

Imperatori Caesari Marco Aurelio Antonino Augusto patri patriae et Imperatori Caesari Lucio Aurelio Vero Armeniaco Augusto Servius Cornelius Orfitus proconsul cum Vittedio Marcello legato suo dedicavit· Caius Calpurnius Celsus curator muneris publici munerarius duumvir quinquennalis flamen perpetuus arcum pecunia sua loco publiéo a fundamentis ex marmore solido fecit·

كانت تتدافع خلسة كل الوقت ، دافنة الآثار العظيمة أكثر فأكثر كلما مضت السنون . ولكن رؤية هذا البنيان العظيم خاضعاً للمسة الجهل الوندالية [1] الى هذه الدرجة من الكمال يجلب الألم الحقيقي . إن « الأرضيات » السليمة توجد خارج المدينة ، وان الدليل في كل مكان واضح ، حتى لأكثر الناس طروءاً ، ان بقايا كانت قوساً رومانياً في يوم من الأيام ، غطته الحياة الضنينة تغطية طفيفة في مجتمع متعدد اللغات ينقصه كل تقدير للآثار التذكارية العظيمة المنحدرة من ماضٍ عظيم .

ان كتاب السيد هـ . س كوبر (H . S· Cowper) المعنون : « تــل الجمالات » (The Hill of the Graces) يحتوي على الكثير من المعلومات ذات القيمة عن كل الآثار القديمة ، التي زارها ودرسها دراسة معتنٍ ، بمقـدار ما تسمح به حكومة متيقظة . ان الواحات والصحارى والكثبان كلها تحكي ، وربما كان ذلك دون قصد وعن غير ما تعمد ، ولكن بالتأكيد ، على كل حال ،

= وهذه هي ترجمته : ان القنصل سرفيوس كورنيلوس اورفتسوس ، مع قائـده فيتدوس مارسيلوس ، كرسا « هــذا القوس » للقيصر الامبراطوري ماركوس اورليانوس انطونيوس اغسطس ، أبي بلاده ، وللقيصر الامبراطوري اورليانوس فيروس امر ميناكيوس أوغسطوس .

وأشاد كايوس كالبرنيوس سيلسوس، امين بيت المال ، ومانح العطايا ، وديومفر المكرس كاهناً منذ خمس سنوات ، الى مدى الحياة ، قوس النصر هــذا في مكان عام ، من رخام صلب من الأساسات ، على نفقته .

تعني « Munerarius» مقدم العاب عامة . و « Quinquennalis » محتفظاً بالوظيفة خمس سنوات . « Flamen » كاهن عبادة معينة . ويقرأ السطر الرابع مـن النص حرفيـاً : انشأ قوساً على نفقته الخاصة في مكان عام برخام صلب من الأساسات .

Corpus Inscriptionum Latinarum v i i i ,ا و 24 reads VTTEDIO instead of VITTEDIO

١ ـ قبيلة اشتهرت بتخريب الآثار .

قصة القرون القديمة ، نصف المنسية ، والمطمورة ، ولكن التي ما تزال تنتظر الشرح بعد .

ويدرس السيد كوبر كثيراً من « الاصنام »[1] التي تعود الى مـا قبل ايام الرومان ، مكتشفاً آثار عصر حجري من عصور مـا قبل التاريخ ، في سلسلة من الآثار الحجرية العظيمة ، التي يقوم بمقارنتها .

وهو يعتقد بأن عبادة الرمز الثلاثي ، يمكن حتى ان تكون قد شقت طريقها من افريقيا إلى سهل سلسبوري .

الأصنام (Senams) ، كلمة عربية تعني الأوثان ، وهي بُنى تشبه الأبواب من الحجر المنحوت ، وهي صورة مميزة لهذه الخرائب ، ويمكن أن تكون قد نشأت مع سلالة عاشت هنا قبل ان يضم الرومان اقليم طرابلس

ويحتمل ان يكون الطقس مختلفاً في تلك الأيام القصية ، كما تشير بعض الدلالات الضئيلة . وهنالك اعتقاد شعبي في المدينة بأن فتح قناة السويس ، ربما كان السبب الرئيسي . وكان هنالك بالتأكيد اراضٍ مشجرة أوسع ، تحوي على جداول ، سمح السكان اللاحقون الأقل اعتناء بزوالها . وليس هنالك في الوقت الحاضر أي جدول دائم ، يستحق ان يدعى نهراً . وتمتلأ في موسم الأنهار أودية كثيرة ، أو مجاري الانهار بتيار متدافع ، وعندما غمر المطر الشديد المدينة سنة ١٩٠٤ في شباط ، اصبحت الجادات الرملية مجاري للسيول الجارفة التي احدثت الكثير من الخراب .

وإذا كانت كل المعابد المخربة مستعملة كلها في أي وقت ، فإن سكان

---

١ ـ وضعت المؤلفة الكلمة كما هي بالعربية .

ترهونة (Tarhuna) ومسلاّته (M'salata) لا بُدّ من ان يكونوا مساوين لسكان لندن على الاقل ، وحتى لو كان بعضها قد بني في عصور مختلفة ، فإن عددها لا بُدّ من أن يكون كبيراً جداً . وهنالك آثار جميلة في الزاوية الشرقية (Garia-el-Sergia) و الزاوية الغربية (Garia el Garbia) جنوب طرابلس وغربها . وفي نفس الاتجاه ، فيما وراء ذلك ، تقع زلة (Zellah) وجرزه (Tirsa) ، حيث يربّى النعام . وقد ظل الحفر بحثاً عن المواد الاثرية ممنوعاً سنوات طويلة من الحكومة التركية ، كما ذكر سابقاً ، ولكن رغم القيود فإن قدراً حسناً من البحث الصامت سار في طريقه ، واكتشفت من الآثار الرومانية تماثيل جميلة غالبا، وان كانت بلارؤوس،ونقوش رائعة جداً ونصوص وأعمدة في حالة جيدة بعد ان ظلت مدفونة في الرمال مدة طويلة .

وتوجد خرائب لبدة الكبرى (Leptis Magna) قرب خمس(Homs) وهي مركز لتصدير الحلفاء ، وهو نوع من النباتات التي تستعمل كثيراً لصنع الحصائر والورق ، وقد اسسها الصيدونيون بعد قرن من إنشاء روما فقط ، وكانت منافسة لقرطاجنة نفسها مدة من الزمن .

وتقع خرائب لبدة الرئيسية حول فم جدول صغير ، أو ما يجب أن يكون جدولاً (وادي لبدة) . وبسبب الواندالية السريعة ، ليس العربية فقط بل الاوروبية ، لم يبقَ إلاّ قليل من عظمتها الباكرة . ويقال بأن لويس السادس عشر ، حصل على اذن من حكومة طرابلس ، لتصدير ما يختار من لبدة إلى باريس . وتزّين اعمدة كثيرة لا تقدر بثمن كنيسةَ سان جرمان - باريس.

وحسب ما جاء في كتيب عن شمال افريقيا ، كتبه القائد اللفتنانت جورنج (Gorringe) من بحرية الولايات المتحدة،ونشرته الجمعية الجغرافية الامريكية سنة ١٨٨١ ، فإن امير البحر سمث من البحرية البريطانية أزال كثيراً غيرها ، وضعت فيما بعد في الحدائق الملكية في وندسور . وما تبقى ، وهو ما يجب أن يكون آثاراً تذكارية لا تقاس بالماضي العظيم ، فان الفندالية التي ليست عربية كلها قد شوهتها وحطمتها . وهنالك الكثير الذي يمكن أن يشاهد على كل حال ، ليبرهن على عزة هذه المدينة العريقة ومجدها .

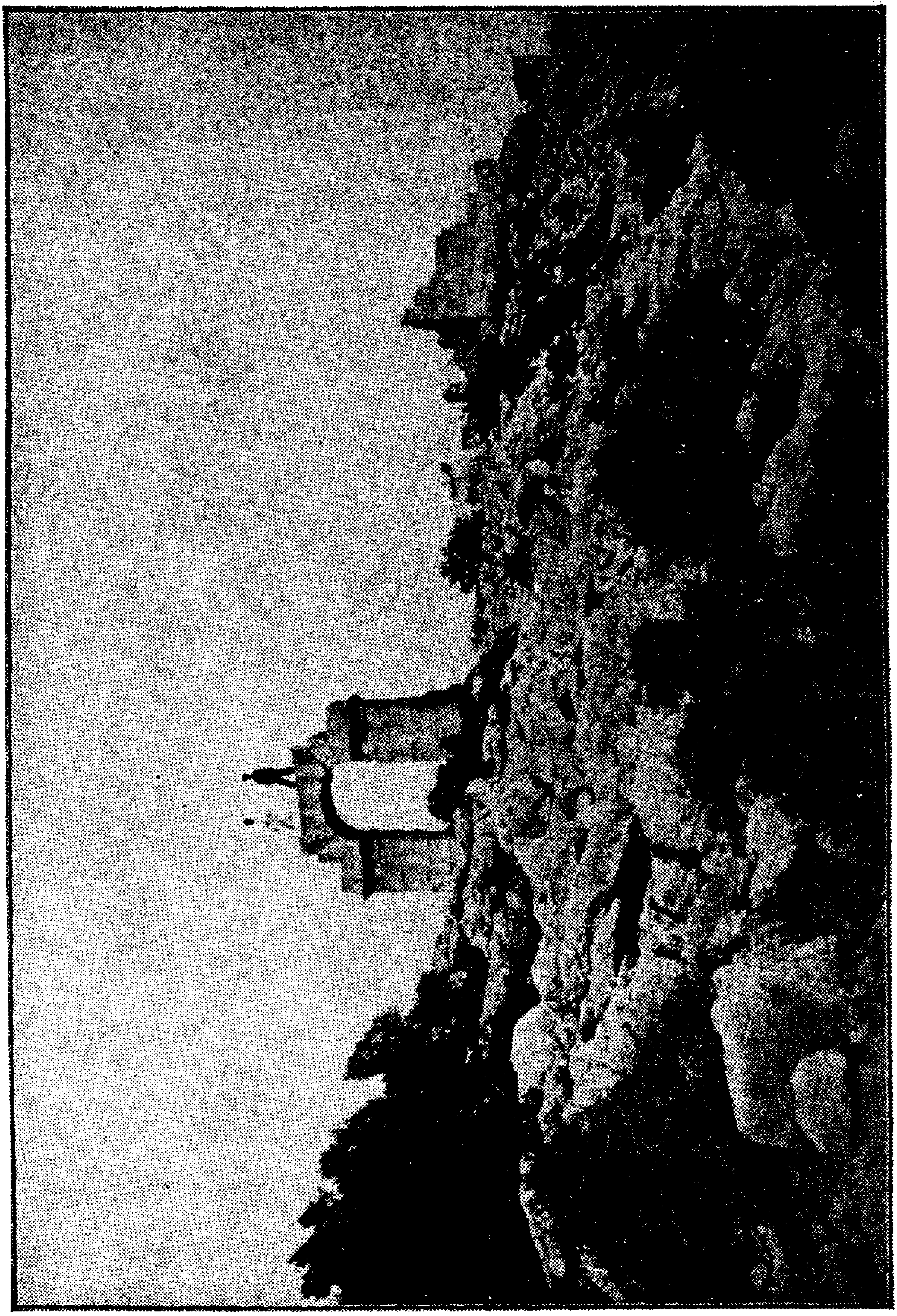

خرائب لبدة العظمى

الفصل الثاني عشر

إلى الكهوف

توجد ، على بعد ساعة أو ساعتين من طرابلس ، بالقرب من قرقارش كهوف عجيبة ، لا بدّ أن تكون في يوم من الايام قد آوت جيشاً من سكان الكهوف . وكانت الجمال بالتأكيد أحسن وسائل النقل ، ولكنا استخدمنا مرة حميراً ممتازة في الرحلة ، وجربنا في مرة أخرى عربـــة تعرق العظام ، حجزت ستائرها المضحكة كل النسمات حجزاً تاماً ، وحفظت الحرارة إلى درجة مخيفة .

وغصنا في الرمل على (طريق تونس) ، خارج المدينة، عبر الجادات الضيقة بين الجدران الطينية العالية ، التي تتماوج فوقها وتزهر ، أو تقدم اثمارها وظلالها أشجارُ الرمان والتين البربري والزيتون الأشهب والنخيل الكث . وتهب الرياح هنا وهناك على صخرة عارية جاثمة . « عظام العالم المبيضة » هذه المعترضة بلا ذكاء في الحدائق والاخاديد . وتلون اشجار النخيل المنظر الباهر . فبدون هذه الشجرة الهامة جداً ، تكون الحياة في الصحراء والواحات مستحيلة تقريباً . ان حطب الوقود ومواد البناء من جذوعها ، والسلال والحبال من فروعها ، ويقدم ثمرها ايضاً مادة الغذاء الرئيسية ، وهي تقدم الظلال كما تقدم المراوح ، ومنهـــا يصنع (اللاقبي) هذا الشراب المسكر .

لم يكن هنالك طريق حقيقية ، ولكن السابلة تقع على طول الشاطـــىء ، مروراً بالعديد من القبب الجميلة لأضرحة الاولياء . ان هذه القبب الاصغر التي

التوحيد http://mostafamas.maktoobblog.com صوت

تضم عظام رجال اتقياء كثيرة فيما يحيط بالمدينة . وتكسى كل منهـا مراراً بالأعلام الزاهية التي تحضرها النساء المسلمات عندما تتحقق سعادة منشودة ، أو عندما يبل شخص قريب وعزيز من مرضه .

وتظهر الآبار القديمة ،الوصية على البساتين التي كثيراً ما تكون مسورة بين البحر والصحراء ، باعثة كل منها صريفها الغريب كلما أُلقي الجراب إلى اسفل فارغاً أو سحب مليئاً ، ويسير الثور والرجل بجد معاً ، صعوداً على التلة أو هبوطـاً منها . ويُحرس كل بستان بعناية ، ويُعتنى به . ولدى العرب مثل يقول ،ما من نخلة تعطي ثمراً إذا لم تسمع يومياً صوت صاحبها .

وتقع إحدى القلاع التركية في هذا الاتجاه،حيث الجنود الكسالى بأحزمتهم الحمراء اللامعة ، وثيابهم التي تستحق التصوير يتكئون على متاريسهم الطينيـة ويتلصلصون من أسيجة الصبّار . مساكين .. ! ان حياتهم قمة في الرتابـة . وبالنسبة لهؤلاء المنطقين المطربشين ، ان مرور نصف دزينة من الغرباء كان ذا أهمية في يوم خالٍ من أي حدث .

في هذا المكان بالذات جرى اشتباك سنة ١٩١١ مع الايطاليين ، اقتص من الرتابة اقتصاصاً ناجحاً .

ويبرز أثر غريب ، من المحتمل ان يكون من آثار ما قبل الاسلام ، مـن الرمال الى اشعة الشمس المعاصرة في وحدة فريدة ، قبل وصول قرقارش . ان قصته غير معروفة ، وان جدرانه المتداعية ملأى بأصداء الماضي البديع ، لمـن كان يستطيع تفسيراً . ما هي الاستعمالات الغامضة التي كانت لهـذا المعقل ، الذي تنقصه الابواب والنوافذ والادراج و كل منافذ الدخول .

ولقد ذكر هذا المكان ليو أفريكانوس (Leo Africanus) وتقول العرب بان الأمير كيراكش قد بناه وهو ما يمكن ان يدل على اشتقاق الاسم .

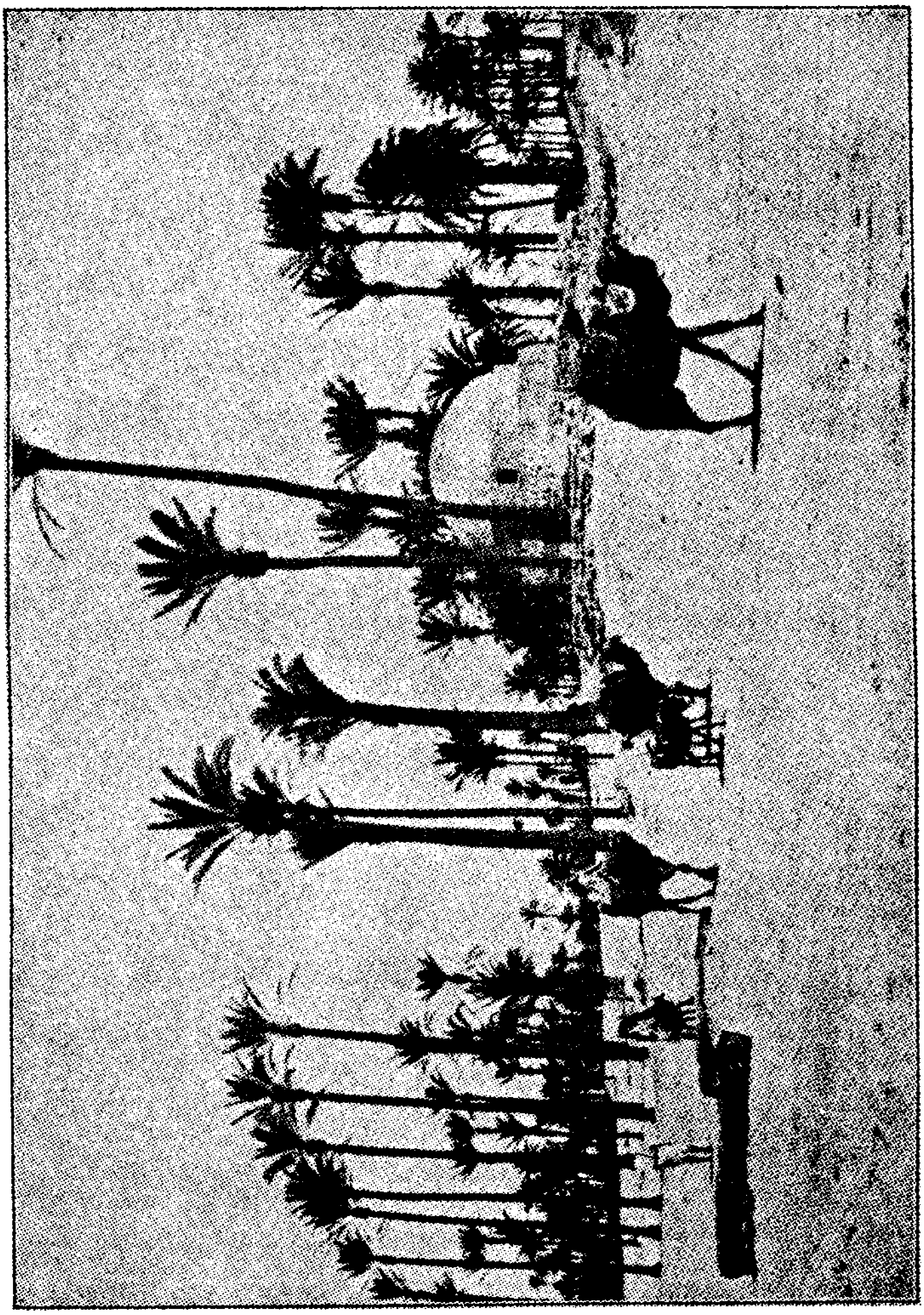

طريق تونس

الزاهد والنخيل

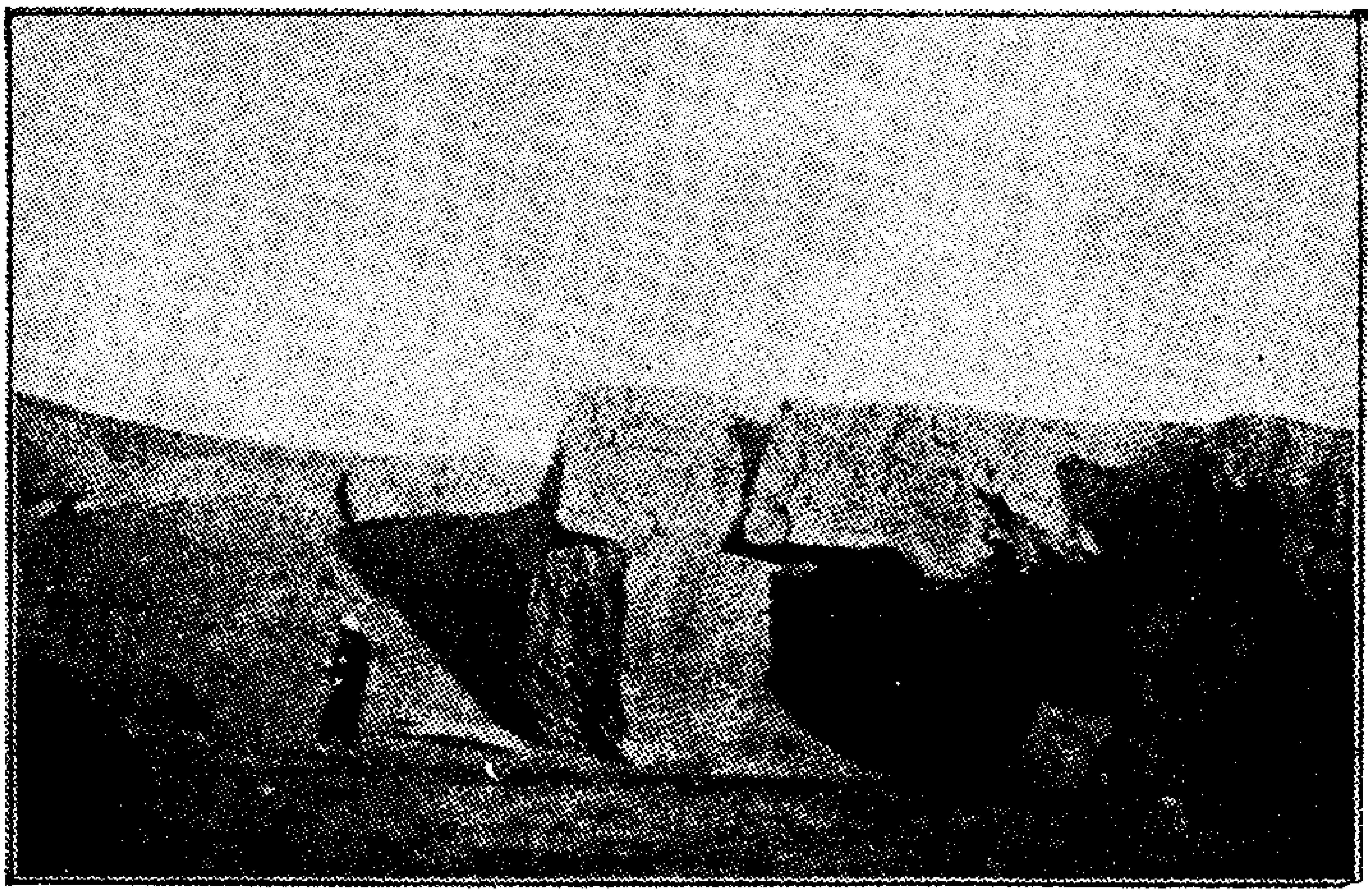

إحدى مغارات قرقارش

وجرّ أحد سواقنا نفسه بأصابع يديه ورجليه إلى القمة ، ناظراً من ذلك الارتفاع بابتسام ، ولكن دون أن يزيد الكثير لحل اللغز حلاً ذكياً .

وتحت الطريق ، وعلى مقربة منها كانت هنالك حجرة معقودة لأغراض غير معروفة ، ومن الممكن أن تكون قداستخدمت خاناً في الأيام الغابرة . وتطايرت عند دخولنا البوم المستاءة الغاضبة ، مطلقة نعيقاً ورفيف اجنحة كانت من قبل مطمئنة . ويقع وراءها وما وراءها أبدٌ من الرمل صامت مستسلم ، ولكنه متحرك غير مستقر ، يغمر الخرائب الموات ، والبساتين النضرة بالقدر ذاته من الخراب .

وقد احصيت في هذه الأراضي المقفرة ستة وعشرين نوعاً من الأزهار البرية ، مع أن النظرة العابرة كان يمكن ان تحكم على هذه المنطقة بالخلو من النباتات إطلاقاً . وكانت كلها تقريباً صغيرة وقليلة الارتفاع ، مع أن كتلاً كبيرة من زهرة ارجوانية تغطيها أوراق كثيفة كانت احياناً تنشر اريجها الذي يشبه اريج النعناع البري أو النعناع . وكانت بعض ازهارها بيضاء كلياً . ان أصغر نباتات «مجد الصباح» تطلع في كتلة كثيفة ،وكانت هنالك زهرات صفراء مثل رأس القنفذ الصغير ذات اوراق شائكة : وظهرت هندباء برية متناهية الصغر ، وزهرة فاتنة زرقاء زاهية، ذات خمس اوراق من بعض الاصناف الجديدة كلية. وكانت هنالك زهرة اصغر من نفس اللون اللازوردي البديع ، ذات تويج كتويج « لا تنسني ابداً » تنمو في عناقيد فقط ، فتطلع عدة زهرات على عرق واحد ، قصباتها قرمزية تتحول إلى ارجوانة غامقة عندما تذوي . كل هذه تصنع حديقة برية حقيقية في البرية المتوحشة ، تُغفل بسهولة إذا لم يبحث المرء عنها بعناية .

وغصنا فجأة فيما يبدو سبخة مستوية ، حيث التجاويف غير المتوقعة ، كالأنفاق العميقة التي انحدرنا فيها ، لنجد أنفسنا أمام مغارات ضمخة ، عددها كلها أكثر من خمسين ، وهواؤها بارد جاف ، انه عالم مختلف عن عالم الشمس

اللاهبة فيما فوق . وكان الصخر مثل الرمل المتحجر في تركيبه ، ولكنه كان مع هذا يزيد صلابة .وهي فيما تبدو مشبعة بالماء ، وفي أمكنة قبيحة الشكل . ان بعض الكهوف ذات أصل طبيعي ، وبعضها يحتمل ان تكون مقالع قديمة . وتقود الاقواس المنخفضة غير الجميلة التي صنعتها يد الانسان منذ قرون خلت أبعد في اتجاه منحدر إلى الداخل . وقد ترك أناس أحدث علامات أخرى ، وأزالوا كتلاً ضخمة من الصخر. واحتجت السنونو والخفافيش احتجاجاً مجنوناً على اقتحامنا ، وبينما كنا ندرس الاعمدة الغريبة والأقواس والسقوف والنصوص أخرج عربنا غذاءهم الشهي ، وبالنتيجة غسلوا صحونهم بالقليل من الرمل . لقد تعلموا ألا يضيعوا الماء الثمين .

وكان القنصل الفرنسي مضيفنا في إحدى هذه الرحلات ، وقد صحبنا الفلكي الفرنسي ليبرت .

كانت الكهوف قريبة جداً من البحر وكانت آثار المغيب ظاهرة على الصخور التي أبلاها الماء ، وكان هنالك الموج الذي يلطم الشاطىء بلطف ، ومسافات بعيدة من الرمل نحو المدينة البيضاء في المدى الوردي .

* * *

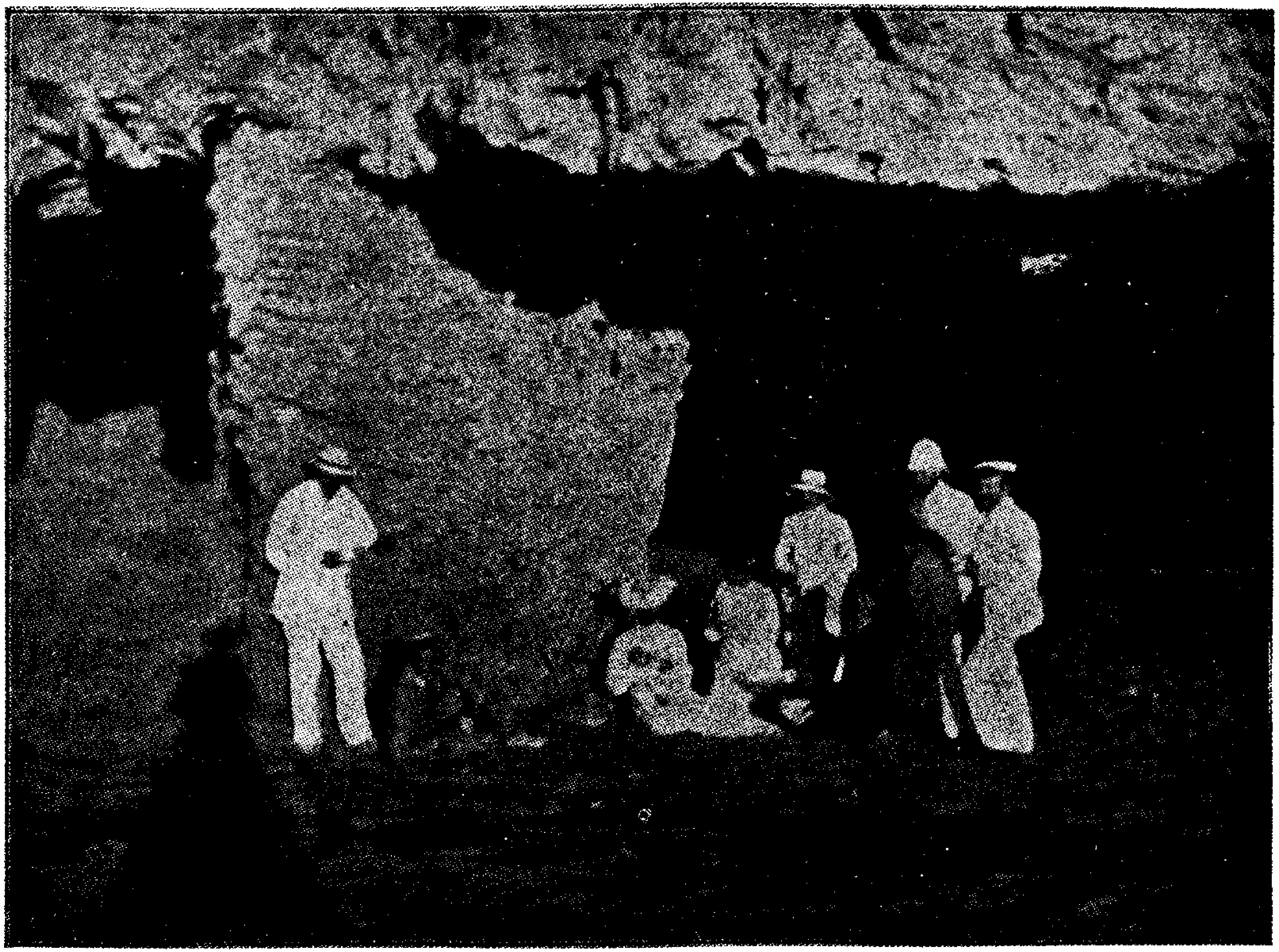

بعض الكهوف من صنع الطبيعة .. وبعضها ... مقالع قديمة

الفصل الثالث عشر

الآبار والبساتين

تتناثر الآبار البدائية لري البساتين ، ويسير ثور صبور كل النهار صاعداً وهابطاً تلة صغيرة ، ملقياً سعناً فارغاً في الاعماق الباردة ، ليعود به إلى السطح فائضاً بالماء . ويكون السعن أو الوعاء الجلدي في شكل "قمع" مغلق عند نهايته الضيقة ، يرخى بواسطة حبال تدار على بكرات خشبية خشنة ، تستند إلى اعمدة مبنية ارتفاعها تسعة أو عشرة اقدام . ان الثور ، هذه القوة المحركة كل النهار ليست اكثر صبراً من العربي المخلص المصاحب له . وهنالك اكثر من ثمانية آلاف بئر في طرابلس وما جاورها تقريباً ، ولكن بسبب كره العرب للتقديرات الدقيقة ، فان العدد الفعلي يمكن ان يكون أكبر .

ولكل بستان بئره ونظام ريه البسيط ، وأسواره الطينية العالية ضد الرمال العادية أبداً . ويزهر على الحاجز الأشهب الذي يشبه السوار ، الرمان والدفلى والنخيل ، وتطل النباتات المتسلقة على العابر دونها ، منبئة عن الأفراح الوافرة في الداخل ، ولكن الاساليب العتيقة لم تستبدل أبداً ، والطموح ليس موجوداً . ويهمل حتى تزييت عدة البئر البسيطة ، فلكل قطعة صريفها المميز — واحدة تجأر عالياً ، وغيرها تصدر عنه اصوات مختلفة ، احياناً اثنتين أو ثلاثاً بالتتابع ، جاعلة الانغام كل ما يخصها. وقد يتعلم الرجل الأعمى معرفة الأمكنة التي يريدها بواسطة هذه النغمات وتنوعاتها .

وقد كتب بعض المؤلفين اللاتين عن خصوبة التربة العجيبة ، ويُحتاج الآن الى قليل من الماء وقليل من العمل نسبياً لجني حصاد وافر . وكان الاعتماد الرئيسي بالطبع على الثمر ، ولكن الزيتون والرمان والبرتقال والموز والمشمش تنمو نمواً غزيراً ، وقد قدم لنا مراراً بطيخ محلي ممتاز .

وكان هنالك منظر صغير حزين في الضواحي ، هو بستان صغير ، يجب أن يكون مالكه قد مات ، لأن السور قد تساقط في أمكنة عدة ، ولم يكن قد أصلح . كانت البئر صامتة ، وخزان المياه فارغاً . وكانت الرمال المتراكمة تزحف وتزحف عبر كل ثغرة ، وقد استعادت الصحراء تقريباً ملكها . وبعد ، فان قلة من الازهار والاثمار كانت ما تزال تقاوم ، مغلوبة على امرها بوضوح ، وواثقة من أنها مقهورة حتماً ، ولكنها تعطي قوة دافعة بحنان للزهرات الآملة والاوراق الجديدة ضد خصمها الصامت الذي لا يقاوم .

وكانت بساتين العرب الاغنياء ، يهود ومسلمين ، نقاط جمال حقيقي ، غزير وعظيم . وتكوّن دائماً بركة مركزية تحوي سمكاً ذهبياً وتنطلق منها نافورة ، وتحيط بها نباتات مائية مزهرة ، خزاناً تتفرع منه أقنية الري الصغيرة على كل ارض البستان ، حيث يزهر الزهر بسخاء ، والبرتقال المذهب يثقل الأشجار . ويستطيع المرء ان يتخيل نفسه في منطقة شبه استوائية ذات غنى يبلغ الحد الاقصى ، حيث لا تستطيع ان تقتحم ذكرى الرمل المتحرك الذي لا يتعب أبداً . ولكن السور الطيني العالي عليه أن يمثل فقط أصغر حاجز أمام الهلاك الغازي .

وتكوّن حدائق طرابلس مساحة صغيرة ، بحد ذاتها ، مبتدئة بالاشارة الى الحديقة التركية الكبيرة ، حيث تعزف الفرقة الموسيقية موسيقى مدهشة كل مساء ، بينما نتناول نحن الشاي بعد الظهر ، أو القهوة – في مضرب رائع أو في ظل أشجار النخيل .

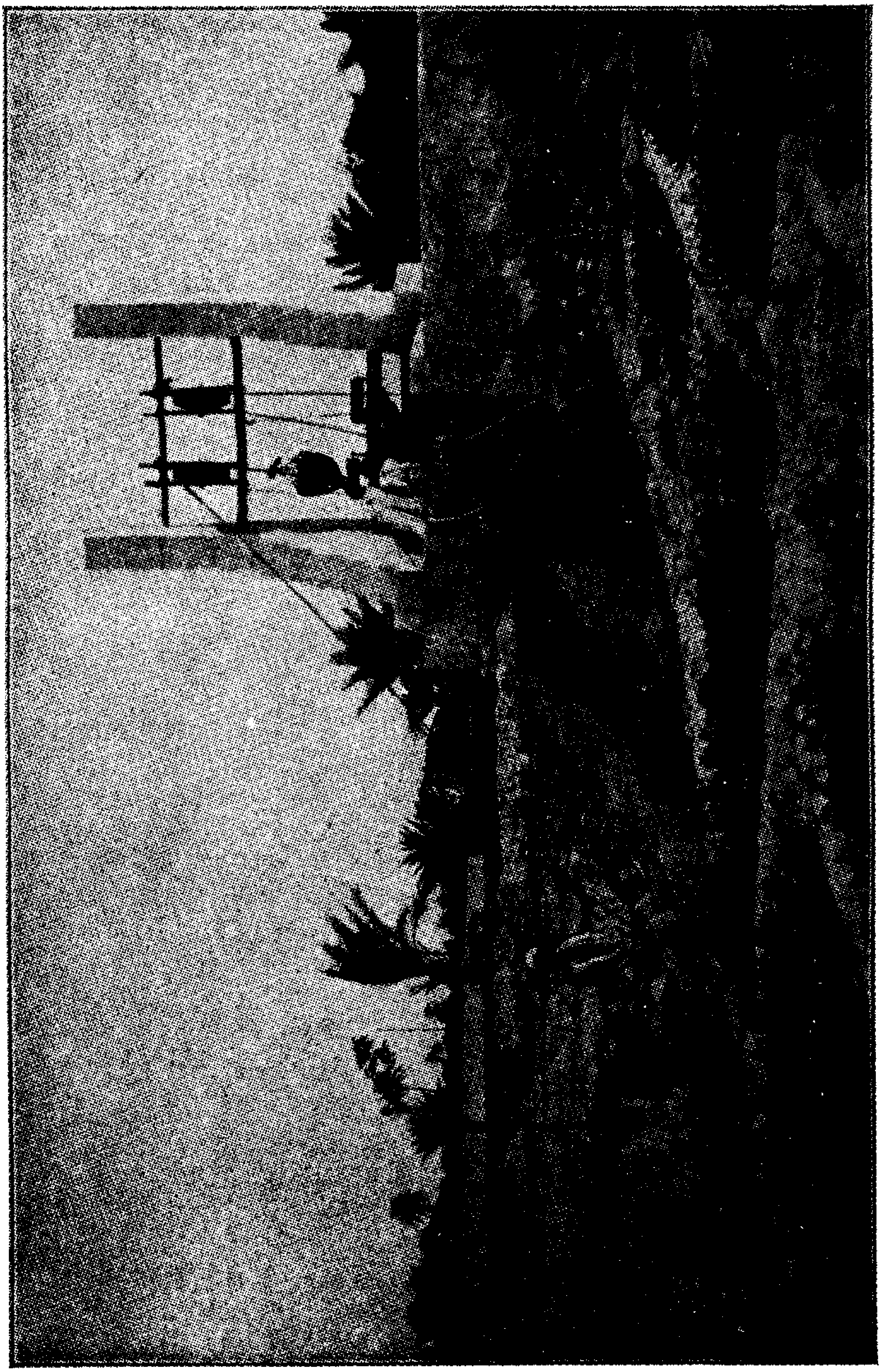

لكل حديقة بئرها .

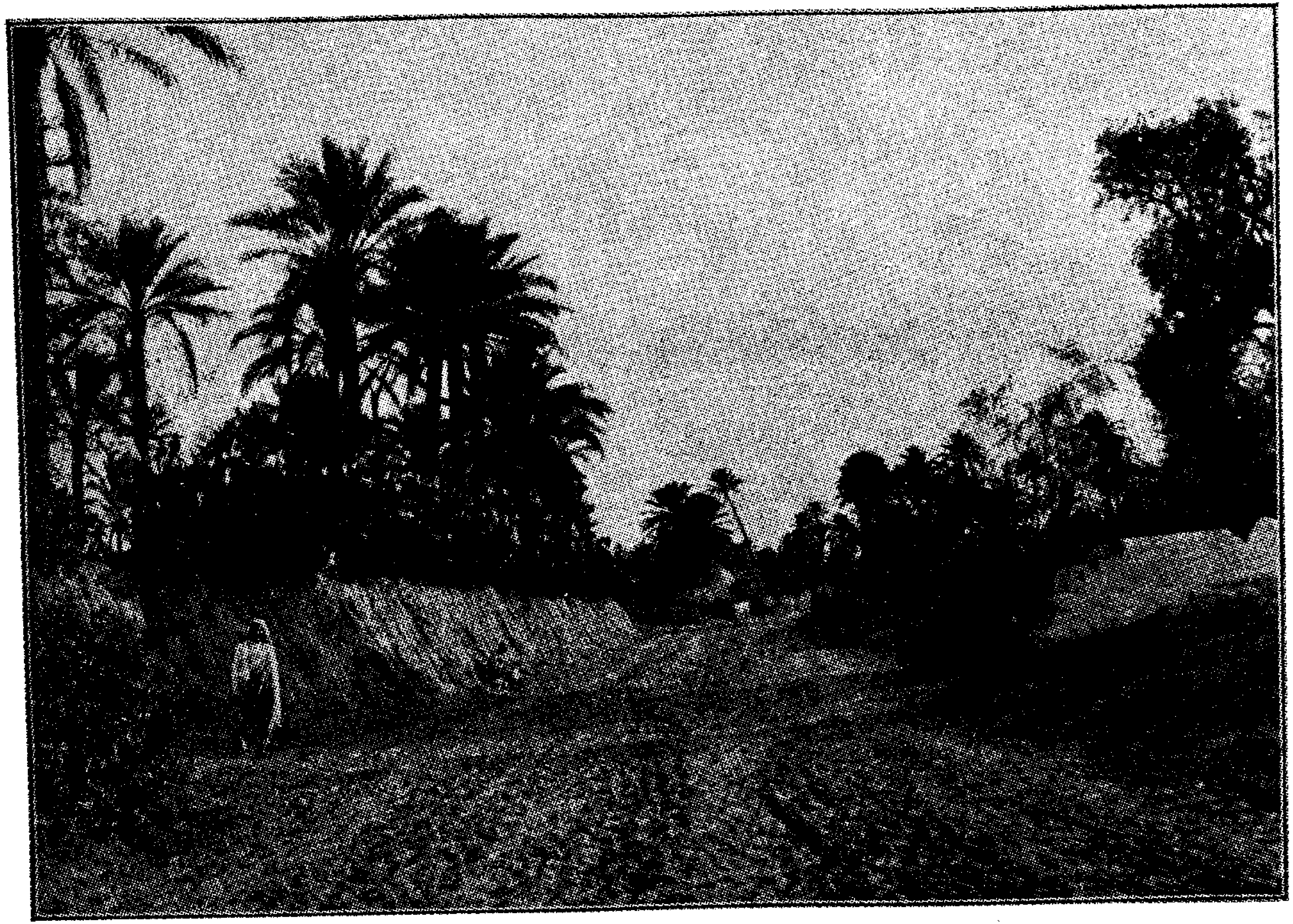

الجادات والطرق التي تفضي الى خارج المدينة .

وفي إحدى ساعات بعد الظهر المتأخرة ، تحركنا بدعوة إلى منزل ريفي يملكه أحد الأثرياء العرب ، الذي كان بستانه شهيراً. وبعد ان مررنا بالانفاق السوداءالغامضة التي نتذكرها جيداً ،والتي تنحدر الى ابعاد مجهولة ،ويفترض ان تكون صوامع غلال قديمة أو أمكنة لدرس الحبوب والطعام للحيوانات.وصلنا الدارة الفسيحة التي قصدناها . ان الاسوار العالية تعزلها تماماً عن العالم الخارجي وكانت نباتات الزينيا والدهلى وعصاة الراعي ، مغطاة بالزهر ، بالاضافة الى الاشجار المألوفة كالبرتقال والتين والزيتون والليمون والرمال والنخيل .
وكان ضيفنا مهتماً كثيراً بما يمكن ان تنتجه البساتين الامريكية، وطلب وصفاً دقيقاً لمثل هذه الأزهار لأنه لا يعرفها .

وكانت الجادات والطرق التي تقود الى البساتين خارج المدينة جذابة بلا حدود ، ومتجددة البهجة كلما خرجنا أو عدنا على هذه الطرق الرملية .وتكلل الاسوار أشجار الصبار الكثيرة القديمة والتي غالباً ما تكون اشجاراً وهي كثيراً ما تفتت هذه الاسوار التي تتماوج فوقها اشجار الزيتون. وكانت الخيول العظيمة المزينة ببذخ بالفضة والجلد ،وذات الذيول الغزيرة المنسابة التي تقل جماعات من العرب أو الترك ، معرّضة لأن تصادف في الجادات الضيقة ، مثلها مثل قطعان الجمال والحمير أو الماعز .

وقد مررنا بالمساجد القديمة المبنية من اللبن . و « بالأولياء » والقرى ، عندما سرنا قدماً في العراء في ساعة متأخرة من عصر احد الايام ، ثم ارتقينا أعلى تلة في طرابلس تعطى منظراً واسعاً يغطي اميالاً من اشجار النخيل الممتدة بعيداً الى الصحراء . وكان رجلان يذريان القمح ، بقذفه إلى أعلى من مذراة ، لتعصف الريح بعيداً بالتبن، وهو أسلوب استعمله المزارعون في انجلند الجديدة منذ أقل من قرن . وصعدنا منحدر التل العادي راكبين ، حيث كانت الريح تهب بخفيف متفرد ، عبر سفح التل الاحمر المحروق . وعرجنا ، في جادات اكثر ضيقاً ، عبر منطقة بهيجة، لأنها مروية جزئياً ،تغطيها اشجار الزيتون والبرسيم الاصفر الزاهي على قرية يهودية هي عمروص.

وكان اغلب الرجال حدادين ، وقـــد جلبوا من الشاطىء كل انواع المراسي القديمة الضخمة ، ليصنعوا منها معدات . وكانت هنالك قرية اخرى مبنية بقربها ذات بيوت متقاربة جداً من اللبن في اشد الشوارع ضيقاً – مع أن لديها كل الخلاء للتوسع فيه – وكان الكنيس ، وهو اجمـــل المباني مفتوحاً لصلوات المساء .

وكان « الفرن » مكان اللقـاء المركزي للرجال والنساء والاطفـــال وللجميـع ، وهنا في ضوء النار المتشنجة ، حيث احتشد الجميـع لمشاهدة عمليـة الخبازة ، كان يجري الكثير من القيل والقال .

وكان حجر يكشف عن كتابة نصف مطموسة ، يستعمل مقعداً ، وكانت هنالك قاعدتان مستديرتان واسعتان من الحجر ، تحملان مردسين حجريـــين لسحق الزيتون الذي يجمع من البساتين المجاورة . ان الزيت يصنع بأكثر الطرق البدائية الممكنة .

ان نزهات العودة في المغيب ، من الارض العراء ، كانت واحدة من أحلى امكانياتنا . وكانت اشجار النخيل والمساجد والمآذن ممتدة في مواجهـة الغرب الاصفر الرائع ، في صورة فتانة ، وكان العرب الملزمين بالعودة إلى بيوتهم ، والمقمطين بالأبيض ، يركبون الحمير الصغيرة ، أو يمتطون الجمـال ، بينما يدرج الصبيان الصباح بجانبهم على الرمل . وتظل الهالة الذهبية تنمو أبداً ، حتى تشحب فجأة ، لتبرز النجوم من خلال القبة السماوية الافريقية العجيبـة الشفافـة ، مع أن نوراً غامضاً مـا يزال يأتي من مكان مـا في مسجد أو برج يبدو شبحاً ، مع أن كل ما عـــدا ذلك سقط في الظلام الهادىء . وعندما ازداد الظلام ، اشعت الأضواء الخافتة إشعاعاً خفيفاً من خلال «طاقات» القبور المصطفة على جانب الطريق ، وتوقف الصوت المتكرر الشجي الصادر عن الآبار ، ووجدنا أنفسنا ثانية مستوعبين في شوارع المدينة الضيقة .

العودة في المغيب

الفصل الرابع عشر

بيوت الحريم وباحاتها

لكل بيت ، حتى أبسط البيوت ، باحته [1] المكشوفة ، وهي نوع من الفناء الذي تنفتح حوله غرف العائلة ، وان الاحتفاظ هكذا بمنظر طليق وغفل إزاء الشارع من مميزات المساكن الشرقية . ويستطيع المرء من المركز الممتاز في سطح القنصلية أن يصب نظره رأساً إلى كثير من الباحات الصغيرة ، حيث الاطفال والأمهات ، الكلاب والقطط ، تنام وتأكل ، وتتجول وتتمرغ وتعيش برنامجها اليومي . وكان مثل هذا الموضع من البيت يغطى غالباً هنا وهناك بعريشة زهرة الآلام [2] المكسوة بالنوار . وتتصاعد منه جلجلة موسيقية غريبة ، وتملؤه حياة سعيدة ، ولكنها محدودة بنوع من السعادة كل النهار — وتهجر عند المساء ، بالانتقال الى الفضاء الصافي فيما فوق .

وكان كثير من باحات الحريم مرصوفاً رصفاً جيداً ، وكان غطاء الجدران من بلاط جميل ، وكان هنالك دائماً ينبوع في الوسط ، أو شجرة جميلة ، ونباتات مزهرة . وعندما لبيتُ دعوةً إلى واحد من احسن بيوت الحريم ، وجدت أكبر زوج مريضة ، ولكنها استدعتنا إلى غرفتها . وقد استقبلتنا في نوع أنيق من قمصان النوم ، لابسة اقراطاً وخواتم فخمة ، وقد ربطت

---

١ ـ تسمى الباحة في ليبيا وسط الحوش .

٢ ـ تدعى « الساعة » في بعض الأقطار العربية .

شعرها بربطة من الحرير الازرق ، واضطجعت على فرشات قش ارتفعت مقدار خطوة عن الارض . كان لها وجه عذب ،وقد تحدثت بذكاء عن مواضيع بسيطة مختلفة . وقد قدمت القهوة في الحال .

ولا يستطيع الهواء المتحرك أن يقتحم هذه الغرف الداخلية المظلمة ، ذات النافذة الواحدة المسدودة التي تفتح على الباحة . وفي مثل هذا البيت خـاصة ، تُعطى الحُجَر الواسعة التي فوق ، المتصلة برواق القاعة الكبيرة لـلابن الاكبر وزوجه الجديدة . وكان الذوق في التأثيث كريهاً ، وكان اسوأ إذا ما نظر إلى كمية النقود المدفوعة . ويبدو ان ادوات الزينة والتبرج الرخيصة اخذت تحتل مكان الاشكال والالوان الشرقية الافضل والاسبق .

وذهبت في يوم آخر إلى بيت من مستوى اجـتماعي مختلف ، حيث طلبت امرأة فقيرة محدودبة مقابلة الاجنبية وكانت تخيط بماكنة صغيرة منخفضة على الارض ، تدار باليد ، مثل تلك التي يستعملها أهل الملايو ، وترتفع ركبتاها عن رأسها – ولكن هذا كما يظهر كان وضعاً مفضلاً لكلا الجنسين . وجلست قريباً امرأة شابة ترعى طفلها : انها حلمة مهملة تنوح نواحاً ضعيفاً . وقد جلس ابنها خارجاً في الساحة مسترخياً ، ذا عينين مريضتين كالمعتاد ، والتهاب على جلده . واضطجعت امرأة مسنة منبسطة على الارض تغط في نوم عميق ، وهي جارة جاءت منذ وقت قصير ، لتلجأ الى هذه الوسيلة المذهلة في تشجيع خفه الروح الاجتماعية . كانت تتحلى بكمية كبيرة من الجواهر ، وكانت موشومة وشماً فنياً ، وعندمـــا استيقظت كشفت عن اسنان قوية قصيرة بيضاء في بسمة ودود .

ويبدو ان اهل البلاد يعتنون قليلاً بأسنانهم ، ومع هذا فقد احتفظوا بها قوية حتى في الشيخوخة . ولا أتذكر أني رأيت عربياً بلا اسنان .

وبدت المرأة الفقيرة النحيلة القبيحة مسرورة برؤيتنا سروراً عاطفياً .

وكان كثير من باحات الحريم مرصوفاً رصفاً جيّداً ، وكان غطاء الجدران من بلاط جميل .

صوت http://mostafamas.maktoobblog.com التوحيد

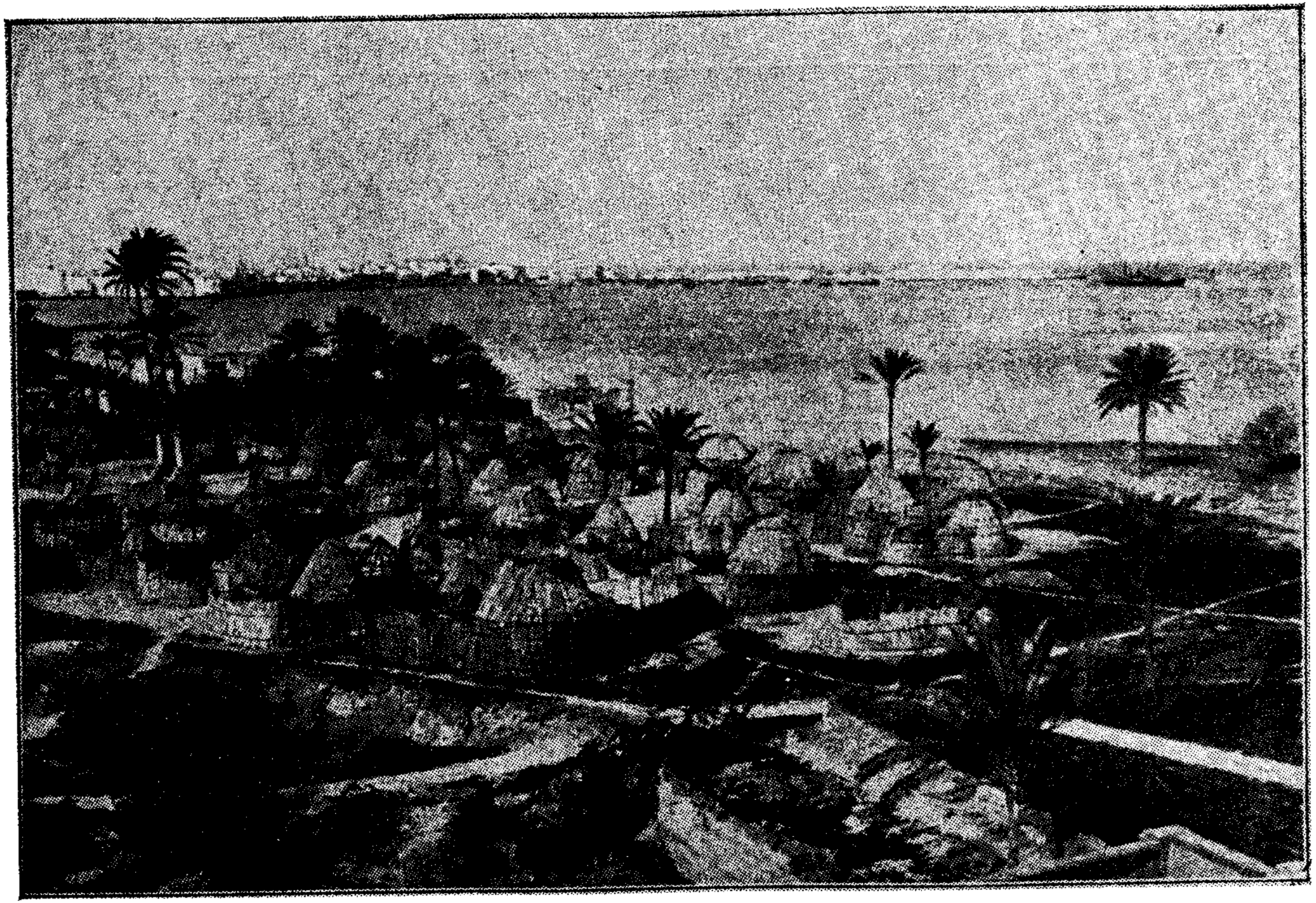

قرية سودانية – طرابلس عبر الخليج .
مجموعة من الزرائب مساكن القرازم العبيد الذين كانوا يخدموا تستيف بالات الحلفة في المعامل الانجليزية .

صوت http://mostafamas.maktoobblog.com التوحيد

وبدأت تتحدث في الحال عن الكسوف القادم ، وعن خوفها من ان يلحق بها أذى ، وأنها سوف لا تجرؤ على الصعود إلى السطح لرؤيته ، سائلة إياي أيضاً أن أستخدم نفوذي لأجعله غير مضرّ ما أمكن .

وكانت الزوجات المتعددات في كل بيت على وفاق –في الظاهر– مع بعضهن بعضاً ، مع أن كل واحدة منهن في العائلات الميسورة كانت تلتزم حجرتها تقريباً وكان الاطفال يلعبون بود مع بعضهم بعضاً ، إلى أي أم انتسبوا .

وكانت هنالك غابة من الخيطان التي عُلقت لتجف بعد أن صبغت ، مزينة رواق ممر آخر ، وكانت صبية مليحة تلف البكرة في الظل . وقد استُخدمت عجوز للقيام بعمل مماثل ، وكانت اخرى تمشط صوف الحمل الخام بأنواع مختلفة من الفراشي المسننة . وكانت الغرفة الرئيسية ملأى بالمطرزات التركية المذهبة التي تزين المخدات والمقاعد والدواوين [1] والجدران . واحتلت نهاية الغرفة فُرُش مثقلة بالسُتُر ، تعلو الواحدة منها الاخرى .

وكانت الساحات نظيفة عموماً ، ومبلطة تبليطاً جميلا على الأغلب ، مع أن التبييض غطى تقريباً كل آجرّ الحائط . وجلست في احد البيوت امرأة في منتصف العمر على المصطبة تنخل الدقيق المختلط من خلال سلسلة من المناخل . وفي الختام كان القش ينفصل عن الطحين الخشن . وهذا ينفصل عما هو أدق منه . وكانت امرأة بدينة تغسل الثياب في وعاء كبير ضحل على الارض ، منحنية انحناءة مضاعفة من أعلى الفخذين لتصل اليه . وليس هنالك من سبب ظاهر يفسر لماذا لم تكن قد وضعته فوق اي شيء . وكانت فتاة جذابة أصغر تشتغل بالابرة ، بينما جعلت عجوز ضئيلة واهنة من نفسها صرّة صغيرة إلى درجة لا تصدق ، وهي تطحن القهوة في طاحونة نحاسية صغيرة . وكان الاطفال كالمعتاد

---

١ - ترجمة د Devans

مبعثرين فيما حولها بلا نظام. وكانت النساء جميعاً مثقلات بالعقود والاساور وكانت الاقراط الضخمة (دوائر من الذهب والفضة) تتدلى غالبا من ثلاثة ثقوب أو أربعة في كل اذن . وكانت إحدى الشابات المتزوجات موشومة وشماً متقناً ولقد نزعت الاحذية لدخول الحجر المفتوحة . واحضر «جاعد» [1] ابيض لنا لنجلس عليه .

وبدونَ جميعاً دؤوبات ومسرورات مع قدرا كبر مما كان متوقعاً من الروح والجو البيتيين .

●

---

١ - جلد الخروف الذي ينظف ويحتفظ بصوفه عليه.

الفصل الخامس عشر

حفلات الزواج عند العرب

ان الصوت الخاص الذي ينبىء بالفرح ، أو بحادثة سعيدة قريبة الوقوع ، ملأ الشوارع الضيقة . كان ذلك بعد منتصف الليل بقليل ، وكانت غفوتي الاولى في أعمق ما تكون .

كان النهار مزدحماً بالعمل ، مليئاً بالزيارات للحريم ، وقد انتهى تناول العشاء والقهوة بدعوة من القنصلية في مارينا . وفي البدء اخترقت الصرخة الغريبة ، الغامضة ، شعوري . وعندئذ استيقظت يقظة أ كمل ، وركضت إلى النافذة على الارض الحجرية الباردة ، لأقفز إلى رصيفها الواسع ، وانظر خارجاً. واستمرت الصرخة السحرية تملأ الظلمة ، بينما تجمع حشد كبير ، وكان الخدم يحملون المشاعل الوهاجة ، ويسيرون أمام عربتين أو ثلاث من العربات المكشوفة التي تجرها الخيول العربية . اعمال لم تكن مألوفة ، بما يكفي ، سنة ١٩٠٠ ، فاسترعت اهتماماً قلقاً . جلست في الأولى سيدة ترتدي حولياً حريرياً أبيض جميلاً ، وخادمان سوداوان معها ، صدرت الزغاريد النافذة عن حجرتيها المزينتين. وسارت خلفها عربات وخدم آخرون ، وتبع الموكب حشد «مشكل» من المتفرجين .

وثبت ان هذه الجماعة الفرحة تتكون من أم عريس مُنتَظَر ، سارت مع خدمها واصدقائها لتعلن للعالم أن كنة جديدة كانت قاب قوسين من دخول بيتها.

وتطلق النساء الصوت نفسه من اعماق الحناجر ، مضيفات اليه رعشة غريبة ونفاذة ، من الصعب تقليدها تقريباً ، تبعث فرحاً سحرياً لا يصدق . ان الصوت نفسه يردد لانواع أخرى من الاعمال الطيبة المتوقعة ، مثلما يجري عندما يوفر عجوز نقوداً كافية للذهاب إلى مكة ، ويكون على وشك أن يبدأ السير . ويأمل الرجل أو المرأة دائماً ان يأتيه الموت في المدينة المقدسة ، وقد رأيت امرأة عجوزاً ستبدأ بعد قليل رحلتها ، وكانت متشوقة تشوقاً عنيفاً أن تصل هناك قبل أن تنهار نهائياً أطرافها الواهية .

ان البشائر السارة لعرس قريب تعلن هكذا ، ليملأ الشوارع في الليلة التالية (ليلة الثلاثاء ليلة مفضلة للاعراس) موكب آخر أكبر هادىء جداً في العادة ، يسير فيه الرجال بجواليهم الخيالية في مقدمة « صانعي الفرح » . ويليهم عدد كبير من الزنوج ، وهم سودانيون من الجنوب ، يقرعون الطبول ، ويشعلون ناراً حمراء ويطلقون شيئاً يشبه الألعاب النارية ؛ويسير على جانبهم جماعة من الصبيان الذين يحملون القناديل والمشاعل عالياً . ويسير العريس السعيد في الوسط،مودعاً العزوبية هذا الوداع المرح . ويجوب الشوارع ضحية الزفة واصدقاؤه ساعات في مرح شامل ، وتنتهي الزفة حوالي الثالثة في الصباح بحفلة جميلة في مقهى أو في بيت عمومي .

وبينما تكون هذه الحوادث المنظورة جارية في الليلة الثانية ، تُنقل العروس بهدوء بواسطة اصدقائها إلى بيت عروسها ، بابتهاج ولكن بضجيج أقل ، لتوضع في عهدة أمه . ومن المحتمل أن تكون لم ترَ سيدها المرتقب بتاتاً ، أو أي رجل آخر ، ما عدا أباها واخوتها الصغار منذ الطفولة المبكرة . ولا تذهب فتاة تزيد عن الثانية أو الثالثة عشرة إلى الشارع حتى ولو كانت محجبة ، ولا تخرج حتى تتزوج يوماً من الايام ، ومن المحتمل ألا ترى أي رجل ، طبعاً ، ما عدا الاقارب الاقربين في باحة البيت .

وتدبر العائلتان هذا الزواج المناسب . وتكونان من مستوى اجتماعي

ومالي متماثل ، ويكون كل شيء مفهوماً ومقبولاً من جميع المعنيين . ويذهب العريس يوم الثلاثاء ، واحياناً يذهب في اليوم السابق ، الى المسجد من أجل بعض « الرسميات » ، ولكنه ليس ضرورياً للعروس أن تظهر هناك .

ويتم الاحتفال الحقيقي يوم الجمعة – ان هـذا الجزء من مراسيم الزواج هو الاكثر امتاعاً للزائر ، وقد دعيت إلى هذا دعوة رسمية ، وهي دعوة للحضور لا ينظر اليها بخفة . كان البيت أحد أحسن البيوت في طرابلس ، الباحة المركزية فيه بلطت ببلاط جميل اخضر زعفراني ، وكانت الشرفات والابواب والشبابيك مبلطة من نفس النوع الأنيق . وكانت النوافذ والممرات المفتوحة تؤدي إلى الحجر في الداخل : وكانت كل المساحات المتوفرة – القاعات ، الحجر ، الباحة – ملأى بالآنسات من صديقات الطرفين المتعاقدين الساميين .

وجلسَت في صف على الاطراف ، اربعون أو خمسون امرأة ، شابات جذابات في مظهرهن ، ولكنهن مطليات بالمسحوق حتى البياض الشاحب ، مع مثلثات قرمزية ناصعة مرسومة على كل خد من خدودهن . وكانت حواجبهن مخططة بالأسود تخطيطاً ثقيلاً ، وهي تلتقي فوق الانف ، وتمتد عبر الاصداغ إلى الشعر . ان الاصباغ الزيتية الشهيرة ، مرغوبة في الشرق رغبة عميقة ، إلى درجة انها حلت تقريباً محل الالوان الناعمة القديمة المصنوعة من الاعشاب ، وذات الماضي الاكثر فنية ، وظهرت في تمازج مدهش . تنانير قصيرة ، سراويل طويلة ، قمصان ، سُتر بلا أكام ، من الحرير والمخمل كلها مطرزة تطريزاً كثيفاً بالذهب والفضة ، أرت كل لون يمكن تصوره – قرمزي ، وردي ، ازرق كوبالت ، اصفر ، ازرق ، اخضر حشيشي – حتى ذابت الموشيات والجرائر والسلاسل والأساور ، في كل مدهش واحد ، انيق ومزخرف ومسرحي ، ذي قوة غير عادية .

وجلست العروس الصغيرة في مكان بارز ، ثابتـة لا تتحرك ، كما نصت التقاليد الجامدة من قرون ، بـين هؤلاء السيدات الجميلات الحاضرات ، وهي

أزهى من أي منهن ، انها مزيج صاخب من الألوان الحقيقية . وكانت مخامل وحرائر قميصها وسروالها ، والدبوس الفضي المتعلق بشعرها الاسود المضفر جيداً ، والصدرة الموشاة ، والحذاء الذهبي ، وارطال من الاقراط المتدلية من نصف دزينة من الثقوب في كل اذن ،واذرع من الليرات الذهبية تلتف حول رقبتها الرقيقة ، ومثلها من الازهار المنسوجة في سلاسل والمعتمدة على حبال زينة ملتفة حول خديها الابيضين القرمزيين – كل هذا كان أكبر أو أطول أو أجمل أو أثقل مما لدى الأخريات ، وكان مناسباً تماماً لهذه المرحلة الكبيرة الوحيدة في حياتها .

جلست العروس الشابة هادئة تماماً ، يداها المصبوغتان بالحنا حتى الحمرة الدكناء ، والمغطيتان بالذهب بالطريقة التقليدية إلى الكوع ، مفرودتان على ركبتيها ، بينما جلست سيدة على كل جانب تروّح لها، بتفانٍ مستمر، في الحرارة الخانقة . ولم تصدر منها التفاتة أو حركة رمش تدل أنها كانت تحس بوضعها المعظم ، وعندما ارسلت الشمس،منسلة في مسيرها الانحداري ، ضربة سهم مستقيمة إلى وجهها مباشرة ، لم تزعج طرفة أو رمشة رباط جاش عينيها المفتوحتين . بيد أن اقرب اثنتين من الحاضرات ، بعد أن نظرت كل منهما للاخرى نظرة قلق لوهلة ، بدا وكأنهما توصلتا إلى قرار إجماعي في أن هذه المناسبة تتطلب عملاً بطولياً : وقد دفعتا العروس إلى الوقوف بلطف ووضعتا إحدى قدميها أمام كواهلهن حتى نجحتا في النهاية إلى توجيه العروس عبرالباحة إلى مقعد في جهة الظل ، مثل دمية جامدة الاوصال على وجه التخصيص .

وفي هذه الاثناء استمرت زنجيات من الصحراء منبطحات على الارض المبلطة ،في الضرب على الطبول الشرقية والصنوج الدقيقة ،وهن يرددن أغنية بربرية جداً ، بدا أنها ارضت إرضاء كثيراً الضيوف اللواتي كن يدعون أنفسهن على صحون الكسكس وطيبات أخرى كل منهن بملعقتها الطويلة – المقبض .

كانت هذه الجلسات تستمر خلال ساعات معينة لمدة ثلاثة ايام . . وكانت الكنة الجديدة تظل شهراً أو أكثر ضيفة الشرف ، تُخدم ، وتُرصد بكثير من الاهتمام ، ولا يكون لها دور في العمل أو الازعاج .

وكانت غرفة العرس زاهية جداً بالبسط والدواوين ، والمخدات المطرزة بالذهب ، والستائر. وقد كسيت الجدران بالسجوف الشرقية – وكان في كل مكان نساء واطفال واطفال يدرجون ، يتفحصون ويأكلون ويضحكون ، راضين فرحين .

ولأب العروس الاربع زوجات المنصوص عليها ، وكان مرة الأب الفخور لأكثر من خمسين طفلاً ، ولكن عاش اربعة عشر طفلاً الى ما بعد الطفولة : عائلة صغيرة في طرابلس الاسلامية ، كما اخبرني وهو حزين في مناسبة أخرى .

وكان اكثر الاشخاص استحقاقاً للتصوير من بين ضيوف العرس ثلاث أو أربع من البدويات القادمات من الصحراء ، ذوات الوجوه السمراء والعيون الحالكة ، من تأثير الطقس على خدودهن الحمراء الخمرية وأيديهن وأذرعهن ، وكانت شعورهن وأعناقهن مثقلة بسلاسل من الفضة ، وآذانهن ثقيلة بزينات فضية ، هي ثروة العمر كله . وقد بدين مهتمات اهتماماً شديداً بالغريبة ذات الشعر الأخف من شعورهن ، وبثيابها غير المألوفة ، موعزات بإشارات ذكية تماماً ، إلى انهن يرغبن في أن تأخذ لهن صُوَر بآلة التصوير الصغيرة التي لاحظنها تحت ساعدها ، وقد هيأن أنفسهن كالأطفال المتشوقين .

وقد أملت أن أحصل على صور لهذا المنظر المثير ، ولكني لم أحاول ، لأني أعرف الشعور السخيف لكثير من العرب حول الموضوع . بيد أني لحظتها ، تحدثت مع المضيفة ، وهي أم العريس ، بواسطة مرافقتي وهي سيدة انجليزية متضلعة بالعربية . وسألت إذا كان يسمح بأخذ صورة أو اثنتين .

وبعد لحظة من الترجمة ، كان معنى كلامها واضحاً : ليس هنالك من اعتراض عليّ في اخذ أي شيء، ما دمت أتجنب العروس؛ لقد كانت متأكدة تماماً أن ابنها لا يرغب في ان يُلتقط وجه زوجه الجديدة في آلة تصوير ، وفيما عدا ذلك فاني استطيع ان أصور ما أختار . بيد أن الضوء ، كان وقتها قد تناقص ، وهكذا لم أصوّر إلاّ ثلاثة أفلام ، وانسحبت بعد أن حييت المشهد الاحتفالي مودعاً .

في ذلك المساء ، عندما كنا قد انتهينا من تناول طعام العشاء ، حوالي الساعة الثامنة ، أتى رجل عربي مضطرب ، ذو مظهر جذاب ، ولكن روحه كانت متوترة ، وقد احضر معه أحد المقيمين الانجليز ليكون مترجماً . وأسرّ وهو شاحب ، متحدثاً بسرعة عظيمة ، وكان طربوشه يميل كثيراً إلى جهة واحدة ، ووجهه صورة للهم ، بمخاوف على حياته . وظهر عبء قصته التي ترجمت إلى الانجليزية بسرعة بأن أزواج كل السيدات اللواتي كنّ ضيوفاً في احتفالات زواجه أحس كل منهم بالخطر خشية أن تكون زوجته قد صوّرت عندما أدرتُ آلة التصوير على مختلف الشرفات والجماعات .

وأكمل وهو شاحب الوجه : « والآن انهم قابعون في انتظاري في كل زاوية » وأضاف مستثاراً : « ستكون هنالك نزاعات ، واضطرابات عائلية ، وسفك دماء » . « سوف يقتلونني » .

قلت « ان ذلك بالتأكيد غير سار ومربك لك ، ولكن لماذا هم ينظرون إلى آلة التصوير الصغيرة الخاصة بي نظرة خطيرة إلى هذا الحد ؟ »

أجاب : «آه ، ولكن وجلاً قد يُظهّر السوالب [1] وهكذا يرى وجوههن أو قد تعرضينهن أنت عندما تعودين إلى بلادك (هل هذا بعيد جداً) أو بعض

---

١ ـ ترجمة حرفية لـ Negatives

كوخ سوداني

صوت

الرجـــال (مسيحي) قـد يرى هذه الوجـوه . وهم سوف لا يسمحون أن تحدث مثل هذه الكوارث في بيتي » .

وعندما رأيت أنه ينبغي عليّ ، إذا كان هذا ممكناً ، أن أخلصه من كل متاعبه ، اخبرته ان بإمكانه أخذ الأفلام من آلة التصوير ، كما كانت غـــير « مظهرة » [1] . وعندئذ لن يكون هنالك خطر في أن انقل بعيداً وجوهـــاً محرمة إلى أي بلاد ، حيث يمكن أن يَنـْظـُر اليها الضالون .

تهلل الرجل فرحاً . ووضعها في جيبه باسمـــاً . وانحنى مقدمـاً آلاف التشكرات وهو خارج إلى عقوبات الليل المنتظرة ، والتي جردت الآن مـــن قوتها .

وكشف التظهير المتلهف للفيلم عن لا شيء .

---

١ ـ استعمال عامي لمعنى الكلمة الانجليزية (Develope)

الفصل السادس عشر

إستعدادات الزواج

ان الايام الأولى من اسبوع العرس كانت مليئة باهتمام غريب .

وتبدأ الاحتفالات عادة يوم الاربعاء في بيت العروس . وعند وصولنا وجدنا جمعاً كبيراً من السيدات المتألقات في سلاسل طويلة من النقود الذهبية والعقود ، والاقراط الثقيلة ثقلاً لا يصدق ، وأساور إلى الكوع من الذهب السميك الأملس العادي ، ودبابيس من الفضة والذهب والحرير الازرق أو الاخضر أو القرمزي أو الاصفر : والوجوه المزينة بإفراط ، والتقاصير التي لا أكام لها المصنوعة من المخمل الفاخر أو القطيفة الخمرية ، المطرزة بالذهب تطريزاً كثيفاً ، مع حوالي حريرية وخفيفة ترتدى . وكانت تبدو هنا وهناك بدويات سمر آخريات ، هذه المخلوقات المدهشة ذوات الاسنان القصيرة القوية البيضاء ، والمناديل الحمراء المربوطة باغراء على شعورهن السوداء ، وأرطال من الدبابيس والسلاسل والاقراط والاساور ، والاقدام العارية والوجوه الطلقة الباعثة على الاطمئنان .

وكانت بعض السيدات محجبات حجاباً محكماً بحوالي بيضاء رقيقة تبدو العين المسموح بها منها بصعوبة . وقد جلسن معاً بخفر ، حريصات جداً على ألا يدعن

وجوههن تُرى حتى للحظة واحدة ، مع أن أحداً لم يكن موجوداً غير النساء . وكان ازواج معينون في طرابلس معروفين بأنهم يعارضون مغامرة زوجاتهم بالخروج من البيت خاصة ، حتى لو كنّ ملفوفات جيداً،فلوعرف أنهن كنا هنا ، يمكن أن ينقل أحدٌ فعلةُ السوء احتمال وجودهن خلسة . وجرى الهمس بأن واحدة أو اثنتين من المحتمل عندئذ ان يضربن . وفي هـــذه المناسبة دعينا الى الشرفة ، ونظرنا الى الجمع المزخرف زخرفاً بديعاً .

وفتح بعد وقت باب حجرة العروس المقابل بهدوء وحذر ، وقد اجتمعت حول العروس الزنجيات اللواتي يقدمن الموسيقى في هـذه المناسبات ، مطلقات الكثير من الغناء والكثير من ضربات الطبول ، وكانت معهن فتاة صغيرة ،تحمل قنديلاً فضياً جميلاً قديماً ، يحترق فيه البخور . وكان أول من طلع نساء يحملـن مقعـــداً قائم الزوايا من قطيفة قرمزية مطرزة بالذهب . وتبعن آخريات بسلة بحجم البوشل [1] مليئة بأوراق الحناء المجففة . وهبطن كلهن بحذر على الدرج إلى الساحة المكشوفة في الأسفل ، واضعاتِ الحناء على الكرسي المركزي .

جاءت بعدهن خادم سودانية ضخمة سوداء ، حاملة بعناية كبيرة جـــداً ، مرآة كبيرة بإطار مذهب . وطلع شخص العروس المغطاة ، تدعمه من كل جهة وتقوده فتيات بديعات ، وكانت العروس ملفوفة بحولي مذهب القماش يلتقي في نقطة على قمة رأسها ، ويتواصل طرفاه بوضوح معاً ، ليغطيا الوجه تماماً .وكان حذاؤها المكون من القطيفة القرمزية مطرزاً بالذهب ، وكانت تخطو ببـطء وحذر ، يناسب كلاً من السيدة التي عميت مؤقتاً ، أو السيدة التي تحتل مؤقتاً مركزاً كهذا المركز العظيم .

وقد ابقيت أقرب ما يمكن إلى المرآة ، مواجهة لهـــا كلّ الطريق حول الشرفة ، ورفيقتها التي تقودها ، وحاملة البخور ما زالتا تصاحبانها ،وبعدئـــذ هبطت الدرج ، ببعض الصعوبة ، احتل هذا كله تقريباً نصف ساعة . وعندما

---

١ – مكيال إنجليزي .

وصلت إلى أسفل الباحة ، حيث وضعت المرآة قريبـــاً من الكرسي والسلة . وأجلست نفسها في السلة ، بعد أن مرت بين الكرسي والسلة ، في مواجهـــة المرآة ، وقد سوّت لها مرافقاتها الحولي من اجل راحة أكبر ، وعندما جلسـت نطنطنها بلطف على الأوراق المستسلمة .

وقد تخاطفت قبضات صديقاتها الحناء ، ومررنا من فوق رأسها ، ليضعنـه في يديها من تحت ثيابها ، ولينثرنه كلية عليها ومن حولها . وفتحت الحولي ، دافعة وجهها قريباً من المرآة ، لتنظر إلى نفسها ، بينما نشرت صديقاتها ثيابهـن ستراً ، حتى لا ترى لمحة من وجهها ، بأية حال من أية زاوية . ان هذا الجزء من الاحتفال فيه طعم السر الغامض ، وكان رمزياً بشكل واضح . ما من امرأة مسلمة تحدثت معها ، مهما كانت صداقتها ، ومهما كان طول معرفتها ، كانت راغبة في إيضاح هذا العمل. وبدا أنهن جميعهن يعتبرن هذا ، على أنه محرم جداً على البحث ، وكن يغيرن الموضوع كلما اقتربت منه ، مع أنهن كـن مستعدات دائماً للحديث في كل ظواهر هذه المناسبة .

ورفعت المرأة الكبيرة السوداء ،في الختام، المرآة مرة ثانية،وبدأت مسيرة العودة إلى أعلى ، تتبعها العروس والحاضرون ، وقـــد أزيح الكرسي والسلة وتفرقت الجماعة . انسحبت العروس إلى حجرتها الخاصة ، وأغلق الباب، وكان مفروضاً ألا تراها صديقاتها ثانية حتى المساء ،عندما تتناول أشدهن قرباً منها العشاء معها في الحجرة المغلقة . ولكن لما كنا غرباء ، وسنغادر سريعاً ، كنـا نُدعى للدخول هنا وهناك . وكانت العروس تجلس على الأرض ، حولها خمس أو ست من الصديقات الخاصات،وقد خَلَعت الحولي ، وارتدت لباساً زاهياً من القطن الأحمر البسيط والأبيض .

ولقد كانت فتاة جذابة جداً ، جميلة وبادية الصحة ، وذات مظهر مرح وقوة نادرة في طرابلس .

انه رجل محظوظ،ذلك الذي سيكون زوجها ،ذاك الذي لم يرَ بعد زوجته الجديدة .

الفصل السابع عشر

حفلة زواج إسلامي آخر

لقد أيقظتنا ليلتين أو ثلاثاً المواكب الغريبة ، وفي اليوم التالي لليوم الثالث، جاءت امرأة من الأهالي محجبة تماماً لترافقنا إلى « صمدة » [1] عروس أخرى . ولقد كانت في بيت في جزء غير معروف من المدينة . كانت الشوارع أضيق ولم يكن أجنبي يُرى ، عندما اقتربنا بسرعة من ساحة العرس . ولقد كان المكان مزدحماً بالناس عندما وصلنا ، حتى أننا دعينا إلى الشرفة ، لأنها مكان أفضل للرؤية .

وكانت أسراب من الحمائم البيضاء البديعة تطير جيئة وذهاباً في كل مكان منقضة من السماء الزرقاء فيما فوق ، مجتازة سطح البيت ، لتحط تقريباً ثم لتنطلق ثانية في ضوء الشمس . وقد علقت عبر الزاوية في القاعة حبال لحمة مخيفة ، رميت عدة قطع منها إلى هر على الأرض ، وقد نازعه بعنف على ملكية هذه الطيبات طفل يزحف ، لا تزيد سنه عن ستة أشهر أو سبعة .

وكانت الضيوف كلهن بالطبع يلبسن لباساً زاهياً ، وقد ظل قليل منهن

---

١ – تسمى صمدة أو جلوة .

ملفوفاً بإحكام ، كما لو أنهن كن قد هربن سراً من بيوتهن الخاصة ، ويخفن أن يعرفن . وكانت امرأة أو امرأتان تركيتان حاضرتين ، وبعض الزنجيات المتأنقات في لباسهن ، وقليل من البدويات المبهجات في الفضة الفاخرة . وبدا أن واحدة من هؤلاء النساء المسنات تملك نعمة المرح الحقيقية : وقد كشفت عن أسنانها البيضاء القوية في ضحكات عديدة صادرة من أعماق القلب ، وكانت عمامتها الحمراء موضوعة على جانب واحد بغوى ، وحجابها الطويل مثبت بدبوس فضي مخرم ، وكانت أناملها مصبوغة بالحناء صبغاً ثقيلاً .

وقعدت كالعادة نساء زنجيات على أرض الباحة ، يضربن على طبول غريبة ، ويرددن نغماً خاصاً ، وأصبحت واحدة منهن ثملة تماماً في هيئتها كلها ، بما تقدمه ، وكانت زهرات الياسمين الأربع المستقيمة المسننة تهتز فوق إحدى أذنيها ، وجسمها يتمايل في انسجام فَرِح على وقع أغنيتها البربرية .

وأحضرت عدة نساء أطفالهن ، الذين بدا بعض منهم قوياً موفور الصحة حقاً ، ولكن أغلبهم كانوا شاحبين جداً وسائبين . ويُفترض في الأطفال في طرابلس أن يأكلوا كل شيء متوافر ، لحم ، خبز أصفر من الشارع ، فواكه ، أو أي شيء يأكله آباؤهم ، وإذا كانت امرأة غير قادرة على إرضاع طفلها ، فان حظه في الحياة سيكون ضئيلاً جداً . وكانت وفيات الأطفال مُروّعة . وكان طفل هزيل يموت بوضوح في نفس المكان ، ما من ذرة من اللحم على ذراعيه أو ساقيه الهزيلتين ، التي تعلق عليها الجلد متموجاً . كان ابيض تماماً ، يتنفس بصعوبة ، ومع هذا فان أمه كانت تدلله ، محاولة ان تسلي عينيه المغلقتين ومدعية لنفسها انه مثل الأطفال الصغار الآخرين .

وكان بالقرب منا في الشرفة باب حُرِس جيداً ، لونه أخضر شاحب ، ذو مقابض نحاسية جميلة ، راقبته جدة العروس القوية العتيقة (لم تكن مهتمة بحوليها) واحتفظت به مغلقاً عندما كانت المراحل النهائية من تزيين العروس مستمرة .

دخلت في هذا الوقت ست من الصديقات الحميات ، ثم دخل عدد قليل أيضاً ثم دخلت المرأة السوداء بالدفوف لترافق العروس في هبوطها ، ودخلت أربع فتيات بقناديل صغيرة مضاءة . وفي الطريق نازع صبي صغير فتاة حول حقوق حمل القناديل ، وأخرج الصغيرة غارقة في دموعها الغزيرة ، بينما انضم هوإلى الموكب بدلاً منها منتصراً .

وُلفت العروس بحجاب من الحرير الأزرق المخطط ، يغطي تقريباً جدائل طويلة جداً من الشعر الأسود،مزينة بزينات ثقيلة في نهايتها،وكانت ثيابها بشكل رئيسي من القطيفة الحمرية والزرقاء،المطرزة بالذهب والفضة،وكان حذاؤها فضياً واقتيدت إلى أسفل بلطف ، كما لو كانت من الزجاج المفتول . وتعامل العروس بكثير من التبجيل في بيت زوجها مدة شهر ، إذ إن أمه وكل العائلة يتنافس كل منهم مع الآخر لاراحتها من العمل . وبعد ذلك تأخذ مكانها بين البقية ، لتقوم حتى بما يزيد عن نصيبها العادي .

وتوضع البطلة التي حضرت أخيراً إلى الباحة على صندوق أخضر مزين بالنحاس من الواضح انه يحوي « كنوزها » ؛ وقد سويت يداها وثيابها ، وبعدئذ أديرت برزانة مثل آلة صماء ، حتى يرى الجميع أناملها الحناة ثقيلاً ، بزيناتها المذهبة وثيابها وجواهرها . ويرفع الحجاب في النهاية ليظهر وجه تغطيه المساحيق بكثافة ، رسم عليه مثلث وردي ، وحاجبان مسوّدان ملتقيان ، وأوراق زينة ذهبية وملونة ملصقة على الذقن والجبين ، وسلاسل من الأزهار ، والباقي مما هو مألوف في اعراس سابقة . ولقد بلغنا المكان في احتفال عرس سابق عندما كان تقريباً في هذه النقطة ؛ واقتيدت العروس بلطف بعيداً عن صندوقها ، وأخرجت ، بعد أن طوّف بها تطويفاً كافياً تقريباً لتسبيب دوار حقيقي . وقد أجلست على كرسي عند الجدار ، وثبتّت حجابها ليتثنى وراءها، وفردت يديها على ركبتيها ، بينما أخذ كل يزاحم الآخر ليتملى ملابسها .

وهناك عليها أن تجلس حتى حلول الظلام .

الفصل الثامن عشر

حفلة زواج يهودي عربي

ان العرس العربي بين اليهود الأغنياء يسير سيراً مختلفاً .

لقد وصلتنا الدعوات قبل عدة أيام ، فقبلناها باهتمام واضح . كان البيت جميلاً ، ولكن كالعادة، حتى بالنسبة لأغنى العائلات ، فهو يقع في شارع ضيّق حقير ولا يتم الوصول إليه إلاّ عبر ما يبدو مثل ممر تحت الأرض ، متعرج وكثير الدورات والزوايا ، في حي الحارة [1] في المدينة .

بلغنا أخيراً الباحة ، المفتوحة على السماء ، والتي يحرس مدخلها خدام . وكانت حتى جدران الممر الذي يقود إلى الباحة مغطاة بأوراق سعف النخيل الطويلة جداً ، كما كانت جدران الباحة الزرقاء الشاحبة نفسها . وعلقت سجف حريرية بأشكال مختلفة ، مع سُتُر حريرية زاهية ومناديل كبيرة .

وكانت تواجه المدخل مباشرة مصطبة مرتفعة عليها ديوان وكراسٍ وثيرة يواجه بعضها بعضاً على الجانبين، مكوّنة نوعاً من العرش ، عليه حوليّ جميل ابيض مصنوع من الحرير ووبر الجمل . وتدلت في الوسط من السقوف المعترضة

١ — حارة اليهود.

زينة مغطاة بأزهار صناعية ، وكرات مذهبة وزينات أخرى . وعلى الديوان غير المغطى كان هنالك مخفظة يد مطرزة ومروحة طرابلسية ، مثل الراية الصغيرة ، ولكنها ليست مصنوعة هذه المرة من القش ، بل من زهر الياسمين المعلق على سلك . وكانت سجادات ممتازة تغطي الأرضية والمصطبة . وكانت الشرفة ، فيما فوق ، مزدحمة بالأصدقاء ، كما كان السطح ـ ومن الواضح ان الجيران قد زحفوا من فوق ، وكان يحدقون الى أسفل على المشهد الفرح دون أن يكونوا مدعويين ـ وقد اجتمعت السيدات اليهوديات بطريقة مريحة ، وكانت ملابسهن من كل لون يمكن تصوره ، ولكن حواليهن الجميلة التي تسمح عندما ترسل برؤية الوجوه فقط ، ومقدم الشعر والعديد من الأقراط والعقود ، قدجعلت الأثر خفيفاً وشاعرياً . وحضر عدد قليل من المالطيات والإيطاليات بثيابهن الأوروبية ، ولكن عددهن لم يكن كافياً لإفساد الحصيلة الشرقية .

وكان الشباب اليهود الصباح الذين يلبسون الطرابيش والمعاطف الطويلة الواسعة ، والقمصان البيضاء المنطلقة خارج السراويل الواسعة ، يقدمون الكراسي ، ويهتمون بالضيوف ، ولقد كانوا مهتمين ويقظين اهتماماً ويقظة زائدين .

وظل الضيوف يصلون تباعاً ، كثير منهم يصحبون أطفالاً ، حتى امتلأت الغرف خارج الباحة . وكان كل شباك ، وكل نافذة يشع بالعيون المتفرسة .

ومر والدا العروس بوجهين قويين عذبين من بين الأصدقاء ، وكان هو يلبس طربوشاً وعمامة مستديرة زرقاء ، وهي ترسل شعرها في ضفائر ، وتتزين بكثير من الجواهر والألوان . وكانا وابنهما الأكبر يباهيان بثمانية عشر ولداً . وكان ابنهما جميلاً جداً .

وأخيراً سمعنا غناء تركياً من أناس مختفين عن الأنظار ، نغمان أو ثلاثة ، ذات خنن لا يصدق ، وتكرار مستمر ، دون بداية او نهاية .

وانحدر ، بعد هذا بقليل ، اثنان من الكهنة الموقرين يلبس كل منهما عباءة وعمة من على الدرج المكشوف المنحدر من الشرفة ، أحدهما ممتلىء سمين، والآخر طويل نحيل بشكل غير عادي ، تتبعهما فتاتان صغيرتان تحملان شموعاً عديدة مضاءة . سارت في الأثر والدتا العروسين ، ثم العروسان . وكانت العروس الصغيرة ممتلئة ومليحة،وذات أهداب سوداء وطفاء ، وسترة وتنورة وسراويل من ألوان كثيرة، وحجاب من نسيج أبيض شفاف . وكان العريس صبياً شاحباً وغير جميل .

واعتلى العروسان المصطبة الصغيرة ، وجلست العروس على يمين العريس على الديوان . ومد العريس في الحال على رأسه ورأس عروسه وشاحاً حريرياً أبيض واسعاً كثيراً ،ذا أطراف زرقاء فاتحة . وقد أسقط سريعاً ، بينما ظلا جالسين، وعيناها مطرقتان حشمة . وكانت أمها تحتل الكرسي القريب من العريس،تليه العروس .

وتناول واحد من الكاهنين كأس خمر ، تالياً عليها نوعاً من الدعاء ، وبعد أن شرب القليل منها ، قدمها بعد ذلك للعريس الذي رفعها الى شفتي عروسه (وصبّ كمية على جيدها ، يا للصبي المسكين) . ودارت الكأس نفسها على الضيوف ، ليأخذ كل منهم رشفة وكرر الكاهن مزيداً من الكلمات الطنانة ، وأجاب الحضور بكلمات منسجمة ، وبدا بريق خاتم الزواج الذي يفترض أن يكون قد وصل العروس ، ليرفع الحجاب ـ وفجأة دارت كؤوس تحوي شيئاً ذكياً وماء وردياً ، ووزّعت قطع من الكعك الشبيه بالإسفنج .

وبدأت الضيوف من النساء في الحال يزدحمن حول العروس ، مقبلات وجنتيها ، ومسلمات بالأيدي . وتقدمنا في النهاية إليها ، وأبلغناها احترامنا ، وفعلنا ذلك مع أم العريس ، وأم العروس التي كانت في هذا الوقت مضيفتنا الحقيقية .

وكان ضوء النهار مـــا زال زاهياً عندما خرجنا الى الشارع الأبيض ذي المتخاريب، وكانت السماء الداكنة الزرقة تتوهج في شريط ضيّق فوق الجدران البيضاء ، والاقواس العمرانية المتواترة ذات اللون الاصفر الفاتح أو الازرق . وكانت الجمال تتزاحم في العبور ، وكذلك الحمير الصبورة ، بينما كان يعبر بسرعة الاتراك المتكبرون والنساء المحجبات ، واليهود المتعظمون ، والعرب الوقورون مثل النهاية المسرحية .

هل كان حقيقة عالمنا الخاص على أية حال ؟ أولاً . . . لقد كان بالاحرى غوصاً مفاجئاً في حياة كوكب جديد .

الفصل التاسع عشر

كسوف سنة ١٩٠٠

كانت كل الاجهزة جاهزة على سطح القنصلية . ولقد دُرِّب كل المساعدين الهواة في مختلف أساليب المراقبة — هؤلاء الذين سيصورون الهالة، أو يسجلون الزمن ، أو يراقبون ويسجلون حبات بيلي ، وأشرطة الظلال وظواهر صغرى مختلفة .

وكان الوقت تقريباً قاب قوسين .

وكانت السماء تزداد وضوحاً باستمرار ، كلما اقترب اليوم . ولم تكن العواصف لتخشى في فصل الجفاف طبعاً ، ولكن هذا لا يعني الحصانة الكلية ضد السحب ، وقد تبدأ القبلة بالهبوب، مكثفة الهواء تكثيفاً خطراً على تصوير الاسلاك الحرارية الدقيقة لـلإكليل . وعلى كل حال ، فقد أفقت في صبيحة يوم الاثنين المقدّر ، من أحلام مخيفة بالضباب والعواصف ، لأجد صباحاً بلورياً ذا جو لم يسبق له مثيل في نقاوته الصافية .

واختفى أي إيماز ببخار تائه في الأفق ، عندما تقدم النهار ، وأصبحت

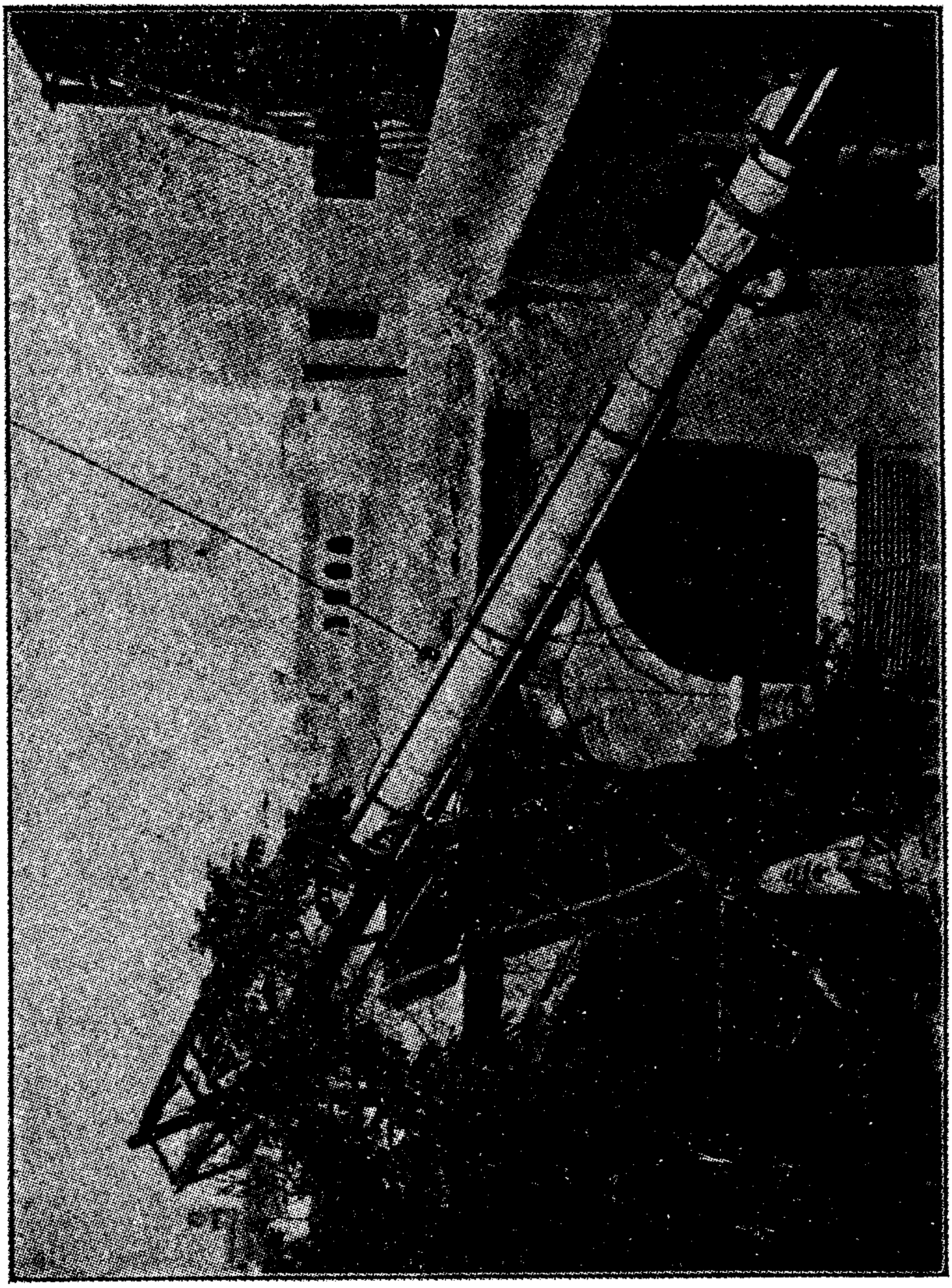

كل الآلات كانت جاهزة على سطح شرفة القنصلية

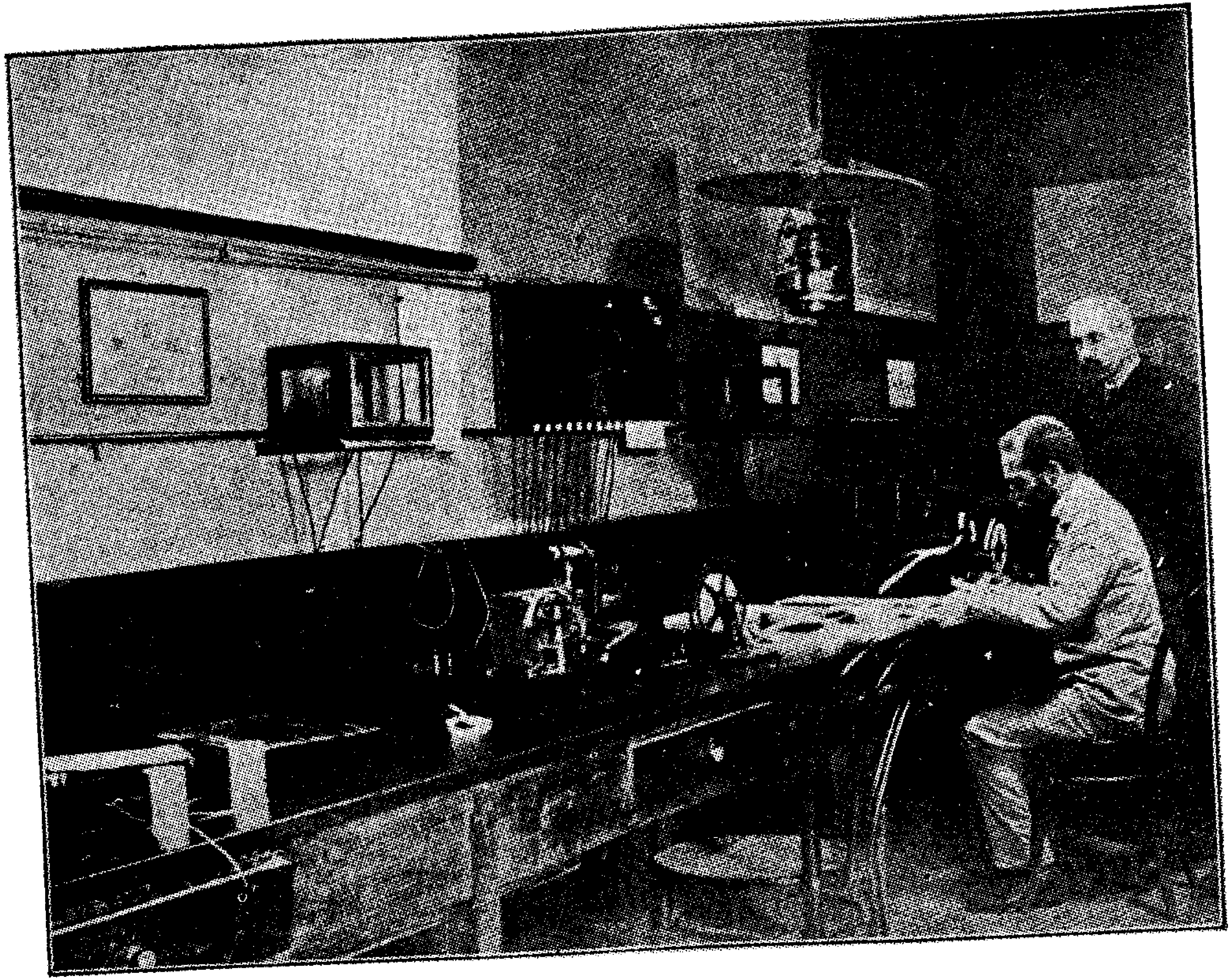

تلغراف من جورجيا

السماء شفافة شفافية مطلقة . وراقبت السماء بعين يقظة ، في فــترات إصدار التعليمات النهائية للعاملين والمراقبين المتطوعين من كل الجنسيات ، والمساعدة هنا وهناك ، في الأعلى والاسفل ، ولكني كنت أجدها دائماً زرقتهـــا النضرة ذاتها غير مشوبة . وحل بعد الظهر ، أخيراً ، وقد احتشد الجميـع ، وكررت تمارين الايام الستة السابقة ،ووضعت المستعمرة الفرنسية كلها مع بعض الفرنسيين والايطاليين ، كلٌ في نقطة محددة ليقوم بدوره في برنامج الكسوف .

وكان وميض الأسطحة البيضاء مُعمياً تقريباً ، وكانت الشمس المتعجرفـة غير الشاعرة بإذلالها المقترب تتألق تألقاً كثيفاً ، كما لو أنها كانت تسعى لتفرض على البشر التقهقر عن الشرفة .

ووصلت برقية من جورجيا ، قبل أن يصلنا الكسوف بأكثر من ساعتين ، تعلن عن نجاح المراقبة هناك – وهو نصر حقيقي لرسول الانسان على سرعـة الإجرام السماوية ،كان قد أكد إمكانيته البروفسور تود في كانون الثاني (يناير) سنة ١٨٨٩ خلال كسوف كاليفورنيا . وقد وصلت في عشرين دقيقة، بعد إتمام المراقبة في جورجيا ، في الساعة الرابعة عشرة جاءت مـــن واشنطن الرسالة المتفق عليها واصفة الكسوف في النهاية الامريكية لمساره .

وبنـاء على طلب مـــن زوجي ، وبفضل دنيسون بنـــدر المحترم (Denison Pender) المدير العام لخطوط شركة البرق الشرقية الواسعة ، سُمح باستخدام برقياتهم الجديدة من جبل طارق الى مالطة،ومن مالطة الى طرابلس ليُجْعل هذا الاتصال السريع ممكناً ، وليجعل هزيمة القمر التامة في سباقه مع الكهرباء ممكنة أيضاً .

واجتمع أستاذ الرسم الايطالي وقليل من أحسن تلاميذه في إحدى الزوايا، أمامهم خطوط رصاصية ليعيّنوا اتجاه الاشعة التاجية على الرسم التخطيطي ؛

وبالقرب من ذلك، قسم السطح الى خطوط شمال وخطوط جنوب لتعيين اتجاه أحزمة الظل وسرعتها ، ووضع مراقبون بالقرب من ذلك، ووجهت آلة تصوير إلى ذلك الجزء من الحائط الأبيض حيث سيقع ظل الشجرة الكبيرة ، فلربما كان ممكناً أن تسجل الأهلة الصغيرة التي كشفت عنها أوراقها في الكسوف الجزئي على لوح . وقد وضعت اسطوانتان أو ثلاث ، يقف وراءهمـــا مراقبون ، ليمنعوا وصول ضوء الهالة الداخلية الوهاج ، وهكذا فان الامتدادات الطويلة يمكن أن ترى بسهولة وتُصوَّر . ووضعت تلسكوبات صغيرة في أماكن مختلفة ، لتستخدم في النظر بواسطة العين الى أقسام من الإكليل، وكان هنالك أشخاص لمراقبـــة اقتراب ظل القمر ورجوعه – الكل كان منتظراً مترقباً . بينما تركز العمـل والجهد الحقيقي على المناظير العشرة وشغلها المنتظم ، هذه المناظير التي وجهت الى تلك البقعة في السماء التي ستكون الشمس فيها .

وعج كل سطح في المدينة بالناس ، من مالطيين وعرب ويهود وجنود أتراك على ظهور متاريسهم ، ورهبان فرنسسكانيين في مكان تريضهم العالي – ولقد ازدحمت حتى المآذن ، بينما احتشد في الشوارع جمع فضولي ، مشرئباً بعنقـــه ليحصل بالصدفة على لمحة من المراصد بينما احتشدت الفئة المفضلة على سطح القنصلية . ان أية « فرجة » آتية لا بُدّ من ان تكون هناك ، وكان الشيء الكبير هو أن ترانا . وكان رجل واحد فقط في المدينة يبدو لاهياً كلياً عـن المشهد الوشيك الحدوث ، واستمر ، ملتفاً بكشابيته يهز الشعير في غربال بغباء ، بعيداً دوننا في ساحة مظللة .

لوحظ أول اتصال حوالي الساعة الرابعة والربع ، قبل الزمن المحدد قليلاً . زحف القمر الأمين قليلاً قليلاً نحو اللحظة العظيمة ، عندما ينزلق بيننا وبين الشمس ، فيقدم بجسمه الصغير الحجاب الوحيد للمعانها الذي كان دائماً فعالاً في السماح برؤية الدارة الشمسية بالعيون البشرية . ان اللمسة الاولى لقرصها الباهر قد سجلت ، وكان مطفىء الشمس المستمر الزحف بهدوء ، يغطي أكثر فأكثر من السطح الساطع ،

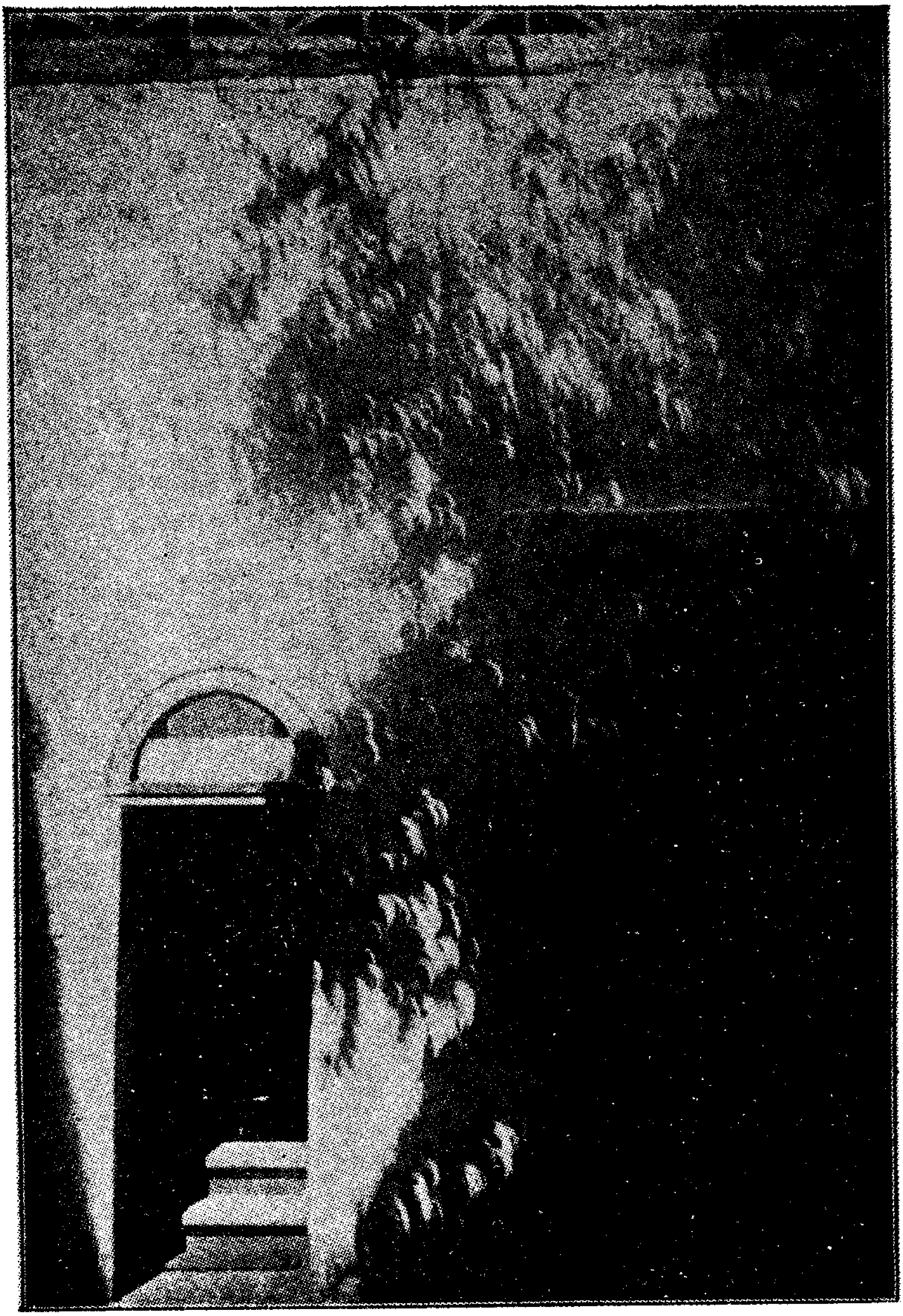

الأهلّة الصغيرة التي كشفت عنها الأوراق خلال الكسوف الجزئي

حتى بقي هلال عريض فقط . وحتى حينئذٍ فإن الضوء كاد لا يبدو أقل ، وكان وهج الاسطحة البيضاء ما زال مؤلماً للعين غير المظللة ، ولكن كان هنالك اختلاف بسيط في ضوء الشمس .

وبعد لحظات لم يعد من غير المريح التحديق بعيداً ، فلقد كان لون كل شيء منظور حزيناً مقهوراً ، وأصبح البحر الياقوتي مثل الاحجار الباردة المشققة ، والسماء مثل الفولاذ . وتصاعدت صرخات قليلة من الاسفل ، عندما تزايدت الصفة الغريبة في الضوء وضوحاً ، وعلت دعوات المؤذنين بالصلاة ، ولكن سكوناً متفرداً ساد بشكل عام . اصبح الجو بارداً ورطباً ، وخرجت السنونو أسراباً ، تحوّم مهتاجة بطريقة تختلف عن الاستعراضات الليلية التي تقوم بها كل يوم في المغيب . وقد سقطت الجمال على ركبها ، وأبدت حيوانات أخرى كثيراً من عدم الارتياح .

وانكمش فجأة الهلال الصغير ، الذي لا يزيد عن الخيط ، من قرنتيه في الوقت ذاته ، وانقسم الخيط اللامع إلى سلسلة من الكريات أو النقط ، تدعى سبحة بيلي (Baily's Beads) ، وقد ذكرها هالي (Halley) أول مرة سنة ١٧١٥ ، وهي ظاهرة أنيقة جميلة [١] .

كانت الكسوف الكلي فوقنا . انه لم يأتِ بقفزة سحرية ، كما حدث في اساشي (Esashi) سنة ١٨٩٦ ، ولا في مجموعة من الهزات ، كما حصل في شيراكاوه (Shirakawa) سنة ١٨٨٧ ، ولكن في عملية انبساط هادئة ، سحرية ومحببة بشكل لا يمكن التعبير عنه . وبدت لثانية واحدة نقط ليمونية ، عندما تفتت الهلال الساطع ، وبعدها تعلقت كرة القمر السوداء العظيمة في السماء الصافية المخملية الرمادية ، بينما أزهرت حولها الدارة الشمسية البديعة ، مثل زهرة جميلة ذات نور سماوي . وكان فيما دون شريطان ضوئيان ، طرف أحدهما الاعلى يلمع لمعاناً ، أما الباقي فضعيف وفضي ، تمتد فوقهما ثلاثة أشعة متساوية

---

١ — وهي ظاهرة تصاحب الكسوف الكلي ، حيث تحيط بالقمر نقط ضوئية مثل اللآلىء.

في امتدادها ، ذات بنية متداخلة ، ونقاط بيضاء ناصعة ، بينما كانت الأشعة القطبية قصيرة وغير واضحة – ولقد توهجت هذه الدارة الشمسية في جمال سحري غرار فوق الصحراء الحالمة ، بينما طلعت الكواكب في السماء الباردة ، وساد صمت في الهواء الراكد ، كأنه صمت انتظار أبدي.

وتنفس على الأفق المنخفض لون أصفر دافيء ، امتد على طول الشاطيء ، ولكن لم يكن أي شيء من عظمة اللون ، أو التأثير غير الارضي لخلق جديد ، التي جعلت كسوف أساشي بديعاً إلى درجة محزنة ، وأخاذاً جداً وباهراً . وبدلاً من ذلك ، فان هذا كان عادياً ، لطيفاً ، محبباً ، مفعماً بجمال وقوة غير عاديين ، مع هدوء يتنفس روح عالم الكواكب ذاتها ، حيث الزمن ليس زمناً وحيث لا شيء قديم ، وليس بالجديد أبداً ، الذي تتضاءل بوجوده العواطف الانسانية وتضعف ، ثم تزول نهائياً . ولم تفض التيارات الروحية الكونية العظيمة ، في اندفاعها الخلقي والروحي وقوتها المجيدة ، مثل هذا الدفق الغلاب المحسوس ، كما فعلت في هذه اللحظات من الهدوء الكوني ، وفي الامكانية النفسية المكبوتة .

لقد حدقت مدة عشرين ثانية ما مرت أبداً بمثل هذه السرعة المذهلة – ورسمت صورة أولية خلال ثلاثين ثانية أخرى للأشرطة الضوئية بلغة النثر على ورقة . ولقد كانت محاولتي كمحاولة وضع النظام الشمسي في قفص الطيور .

وأومض سهم كالإبرة من ضوء الشمس الحقيقي العائد الى العالم ، وارتفعت تلك التنهيدة الغريبة ثانية من الحشد الصامت في الشوارع عندما استراح من توتره ، كتقدمة أصيلة الى اللامتناهي . لقد انتهى الكسوف .

وأصر كل الاهلين على أن الكسوف قد سبقه « دخان كثيف » ، وهو مما لا شك فيه ظل القمر المندفع فوق المدينة البيضاء . ولكنه مناقض لدينهم أن

يتفحصوا أعمال الطبيعة ، حتى انهم عندما يسألون عن الكسوف ، فانهم سوف لا يعلقون تعليقات تفصيلية على مـا شاهدوا . ان لديهم خوفاً غريباً مـن أن يعظموا المخـلوق على الخالـق ، وان كل ما يقولونه عموماً هو « الله قـدير » و « أعماله مدهشة » وجمل خبرية أخرى لا جدال فيها على هذه الشاكلة . وكان الذين غامروا بالحديث عما رؤوا عدداً قليلاً جداً ، وهذا دون ان يخونوا أي عاطفة من عواطف الاعجاب والدهشة .

جميل هو الكسوف القصير ! ان ايماءته المؤملة بالاسرار الشمسية جعلت الهجوم في أي كسوف آخر اكثر تحديداً .

* * *

الفصل العشرون

سوق بيانورا

ان سوق الثلاثاء ، يعقد في فضاء مكشوف واسع ، وراء المدينة ، على طول الشاطىء العريض . ويظهر فيه ملخص لحياة المدينة المتنوعة تقريباً ، ومنتوجات الصناعة الاهلية بأسلوب بدائي . وتحتشد على الاطراف الحيوانات التي للبيع ، جماعات من الجمال ، ويبدو هنا وهناك جمل أبيض أو جمل صغير أو قطعان من الماعز والجداء ، والعجول والخراف والحمير والخيل الصغيرة ، وحزم الحلفا ، التي يأتي عن طريقها قسم كبير من دخل المدينة الحقيقي . انه ينمو برياً في التلال الحادة للكثبان العارية والواحات الخصبة ، دالاً بشكل عام على غياب النباتات الأخرى . إن احمالاً زنة كل منها مائتا وزنة تجلب في شباك كبيرة ، فتكاد الجمال تختفي تماما بأحمالها الخضراء .

وتقوم الخيام الصغيرة في ليلة ، مدينة بدوية اسبوعية في شارع وراء شارع احدها مخصص لباعة اللحم ، من منتجات حيوانات غير مالوفة بأشكال غير معروفة ، واحتلت الخضراوات الغريبة صفاً من الخيام،وكان من بينها المشمش والتوت ، وعرض في شارع آخر المرجان ، المصنع تصنيعاً خشناً للاستعمالات

أمٌ ... متلهفة

أغطية قش ... حماية للكسكسي الثمين

الأهلين . وقريباً من هنا كان الاسفنج الذي جمعه صيادو السمك اليونانيون . وكان يحتكر أحد الشوارع الصبيان والنساء الذين يضعون « أطباق » القش ، التي تنسج بطريقة غريبة من قطع من مادة ملونة تلويناً مبهجاً، كوقاء للكسكس الثمين من الغبار والحشرات ، وعرضت في جادة صغيرة أخرى قلانس للأطفال من قطن خشن ، زينت بصوف زاهٍ بأشكال مختلفة .

وكانت هناك عجوز تبيع نوعاً من المناديل ، ولديها اسطوانات واسعة من المرجان الأحمر ، ملتصقة عبر كل منخر من المنخرين .

وكانت الماعز الناعمة الشعر تقاد من قرن أو أذن ، وكانت الأبقار الصغيرة تحثُّ هنا وهناك ، وكان الناس والسلع والحيوانات متراصين الى درجة تجعل الحركة تقريباً غير ممكنة .

وكان يجتمع على الشاطىء الأبيض الواسع ما لا يقل عن عشرة آلاف من الاهلين، من أجل البيع والمبادلة في يوم الثلاثاء هذا. ويتخطر البدو ،المتكبرون والصامتون ، والذين كثيراً ما يكونون أغنياء ، ومع هـذا فهم يصرفون على معيشتهم اليومية أقل مما يصرف أفقر عامل أوروبي ، من أجل البحث عن صفقات . ولم تكن هنالك سلع لجذب الأجانب الموسرين ، ولكن أشياء يحتاجها الأهلون ويشترونها : وليس هنالك محاولات لمداجاة المشترين العابرين من الانجليز ، فلقد كان الاهتمام بالمقيمين المنوّعين فقط .

وكان يتلطف العربي ذو الملابس البيضاء المتوجه ليتزود من هنا ، ويعود الى بيته في بعض الواحات البعيدة في الصحراء ، على حصان أصيل أحياناً ، مغطى بالجلود المبهجة وزخارف من النحاس والفضة ، وثيابه تتطاير في الريح ، وقد امتدت بندقيته عشرة أقدام ، وكثيراً ، يمتطي مؤخرة حماره الصبور المحمل أيضاً بحاجات العائلة للاسبوع القادم .

وكانت تبدو احياناً ساعات الصباح الحارة على الرمال من أيام الثلاثاء هذه ، عند تأمل الماضي، الروح الحقيقية لسحر هذه المدينة البيضاء المتفرد، بكل ما فيها من حياة متعددة اللغات ، للقوافل وصيائغ الفضة وتاجر الخمر ، وبائع العاج ، وسوق الجمال وسوق السجاد . ان البحر الأبيض المتوسط ، هذا البحر المتلون ، المتكسر في تموجات رقيقة على الشاطىء الساطع، وبالقرب منه الجدران البيضاء والقبب والقلعة ، وعلى مقربة الجمال والخيل ، السلال والسجاد ، المرجان والفضة وحياة الآلاف الصاخبة -العرب الكاسو الرؤوس، والسود الحاسرون ، والأتراك المطربشون، لقد كانت طرابلس في جوهرها كل هذا، تحت السماء الافريقية الزرقاء المشتعلة. وكان رجل اسود بهي الطلعة جداً، محاطاً بجماعة مختلطة من الفزانيين، وقد أبقاهم في دهشة بحكاياته، حتى استرخت قبضاتهم ، وسقطت مشترياتهم في الرمال وهم متعلقون بكلماته كلمة فكلمة في توتر غير منقطع .

وجلست منبسطة على الشاطىء ، بعد بضعة أمتار زنجية عجوز ازدحمت اذناها وأنفها بما التصق بهـا من مرجان أحمر وصوف مختلط ، وكانت تستأثر كذلك بمتفرجين مأسورين .

وقد حملني صوتها أميالاً داخل الصحراء . وسمعت رياح الصحارى الكبرى تلعب حول رأسي ، والروح الجوهرية للفضاء تتفوه بحكمتها التي لا تدرك .

وكان انتشار الشعر الأحمر بين الزنجيات مفاجئاً نوعاً ما ، وتفسيره أكثر مدعاة للمفاجأة . ويبدو ، ألا شيء تخافـه تلك النسوة البسيطات كظهور الخطوط البيضاء بين الشعر الأسود ، ولدى اول إيعاز غامض باقتراب الشيب يلذن سريعاً إلى الاصباغ ، وهو سيلقون لامع ، هو الصباغ الوحيد الموجود على مـا يبدو . ومن ثم يكون التمازج المتكرر ولكن الغريب ، والأثر المفاجىء للوجوه العاجية التي يعلوها شعر برتقالي – قرمزي .

ويتفرق الحشد عنـد الظهيرة ، ويترك الشاطىء المكشوف مرة أخرى لنعومته البيضاء العارية ، ان الخيام قد مضت ، والحيوانات قد ركضت بعيداً ، وتفرقت القوميات ،ولقد توقفت مدة أسبوع واحدة من اكثر حوادث طرابلس بهاء .

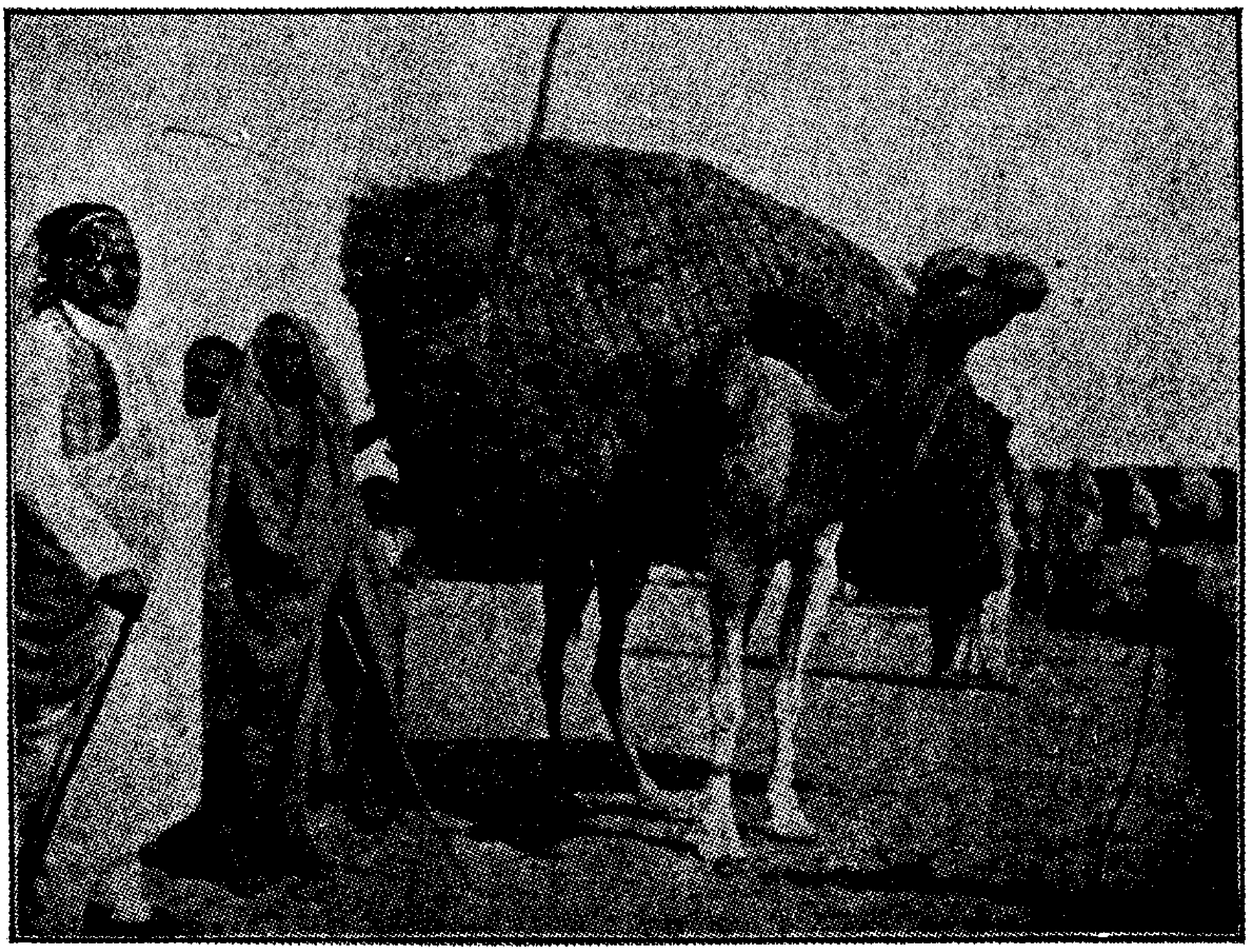

جمل محمل بنبات الحلفا

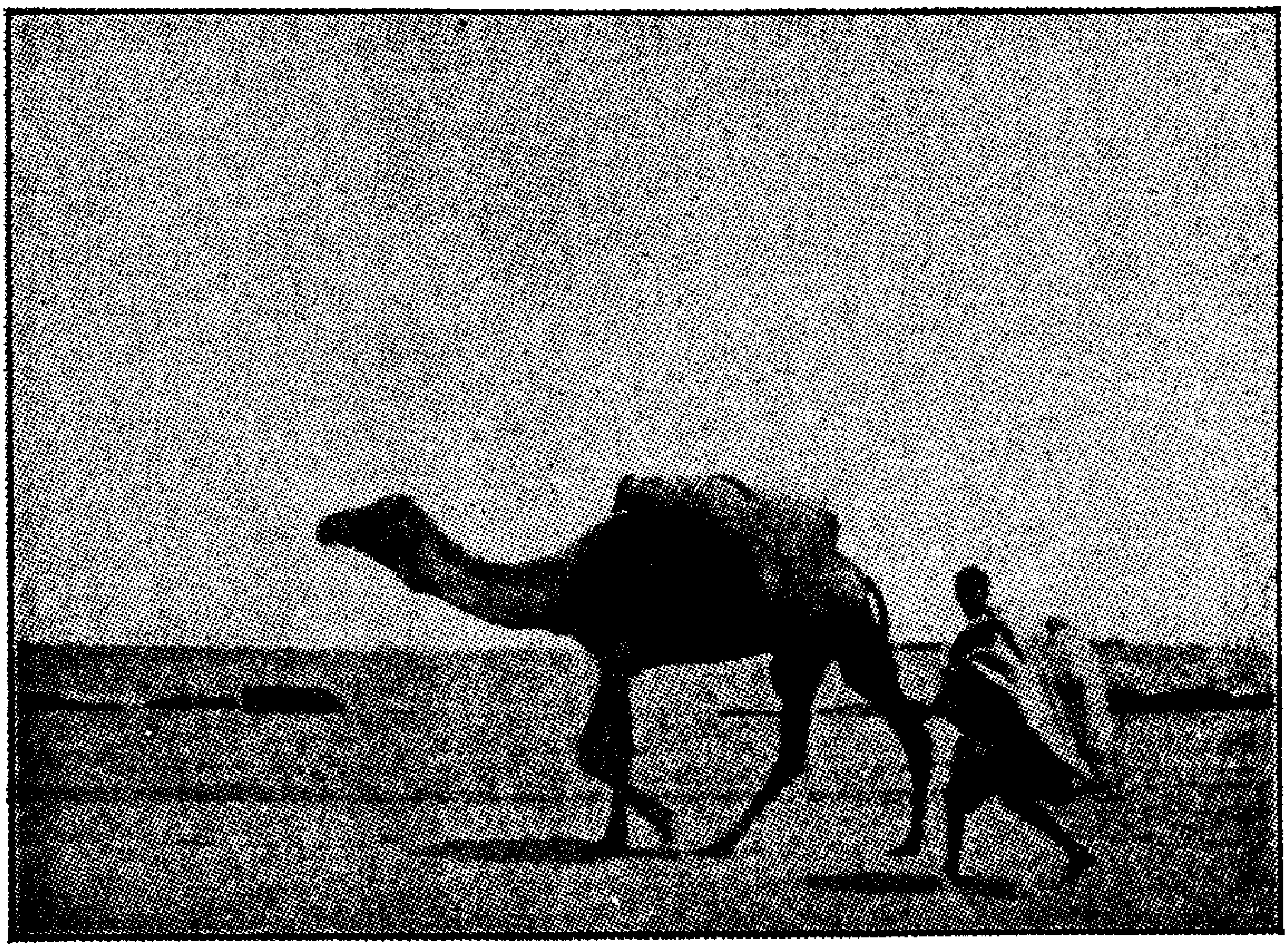

يتفرق الحشد عند الظهر

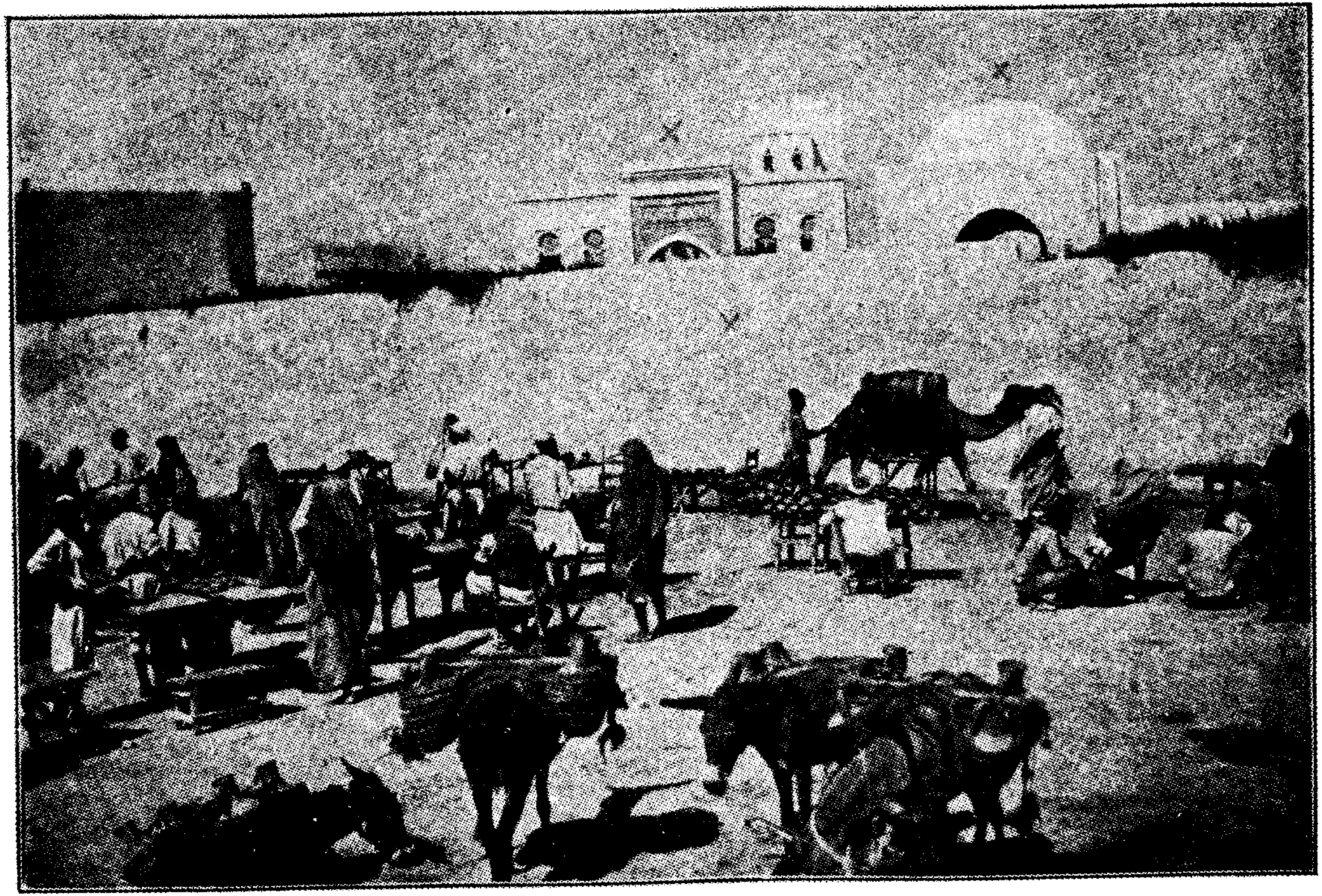

سوق الخبزة (ويظهر في الصورة : نادي الضباط وقبة سيدي حمودة وحائط مقبرة سيدي حمودة)

الفصل الحادي والعشرون

سوق الخبز والقوافل

لقد احتكرت طرابلس سنين عديدة تجارة القوافل تقريباً . ان المدينة هي مكة البحر الأبيض المتوسط ، لخطوط طويلة من الجمال المتدفقة من الصحراء ، التي تحمل العاج وغبار الذهب ، وريش النعام واللبان ،والشمع والجلود المدبوغة والحصر والحناء احياناً ، وتحتاج ثلاثة أو اربعة أشهر أو أكثر لسيرها البطيء. وهي إذ تعود ، على الأرجح ، قبل نهاية العام ، تبدأ رحلات التجارة الرئيسية من بلاد البربر الى الواحات الداخلية البعيدة ، حاملةً ، بدلاً مما جلبت ، منسوجات مانشستر والشاي والسكر . ويؤلف الطوارق المتعصبون موكباً غريباً ، ويحتاج وصوله كله إلى ساعات في الغالب ، بعد أن تظهر الجمال السريعة التي تسير في المقدمة؛ وتكون وجوه الطوارق مغطاة بالحجب والحوالي وترافقهم هوادج تحملها أحسن الجمال لإخفاء الجمال(المفترض) الذي يصحبهم ، وموسيقيّ الصحراء البرابرة .

ان الطوارق لم يغلبوا قط . انهم كلهم يعدون عشرين ألفاً ، وان أي غدر

أو أية فظاعة ، يوقعونها بالأجانب ، من ذوي المعتقد المسيحي المكروه ، هؤلاء المنكودين الذين يقعون في أيديهم ، لا يعد كبيراً بالنسبة لهم . وراقبت رجال القوافل ، الذين يحمل العديدون منهم ، بالاضافة الى بنادقهم الطويلة طولاً غير عادي ، وحتى الطوارق انفسهم ، سيوفاً صليبية ، الصليب مقبض لها ، كما رأيت العديد من الصبايا السمر من بعض القبائل اللواتي وشمت صلبان صغيرة زرقاء — سوداء بين حواجبهن ، وهي علامة عنصرية ابتعدت كثيراً عن أهميتها الأصلية ، وكل ذلك لا يفكر به هؤلاء المشايعون الموالون للنبي (صلعم) .

وتسلك القوافل الى السودان إما طريق فزان ، أو طريق غدامس ، وهي عملياً متساوية حتى واحة « مسده » جنوب جبال الفاريان ، حيث تتوقف القوافل احياناً في مسيرتها الطويلة. وفزان ارخبيل من الواحات ،جزر الصحراء هذه . وهي اكثر حرارة من طرابلس في طقسها ، ومن المفروض ان يكون فيها مائة ألف من السكان . والجمل هو الحيوان الداجن الرئيسي، مثل مناطق الشمال الافريقي الأخرى ، ولكن تربى بعض الثعالب والغزلان والآرام .

وقد أبقى التعصب والحقد وعدم التسامح الأوروبيين خارج واحة « غات» حيث لا يسمح إلاّ للمسلمين بالحياة هناك . انها ممر لصحراء طرابلس الغربية .

ويربى في زلّه وترسه النعام . وفيما وراء هذه النقطة ، فان الذين يقصدون السودان الغربي يتبعون الطريق الجنوبية الغربية إلى غدامس ، وثم الى بورني كوكا ، أو أمكنة على بحيرة تشاد عن الطريق الشرقية ، وهي أصعب كثيراً . وتعتبر الطريق بالنسبة لهؤلاء الذين ينطلقون من بنغازي خطرة جداً على الأوروبيين . ولكن طرابلس تبدو صلة الوصل الطبيعية بين أوروبا وإفريقيا . وكانت البضائع الأوروبية تختزن هنا في السنوات الماضية ، حتى يحل وقت سير القافلة إلى السودان ، كما كانت البضائع الافريقية تنتظر هنا لتنقل عبر المتوسط .

وكانت التجارة مع الداخل مستمرة ، وكانت ريش النعام وأنياب الفيلة والجلود ، وحتى الذهب ،تأتي بواسطة القوافل بكميات من بورني أوديا ، لتقايض بأقمشة مانشستر وأواني فينيسيا الزجاجية ، وبضائع من جنوب فرنسا .

ولا يسمع التجار الأغنياء الذين يرسلون السلع الى اعماق الصحراء شيئاً مدة أشهر ،واحيانا مدة سنوات عن مصيرها .وكانت الآمال تنتهي تكراراً،ولكن عندما تشاهد قافلة عائدة ، بجمالها المتعبة ورجالها الجياع العطاش الذي لوحتهم الشمس تخرج كل طرابلس إلى بواباتها . وكانت القافلة تقابل بنوع من الترحاب الفرح الذي يندر ان تقدمه المناطق الأكثر تمدناً لأبنائها الجوالين العائدين . وكان يرسل خمساية أو حتى ألف . والآن ، وعلى الرغم من ان طرابلس ما زالت نقطة انطلاق لمثل هذه الحملات ، فإنها أصغر وأقل تكراراً بكثير .

ومن الاحياء البهية في المدينة الميدان الذى يستخدم في ايام معينة كسوق للخبز ، حيث يقبع مئات من العرب كل النهار تحت « حواليهم » في ضوء الشمس اللاهب ، يحرسون أرغفة صفراء زاهية ذات تفاويف» فنية وان كانت غير صحية . وبالقرب من هذا المكان في زاوية ظليلة كانت تباع « الطواقي » [1] البيضاء التي تلبس تحت الطرابيش،ولقد ملأ الرجال والحيوانات الفضاءالمكشوف بحياة صاخبة ، ولكنها صامتة بشكل غريب .

وسيبقى سوق الخبزة هذا بالنسبة لي مرتبطاً بصباح لا ينسى .لقد شوهدت قافلة لأول مرة خلال أشهر ، وكانت قد بدأت تصل بعد عشرة شهور من الاجتياز المتعب لصحراء لا حدود لها تقريباً . وكانت الجمال تمشي ببطء ، ثقيلة ببالات محزومة بأمان — عاج ، غبار الذهب ، جلود وريش . وكانت على

---

١ — تسمى «طواقي» باللهجة العامية.

السروج سجاجيد زاهية واغطية ، وبعض اكياس السروج الجيدة ، ولكنها لم تكن غير هامة في شكلها ونوعها . ويقود البداة السمر الـذين يرتدون الثياب المتسخة ، ويحملون البنادق البالغة عشرة أقدام طولاً ، الجمال المتعبة عبرالميدان الذي طبخته الشمس . وسار مع الجماعة الصامتة المتفردة قـلة من الطوارق الحقيقيين،الذين شدت على وجوههم شداً محكماً حجبٌ سود ،والذين تدثروا بدثر سود أو بنيـة غامقة لا تشبه الحوالي .وفي اعتقادهم ان الحجب نفسها تكاد لا تؤمن حماية من النظرات الرجسة للمسيحيين المكروهين ، وهم يشيحون بوجوههم جانباً ، نتيجة مواقفهم المعبرة عن النفور الشديد والشراسة ، حتى لا تقع عليهم نظرة خلال عبورهم . وكانوا كلهم ذوي ثياب رثة ، أبعد مما يتصور ، وقذرين بشكل لا يصدق .

وتتألف القافلة من اكثر من مائتين وخمسين جملا ، واحد أو اثنان منهـا يحملان هوادج مغلقة إغلاقاً محكماً ، تركب فيهـا نساء محظيات في عزلة آمنة .

وبدا العرب والبدو حتى الطوارق منهمكين ومتعبين ، بينما امتد القطيع الداخل إلى الصحراء .

ولقد حدث مرة واحدة ، خلال أشهر أقامتنا في طرابلس ،ان بدأت قافلة كبيرة رحلتها من المدينة الى الجنوب البعيد . وجاء الخبر خـلال العشاء ، ان حوالي ثلاثمائة رجل وجمل كانوا على استعداد لتوهم للانطلاق . وحين أسرعنا الى « النخلات الثلاث » الشهيرات ، من حيث يبدأ الانطلاق ، وجدنا مشهداً عظيم الحيوية . وكانت جمال عديدة قد حملت لتوها ، وقيّدت في انتظار ابتداء الرحلة . وكانت الأكياس ما زالت تغطي الأرض ، كما كان الكثير من الحيوانات منحنياً ليتسلم الأحمال . وراقبنا القائد ، وهو جمل سبّاق ، عليه سرج مـن سروج الطوارق العالية ، بنوع من الحذر ، وان كان باهتمام مبهم ، مراقبـة

وجاء الخبر ... ان حوالي ثلاثمائة رجل وجمل كانوا جاهزين لبدء الرحلة .

ما زالت الأحمال تغطي الأراضي

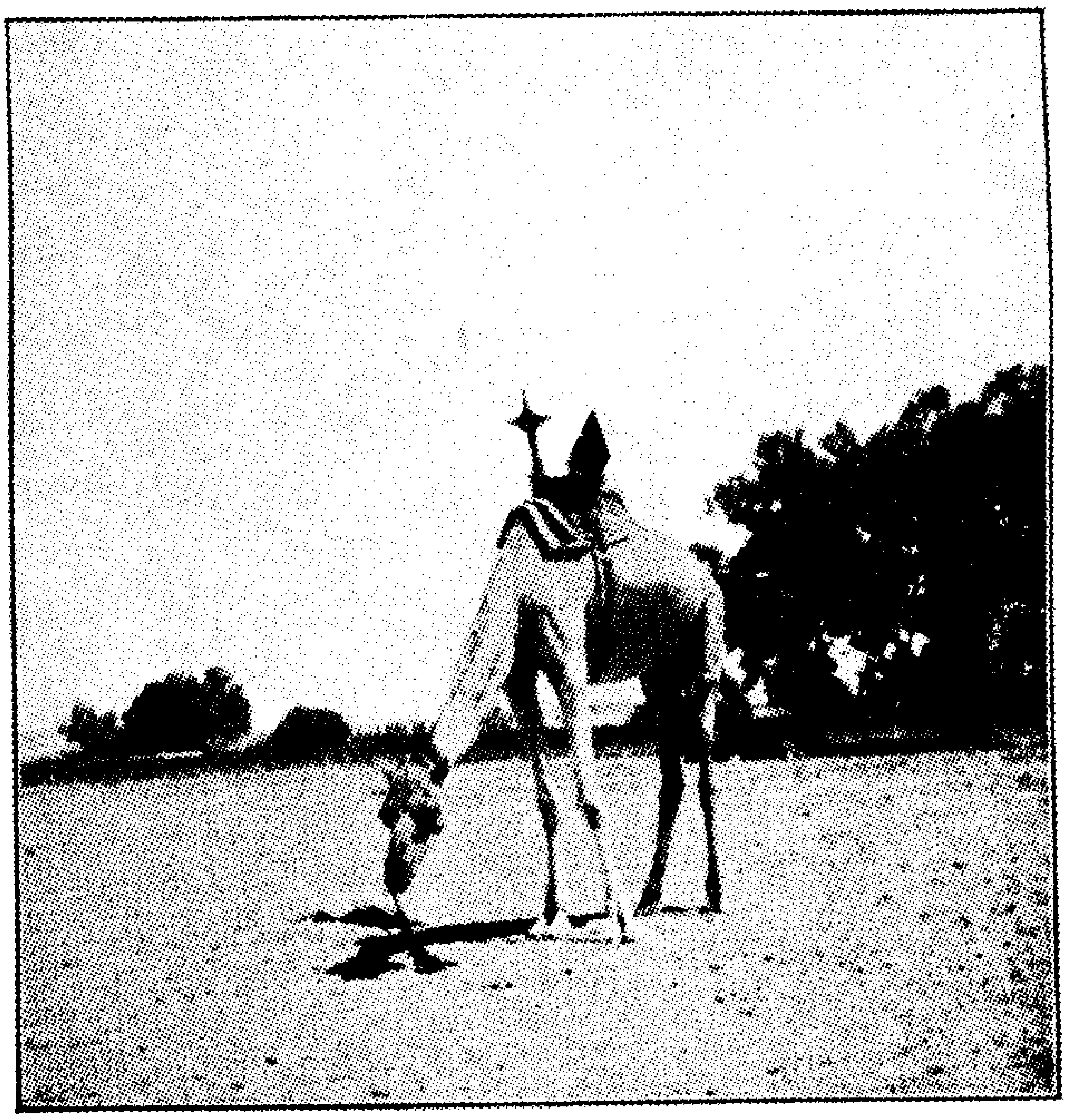

القائد : جمل سباق بسرج من سروج الطوارق العالية

ذكية . اخذت بعض الصور، وهي عملية لم تكن سارة كثيراً للعرب المشغولين بشكل واضح . وقد ظللنا عدة ساعات بالجوار ، يسحرنا المشهد الغريب .

وبدأ السير حوالي الخامسة ، مع ان الجميع لم يكونوا جاهزين بعـــد ، اربعون أو خمسون جملاً مع أصحابها بـــدأت السير سيراً بطيئاً من المدينة ، لقطع المرحلة القصيرة الأولى من رحلتهم الكبيرة . ويقـــام مخيم تلك الليلة قريباً، لينضم كل المتأخرين إلى الجماعة الرئيسية، وفي اليوم التالي ستترك الوحدة، أو القافلة الراحة ورائها لأشهر من التعب .

* * *

الفصل الثاني والعشرون

الموسيقى والموسيقيون

تتميز موسيقى طرابلس المحلية بصفة منومة غريبة . وتستعمل آلات مختلفة بسيطة . فالقرَب في أيــدي السودانيين ، والشبابات ، والصنوج ، والآلات الوترية ، وغناء الشوارع ، ورواية القصص والأغاني السحرية التي تقدمها زنجيات في حفلات الزواج العربية ، كل هذه لها تأثير خاص من الصعب جداً تحليله . وقد حمل اللحن الجنائزي المنبعث من باحة مجاورة ، خلال ليلة كاملة ، نواح يأس بدا ألا مهرب منه . وكانت الفرقـــة التركية العسكرية تعزف أغلب الموسيقى المسلية ، التي كانت تنتهي دائماً بطلب البركة للسلطان . ولكن هذا كان مشوقاً لا مرعباً .

وعندما تكون ، في بعض الأحيان في الفجر ، الأسطح والمآذن بيضـــاء باهرة ، مقابل السماء الزرقاء ، التي ترسل نورها الدافق على بطون الأوديـــة المغلفة بقشرة بيضاء ، مستلقية في لون رمادي معتم ، يمر رجال غرباء قادمون من الصحراء ، يطلقون أنغاماً ساحرة . وكان احدهم وهو طويلاً جداً ، واكثر

قربة منفوخة بفم بدائي

سواداً من الأغلبية ، يرتدي حلة قصيرة جداً ودون الرقبة ، وذات كمين قصيرين وكأنها تنورة ، ويعزف ألحاناً بطريقة بسيطة غير معروفة للغرب ، وكانت خطواته المتباعدة مليئة بعزة النفس المروعة تقريباً . وقد حاولتُ مرة أو مرتين أن أسجل هذه الألحان برموزنا الموسيقية الخاصة المألوفة ، ولكنه كان سهلاً كتسجيل الرياح أو امواج الشاطىء المتكسرة على الرمال . وتشبه الآلة مزمار القربة الاسكوتلندي شبهاً قليلاً ، وهي مزينة بأسماط من الصوف والخرز – انها جلدمنتفخ بفم بدائي ،وفي الطرف المقابل منه نتوءان حادان يشبهان القرنين. ولقد أمسك هذين القرنين بكلتا يديه ، وكأنه ماضٍ إلى إله الرياح الياباني ، وأخذ يثير بالتناوب ، كلما عنّ له ، الاعاصير والزوابع أو النسائم فقط التي لها من القوة ما ينثر تويجات أزهار الكرز عن أغصانها ، إذا لم يعترض عنصر مضحك وجه ابن الصحراء المقطب القاسي ، الشامخ بأفكار الآلهة والأقدار السامية . ويضرب صديقه على طبل صغير غريب ، ويغني ما بين الحين والآخر أغنية مجمدة للدم . ويكاد تحويل هذا الغناء إلى الرموز الموسيقية المألوفة لا يكون أسهل من تحويل النغم البكائي للمزمار ذي القربة ، ومع هذا فإن النغم كان مميزاً وثابتاً ، وهو كالآتي ، على قدر ما تستطيع الرموز أن تعبّر عنه :

انه مقام ماجور (Major) بوضوح ، ولكنه اختلط اختلاطاً منسجماً مع أنين الآلة ، وهو ليس (Major) قطعياً .

وهب الأطفال السود ، عندما نفذ النغم الى مخيلتهم وتمكن منها ، يقفزون ويصرخون ويرقصون مثل المخلوقات المتوحشة ، وقد اثارتهم الموسيقى الآسرة بشكل غريب . ويمر هؤلاء الرجال الغامضون عموماً قرب شروق الشمس ، ويذهبون في الليل ، وتحدث مثل هذه التمثيلية السحرية مرة أو مرتين حوالي الساعة الثانية صباحاً. ويسير هؤلاء الشعراء المتجولون بخفة مميزة دائماً، مجتهدين من أجل قضاء الأعمال التي في أيديهم . وان الإصغاء طويلاً لهذه الألحان الصوفية لا بدّ من ان يكون له أثر ملموس . وعلى المرء في الواقع ان يمارس ضبطاً نفسياً واضحاً ، حتى لا يسير وراء هذه الاصوات المغرية ، مهما يكن ما ترمز اليه .

وتكاد لا تكون أقل الحافاً عجوز تعزف على جمبية ، تشبه البزق غير المطوّر ، وتغني بصوت عالٍ مضطرب لا يتعب ، كلماته تبدو مشحونة بمعانٍ مأساوية ، تذكّرُ بقصص أعماق الصحراء المخيفة . وهي تغني ساعات ، وقد وقفت أمام حائط ابيض ، بينما يرتفع التين الشوكي عالياً فوق رأسها مقابل السماء الزرقاء ، يحيط بها متفرجون مسحورون يزدادون بالتدريج كلما قاربت بلوغ النهاية . ويبدو ان من الحرف المفضلة لدى الافريقيين ترتيل القصص الى دائرة من المستمعين .

إن فيها اكثر من مجرد الصوت . فلقد حملتني هذه القصص الملحنة تلحيناً رتيباً الى اعماق الصحراء . وشعرتُ ان الرياح الطليقة تهب في وجهي ، حين حملني الجمل النجيب السباق الى مشاهد غريبة فوق الرمال المغمورة بضوء القمر .

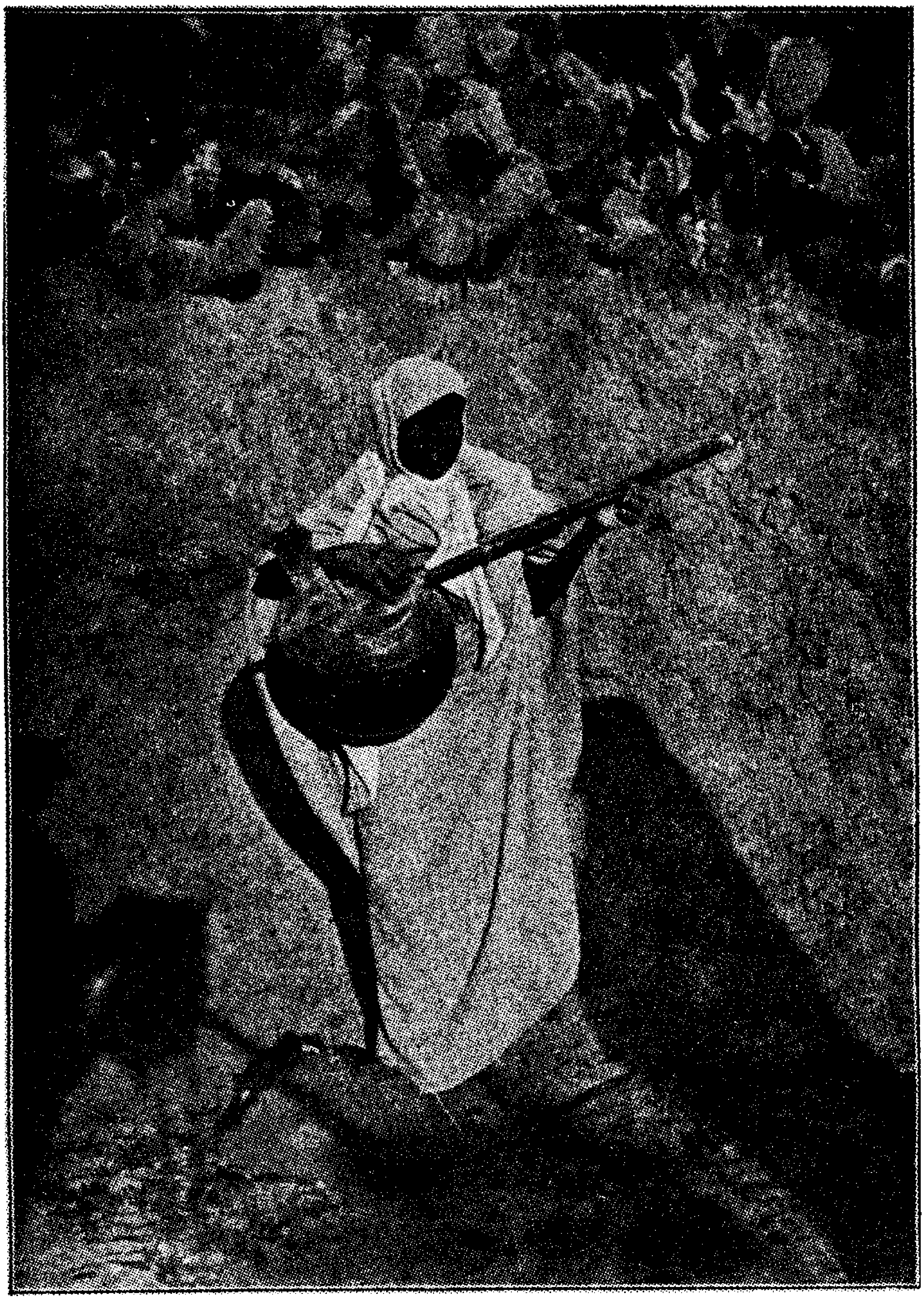

وتقف أمـــام الجدران البيضاء

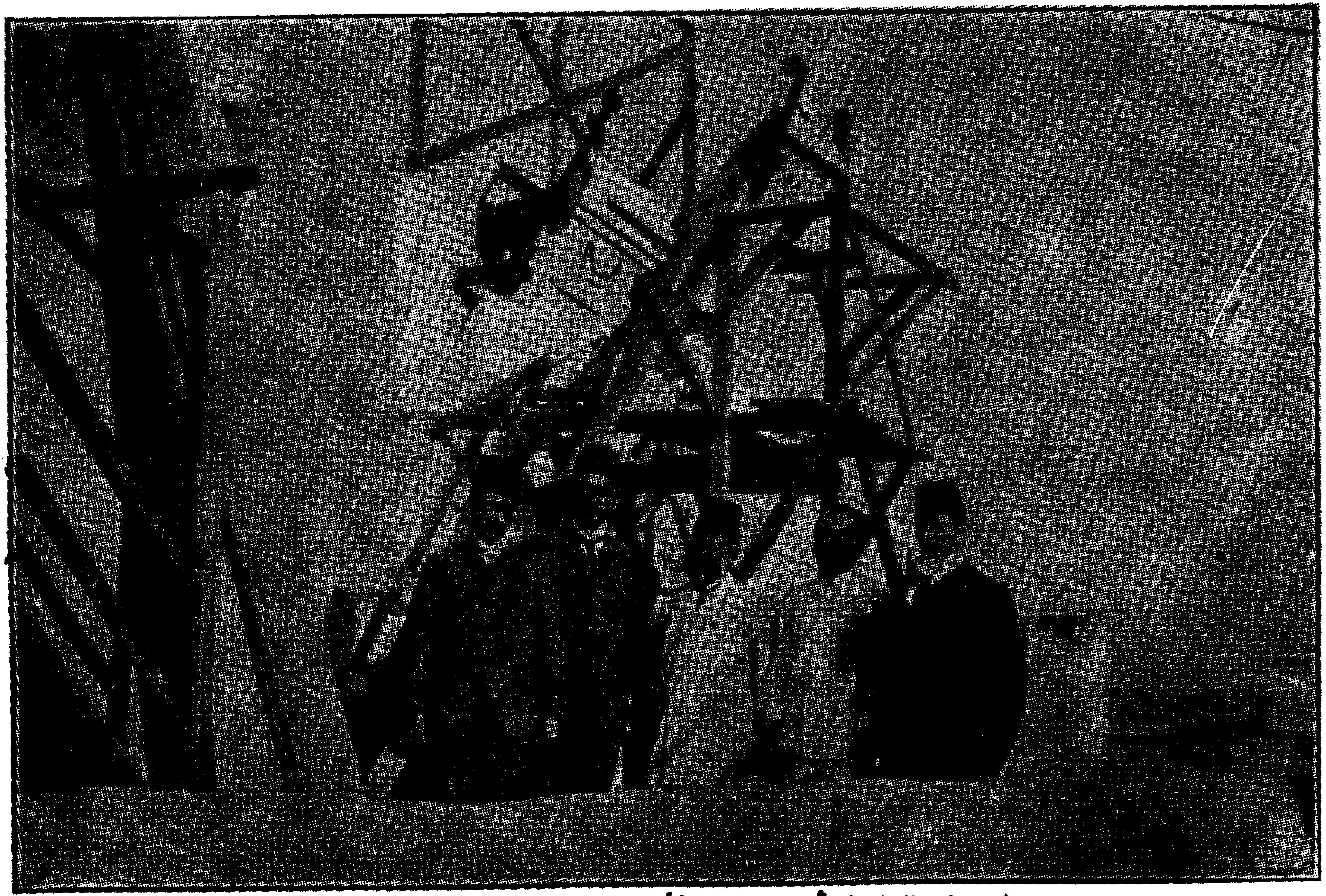

واعترف الباشا بأنه مهتم جداً بالنواظير (العدسات المكبرة)
(رجب باشا في الوسط)

الفصل الثالث والعشرون

المنفيون الأتراك وآخرون

كان رشيد باشا ، حاكماً لطرابلس ، وهو رجل ذو ذكاء شديـــد ، مهتم اهتماماً عميقاً بالكسوف المقبل ، حتى انه قدم قلعته ، وهي أقـدم قلعة ، مقراً للنواظير وآلات التصوير ، ومركزاً لقيادة الحملة . وقد زارنا مراراً في القنصلية ، متحرياً عن التقدم في الأجهزة المتزايدة ، ومعبراً عن تأكده من أن الله سيهب سماوات صافية في اليوم الموعود . وكان أقرب الضباط إلى الباشا رجالاً باعثـين على السرور ، ومهذبين تماماً ، يتكلمون عدة لغات ، وقد جعلوا إقامتنا لا تنسى بطرق مختلفة .

وكانت زياراته الرسمية ، خـلال زيارتنا السابقة ، مع بطانته وكثير مـن الذهب والمجـد في اليوم الرابع والعشرين من ايار (مايو) يوم عيـــد ميلاد الملكة .

وكانت زيارته سنة ١٩٠٥ رسمية . وقد صف كل القواسين المتأنقين في صفين لاستقباله ، ورفع العلم البريطاني ، ولاقاه القنصل العام والفلكي في البهو . رافقه

ثلاثة ضباط متألقين ، يرتدون طرابيش حمراء ولباساً اوروبياً كاملاً . وبعد تناول المرطبات ، وتبادل المجاملات اللازمة اعترف الباشا بأنه محب للاطلاع بعمق على التلسكوبات ، وعلى الطريقة التي يصنعها الفلكي لملاحظة الكسوف بها . وتقدم بعدئذ مع بطانته الى سطح الشرفة حيث كان علمنا الامريكي الصغير خفاقاً ، وتفحص بتمعن كل الأجهزة . وقال انه يسرّه إذا ما صورناه وضباطه مع الفلكي ،وهذا ما تم بسرور .

وقد جعلنا الباشا الطيب تحت حمايته تماماً . وكان الناس يقفون وظهورهم الى الجدران ليشاهدونا، يوماً بعد يوم ، بحراسة واحد من الضباط الامبراطوريين بعد الآخر في عربات مختلفة : مرة أو مرتين بثلاثة جياد بيضاء ، جنباً الى جنب ، تشق طريقها بصعوبة عبر الشوارع المزدحمة .

ولما كانت طرابلس نوعاً من المستعمرة للمشبوهين السياسيين ، فان عدداً كبيراً منهم عاش في المدينة البيضاء ، جالبين معهم جو القسطنطينية الحقيقي ، الأناقة ورغد العيش اللذين لا يستطيع النفي ان يخفيهما . وكان من هؤلاء ف . بيك ، وهو شاب جميل ، قريب من الباشا في القلعة ، ذو ثروة كبيرة وعائلة راقية ، وقد كان ما زال يحاول ان يعرف السبب لنفيه . وقد وجد نفسه فجأة في طرابلس ، ممنوعاً من العودة « في الوقت الحاضر » ، وهو لا يعلم انه فكر أو قال ، ودون ذلك كثيراً انه عمل ، أي شيء معادٍ للسلطان . ارسل في طلب أمه وأخته ، وهما امرأتان انيقتان ذواتا شأن ، اللتين كنا نجد في مجتمعيهما ، في بيتهما المنعزل ، ولكنه الغني بتجهيزاته ، اعظم السرور . كان هذا ، على كل حال قبل حركة « تركيا الفتاة » ، خلال حكم عبد الحميد الثاني . وقد تبعت عودة صديقنا الى منازله السابقة مجيء افكار اكثر تحرراً .

وكان هنالك كثير من المنفيين الآخرين المثيرين للاهتمام الذين عوقبوا بالابعاد

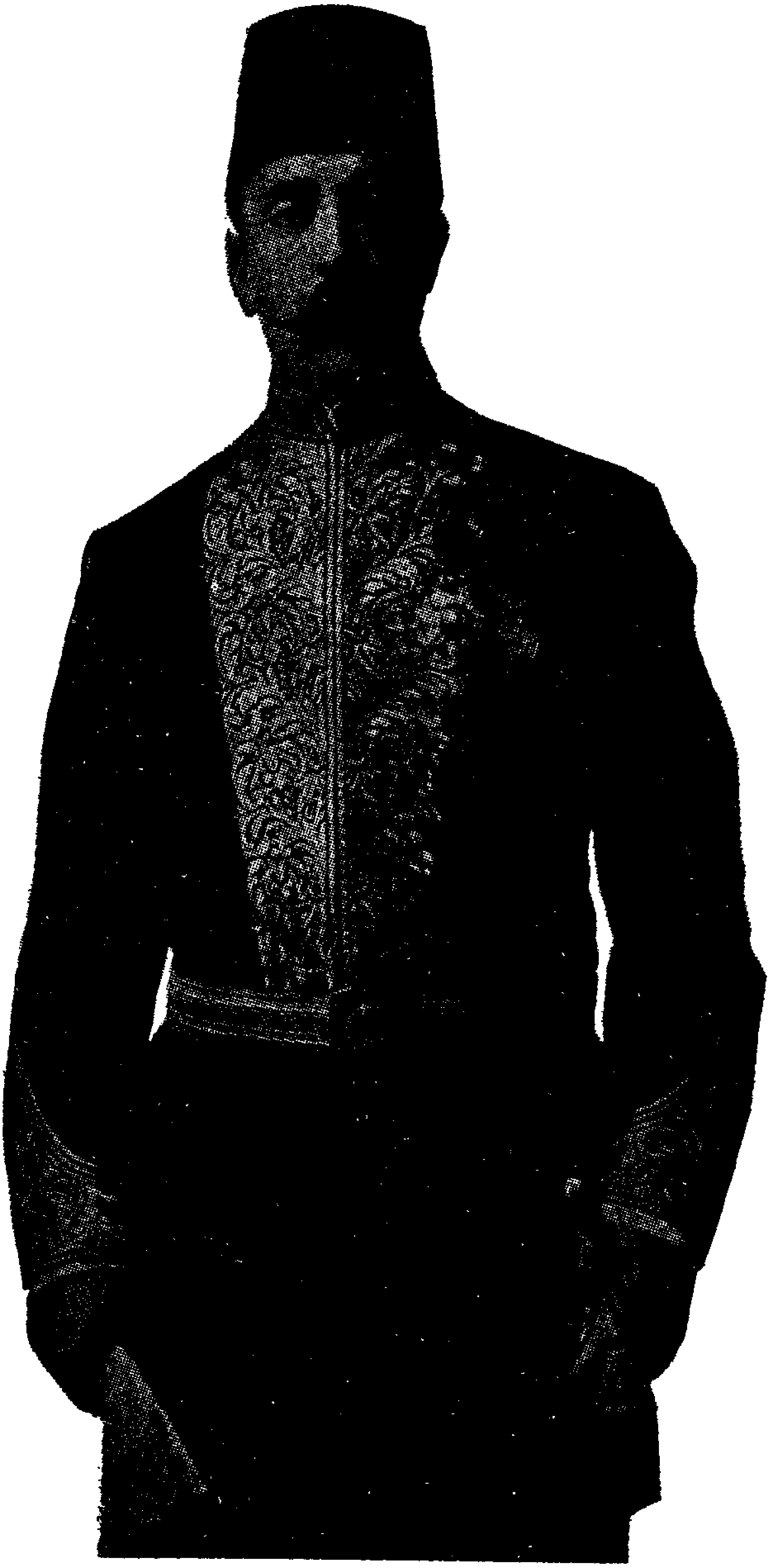

واحد من هؤلاء ... كان ما زال يسعى ليعرف لماذا نفي

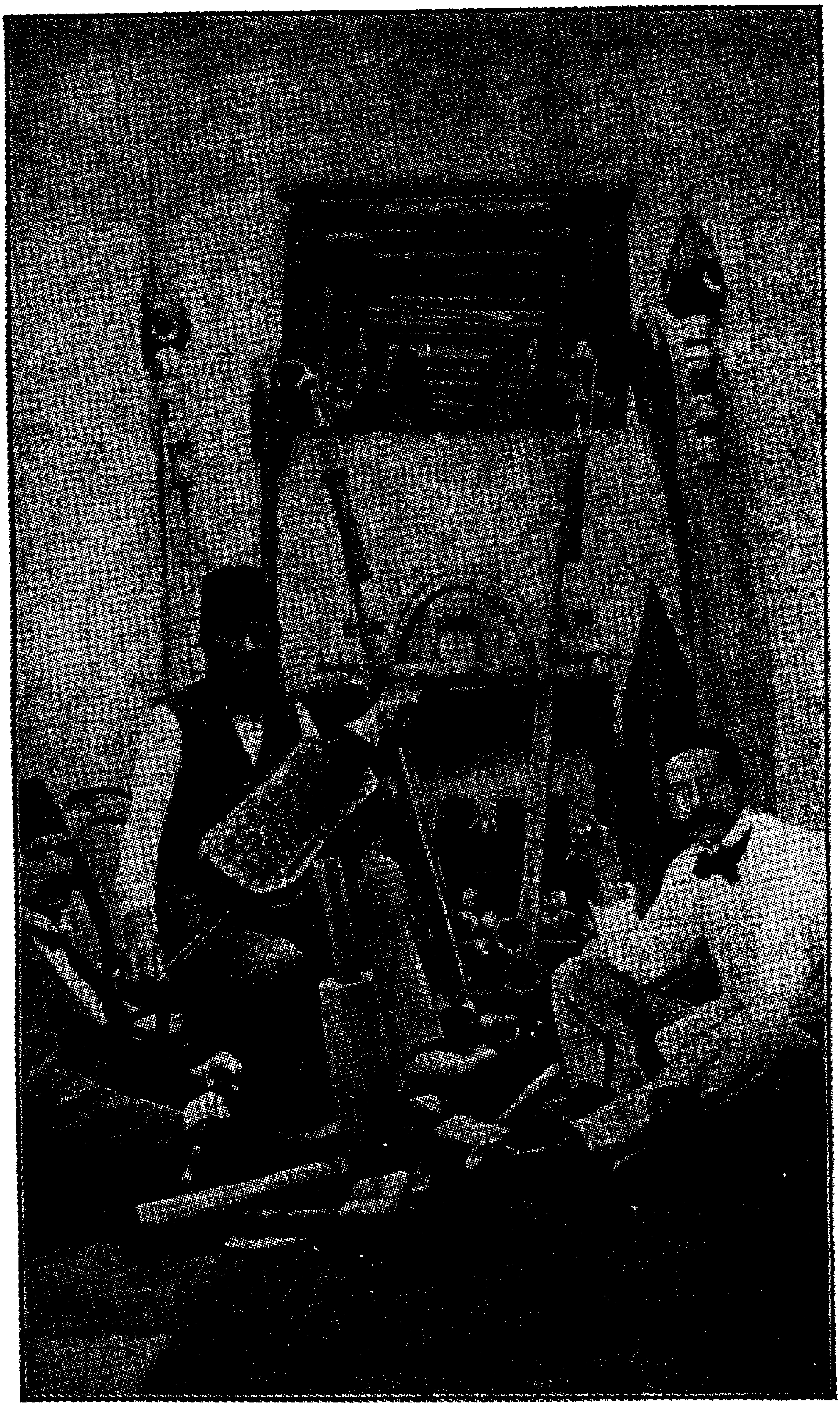

بيته الفوضوي
احد المنفيين الأتراك ، واسمه ادهم بك . وكان محل سكناه شارع الاستقلال حالياً بالقرب من الكنيسة ومركز البوليس

من القسطنطينية لأنهم لم يعرفوا أية إساءة مختلقة ، أو جريمة مظنون بهـــا . ولكن ولاءهم للسلطان بدا غير مهزوز ، وكان أملهم اليومي في العودة شجياً لا يزول .

وكان ادهم بك العجوز خاصة ، الذي لا يتكلم الا التركية ، ممنوعاً مـــن العودة لأنه « يعرف كثيراً جداً » ، وقد أصبح صديقاً حميماً ، يدعونا دائماً الى بيته الفوضوي، المليء بالتحف، والصور والآلات الموسيقية، والبنادق والمسدسات وآلات التصوير ، ومخترعـــات من كل العالم – وحتى سيارة لا تسير ، وكان لا يمكن ان تسير في شوارع طرابلس غير الواضحة المعالم ، حتى لو كانت لها إرادة السير .

وكان يزورنا مراراً كهنة يهود مطلعون يتكلمون ويكتبون العبرية فقط ، ويقصون علينا حكايات كثيرة ذات فائدة كبيرة واهمية عن المنطقة وتاريخها .

ويقبع في المرسى دائماً عدد من سفن الحرب الايطاليـة أو الفرنسية أو الانجليزية ، بينهما سفينة تركية من المفترض انها صالحة للملاحة الى درجة كافية للخروج من الميناء فقط إذا كان الهرب ضرورياً ، هذه السفينة التي على رحابها الفسيحة كان يقدم ضباطها ضيافة سارة .

ولما كنتُ السيدة الأولى التي تدعى الى ظهرها ، شعرت بشرف هذا الوضع عندما جاء كبير الضباط وقائد القلعة إلينا بواسطة القارب . ولما كانت تقوم بالتجديف سواعد تركية قوية ، بلغنا بسرعة الطراد الخشبي القديم ، تخفق العلم ذو النجمة والهلال بكبرياء على سفينتنا . وقابلنا القائـــد على السقالة . وكان البحارة كلهم واقفين على استعداد ، عندما صعدنا الى ظهر السفينة، وقد قدمت القهوة والحلويات والسجاير في الحال على مؤخرتها النظيفة الطلقة . وقدم المزيد من المرطبات فيما بعد في حجرة القائد المفتوحة للهواء . واضافت مدافع السفينة

التي يحتمل ان تكون في المظهر اشرس منها في العمل ، الكثير للنتيجة التزيينية .

وكان هنالك سفينة يونانية هي كريت ، وهي سفينة حديثة في كل تجهيزاتها، تهتم خاصة بأمور الذين يغوصون على الاسفنج وبمصالحهم ، وقد احضرت عدداً من الضباط الشباب الأذكياء جداً ،والمحببين جداً، الذين كانوا يحتفلون بالضيوف على ظهر السفينة احتفالاً انيقاً جداً ، والذين قدموا لنا مساعدة ذات قيمة في ملاحظاتنا للكسوف .

لم تتميز كريت بشيء قديم او صديء : لقد كانت سفينة جميلة نظيفة حديثة جداً . وكانت تقدم فيها وجبات غداء شهية ؛ ومن بين حلويات اخرى كان معجون التين اليوناني المختلف تماماً عن « راحات لكم » التركي، ولكنه يشبهه بعض الشبه في نكهته .

ان القنصل العام لبريطانيا العظمى ونائبه ، ورئيس دائرة البرق ، وواحداً او اثنين من رجال الاعمال ، ومن المسؤولين عن تصدير الريش والعاج والحلفا الى بريطانيا ، وطبيباً انجليزياً متمرناً من اطباء الارساليات ، وقنصلي فرنسا وايطاليا ؛ ان هؤلاء الاصدقاء مع عائلاتهم لفتوا انتباهنا الى كل ناحية غريبة وهامة في المنطقة ، وعلمونا كيف نستفيد من الوقت والمواسم الى الحد الاقصى، ونتيجة تجربة الاقامة الطويلة قدموا مساعدة لا توصف في دراستنا لكل هذه البيئات الغريبة .

واني لأتذكر الكثير من دعوات العشاء التي اقيمت في ابهاء تطل على مساحات جميلة ؟ حيث اشعت المصابيح المظللة من خلال النخيل وعرائش العنب وملأت القطرات المتساقطة من « النوافير » الهواء الحار ، وحيث يظهر ويختفي الخدم العرب الخفاف الوطء ذوو الجلابيب البيضاء ، وكأنهم القدر الحبيب يقيناً ودقة .

لقد بقيت المدينة راكدة على ضوء مغزى التقدم العالمي ، ولكن سحرها ، الذي لا يترجم وان كان مؤثراً ، لا يمكن ان يقاوم ابداً .

الفصل الرابع والعشرون

المساجد

يمكن أن ترى من شرفة اي سطح في طرابلس دزينة من المآذن وعدداً من القبب . لقد كانت مدينة بـــلاد البربر الجميلة البيضاء إسلامية حتى العظم ، متعصبة ، صالحة مكرمة . ويُطـــلُّ المؤذنون المجلببون ، إطلالة ايمان كما في القسطنطينية نفسها ، خمس مرات في النهار من على ابراجهم المرتفعة ، داعـين المؤمنين الى الصلاة بألحان مختلفة ، من حركتين أو ثلاث حركات .

وهي خاصة من خواص كثير من الاجناس المختلفة . ويرتفع في المناسبات ، وكأنما ذلك حدث صدفة ، صوت ثالث رئيسي ذو مفعول غـــير متوقع . ان طبيعة النغم نفاذة على انفراد ، ولكنها غير موسيقية عموماً . وتختلف الانغام ، فبينما يكون احدهما ساحراً بخشوعه المؤثر ، يكرر آخر دائماً عـدة مرات .

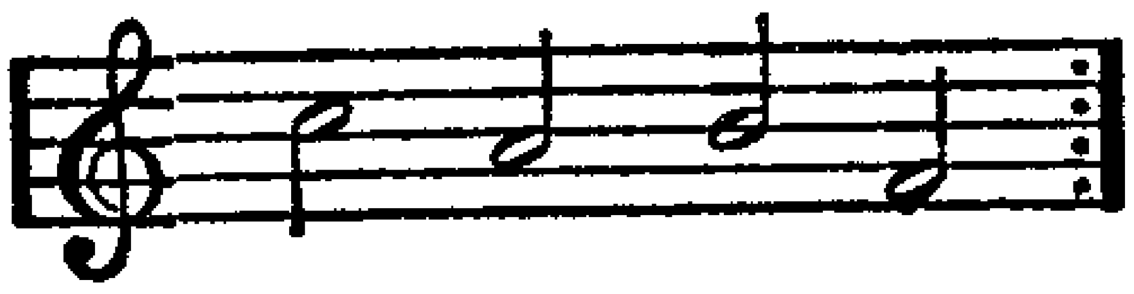

ويردد مؤذن ثالث دون انقطاع .

وكانت المساجد حتى قدومنا ، خلافاً لتلك التي في الجزائر ، لم تدنسها اقدام كافر قط . لقد كانت مسدودة جيّداً في وجوه النصارى . وكنت غالباً ما استرق النظرات ، قبل دخول المصلين ، على القسم الداخلي المظلم ولكن الجميل ، الذي يتميز بخرير الماء الجاري الضعيف ، من خلال الباب الأخضر المزخرف ، المقابل للقوس الروماني . وعلى كل حال ، فإنه لم يوفر النفوذ الكافي للسماح لنا بدخول الأماكن المقدسة ، حتى قضينا اسابيع عديدة في المدينة ، وعندئذ قادنا رئيس أدلاء القنصلية البريطانية ، القواص والمترجم ، وهو عربي مهيب ، ولكنه لطيف ، وواحد من مسؤولي المسجد المبجلين جداً . وكان غالباً ما يلبس لباساً بهياً ، وهو حقاً رجل ملكي في مظهره . وقد تألق مفتنا في الوشي الاصفر والذهب مع حولي حريري ابيض يوم عيد ميلاد الملكة سنة ١٩٠٠ ، عندما قام المسؤولون الأتراك بزيارتهم الرسمية لمثل جلالتها . وفي وقت متأخر من ذلك النهار لبس رداء قرمزياً مطرزاً بالذهب . ولكن عندما رافقناه في تلك المناسبة ، الى مسجده الكبير ذي السبع قبب ، كان يرتدي حولي العبادة البسيط فقط .

ولقد لاحظت ، أول ما لاحظت ، في المحراب المحرم ، سجادتين تركيتين

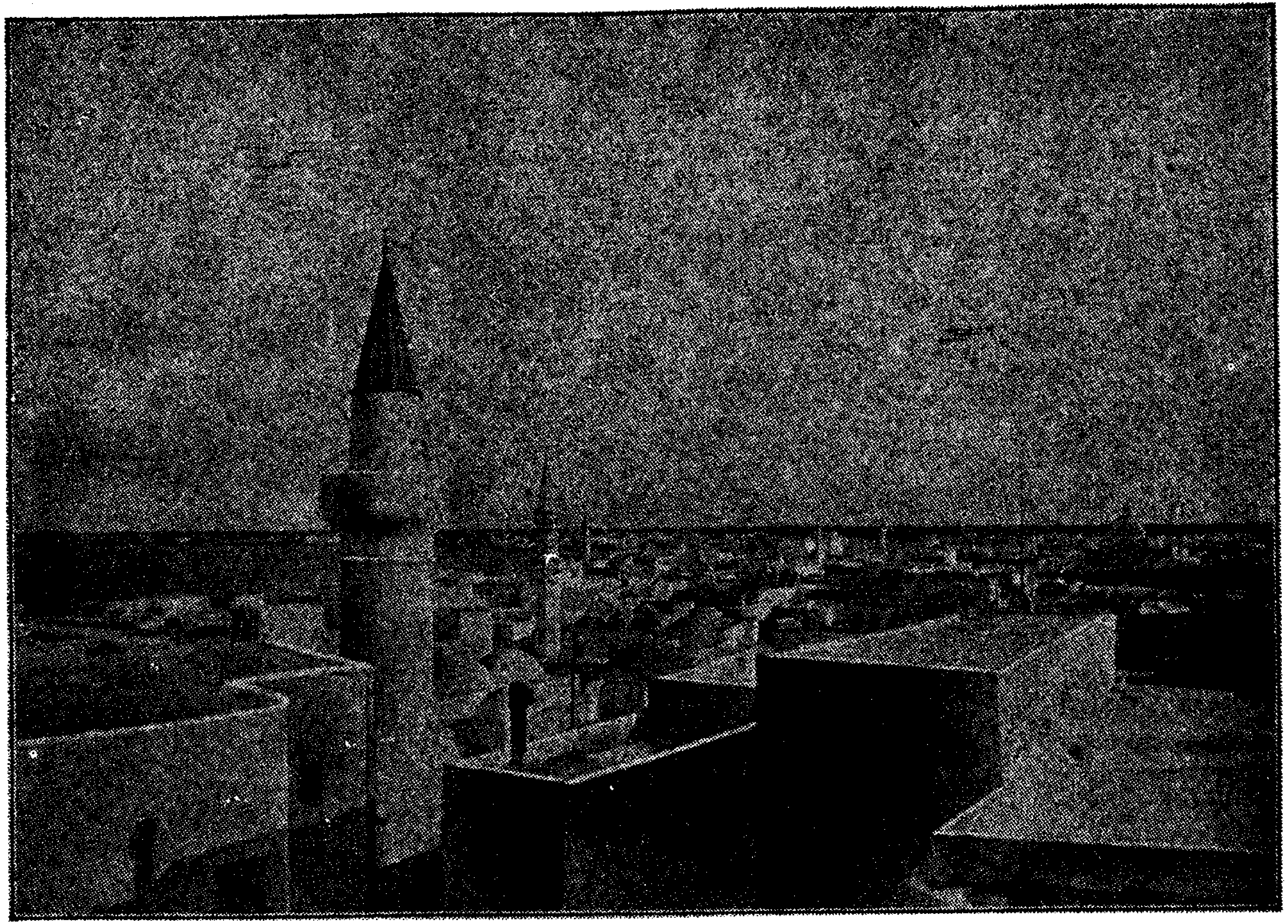

يمكن ان ترى دزينة من المآذن من على سطح بيتي

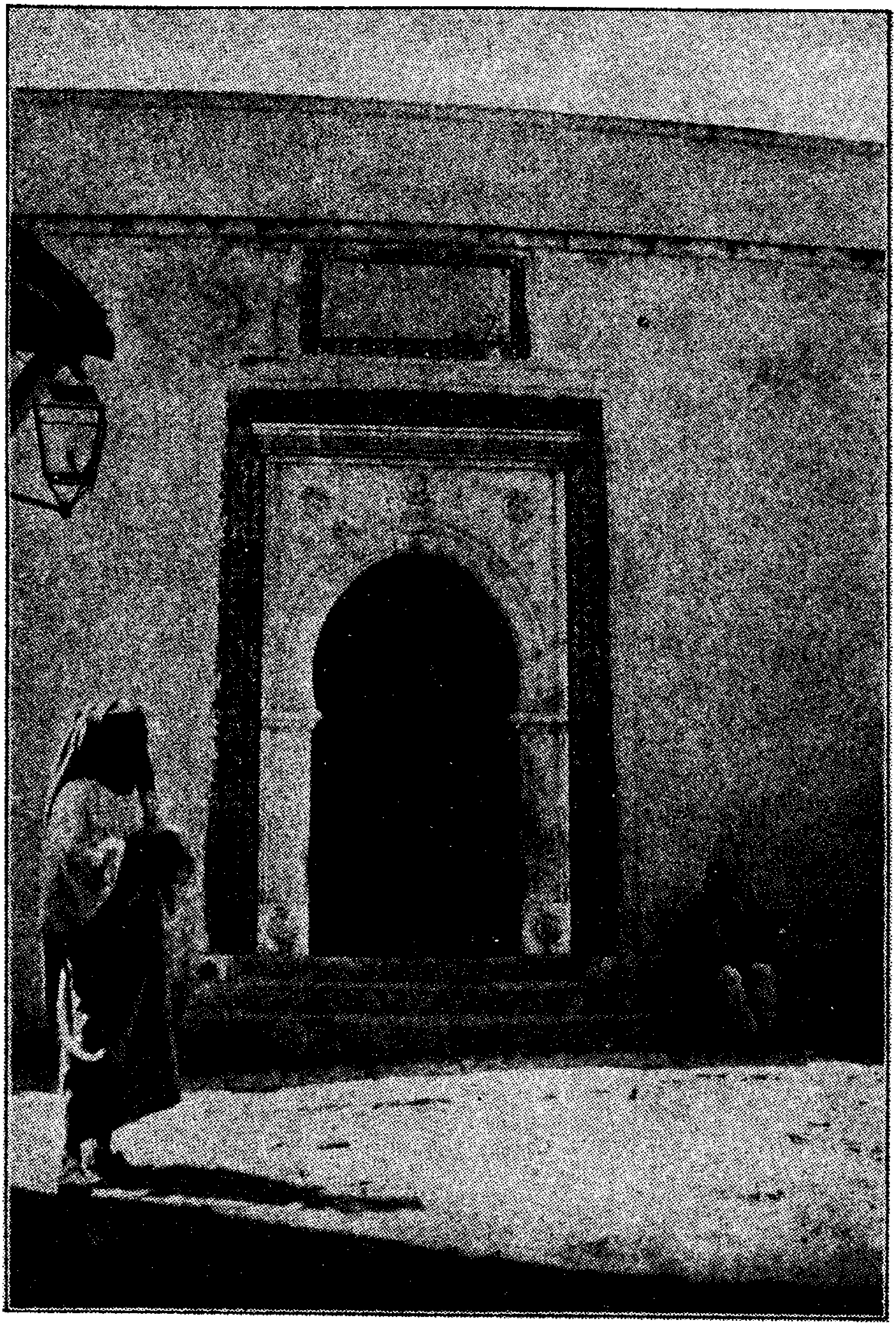

جالس أمام المسجد يطلب الحسنات

كبيرتين ، عمرهما مئات السنين ، تغطيان الارض ، ما عدا فرجة ضيقة فيما بينهما حيث خلع عدد من المؤمنين احذيتهم . وتتكور كل من القبب فوق البهو الواسع كاشفة عن أشكال مرمرية أنيقة، دقتها في مثل دقة الزينات المخرمة في قصر الحمراء، وهي ملونة تلويناً حياً ولكنه فني ، وتشكل آيات من القرآن مختلفة افريزاً في قواعدها . وتتدلى مصابيح فضية مشبكة من السقف ، ومنبر من المرمر، يتم الوصول اليه بقفزة طويلة الدرجات ، بابها من المرمر ايضاً ، ويرتفع إلى جانبه في اتجاه مكة ، بناء مشابه ولكنه اقل زخرفة ، يظهر على الجدار المقابل ، حيث يجلس مقرىء مساعد يلعب بعض الدور في خدمات يوم الجمعة .

ان الصوت السار للماء الجاري ، وهي ظاهرة خاصة بالمساجد الاسلامية ، يُرحب بها ترحيباً خاصاً في هذه الارض الجافة التي طبختها الشمس ، يملأ البناء بتمتمة لطيفة . دخل بعض المسلمين الأتقياء ، وبعد أن قاموا بالصلاة انسحبوا بهدوء . وهو وان كان لا يختلف أساساً ، الا بقببه العديدة، عن المساجد القديمة في الجزائر ، المفتوحة للزوار من قبل ، فقد كان ذا أهمية اكبر لانه لم يُسمح بدخوله قط لغير المؤمنين ، ولم يكن هنالك أي ايحاء ذي أثر في اي عين بالنسبة لتقدير السياحة .

وقد سمح لنا زيادة في المجاملة ، بصعود المئذنة النحيلة الخضراء والبيضاء ، من حيث جعلنا المؤذن المعمم نألف تجويده غير المنغم دائماً . وكان بيت الدرج ضيقاً جداً ، فيه صف من الطاقات ذات المصابيح الصغيرة الملأى بالزيت ، حتى انني خلال الصعود ، كنت مجبرة على حمل قبعتي ، وحياتي تقريباً في يدي .

وحصلنا من القمة على منظر مؤثر كثيراً ، كنا فوق المدينة البيضاء ، والبحر اللازوردي والصحراء الصفراء بحاشيتها النخيلية .

وكان المشاهدون المهتمون قد صعدوا على شرفات الأسطحة، يتطلعون إلى أعلى

على المنظر غير العادي للكفار الذين استكنوا على قمة القداسة ، ولكن الجميع بدوا ودودين وداً كبيراً ، ولم يجر الايعاز بأن علينا النزول حتى اقترب موعد أذان الصلاة .

وعندما مررنا عبر المسجد الكبير كان اغبش من غبش العشية ، وكان قلة من المؤمنين مكبين على وجوههم ، بينما امتلأ الشارع الضيق في الخارج بالحمير والماعز والباعة والجمال وبجنسيات مختلفة بدت عالماً مختلفاً .

ولكن هذه لم تكن تجربتنا الوحيدة مع المقدسات المغلقة ، وبالتالي غير المدنسة . فقد زرنا أمكنة أخرى ، بعد خمس سنوات بدعوة من الباشا ، الذي ارسل في حراستنا عدداً من الضباط المهيبين ، الذين يحملون سيوفاً طوالاً ، كانت قبلاً اعظم ما لم يمس ، من هذه الأماكن المقدسة ، وصعدنا الى قمة مئذنة اخرى مرتفعة . وخطونا الى الداخل ، مثيرين دهشة مرافقينا وعدم موافقتهم فنزعنا احذيتنا كما يفعل المرء في معبد بوذي في اليابان، وحدقنا في السقف العالي. وكان أحد الحراس في مسجد قد غفا بسلام في موقعه ، فأيقظه احد مرافقينا الأتراك بضربات متعددة موجهة جيّداً من غمد سيفه ، لم تكن بالضرورة مؤلمة إلا لكرامته ، ولكنها فعّالة الى الحد الأقصى لإنهاء مثل هذه الغفوات التي ليست في وقتها نهاية مفاجئة .

وهنالك واحد من المساجد التي تستحق الانتباه ، وهو مسجد حامد باشا ، قرب بوابة « فم الباب » . وقد عرف باسم المسجد القرمنلي الكبير ، وهو ذو مئذنة ثمانيّة الشكل جميلة . ان اعمدته الفخمة من المرمر ، والجدران حتى افريز الآيات القرآنية مكونة من البلاط ، الذي يجتمع فيه الاخضر الخفيف والاصفر مع قليل من الازرق . وزيّن السقف تزييناً عظيماً ، وكانت بوابات الادراج الملبسة بالمرمر ثقيلة جداً ، وكان تصميمها جيداً .

وعلى كل جانب من جوانب المحراب المجاور للمنبر ، حيث يصلي الإمام

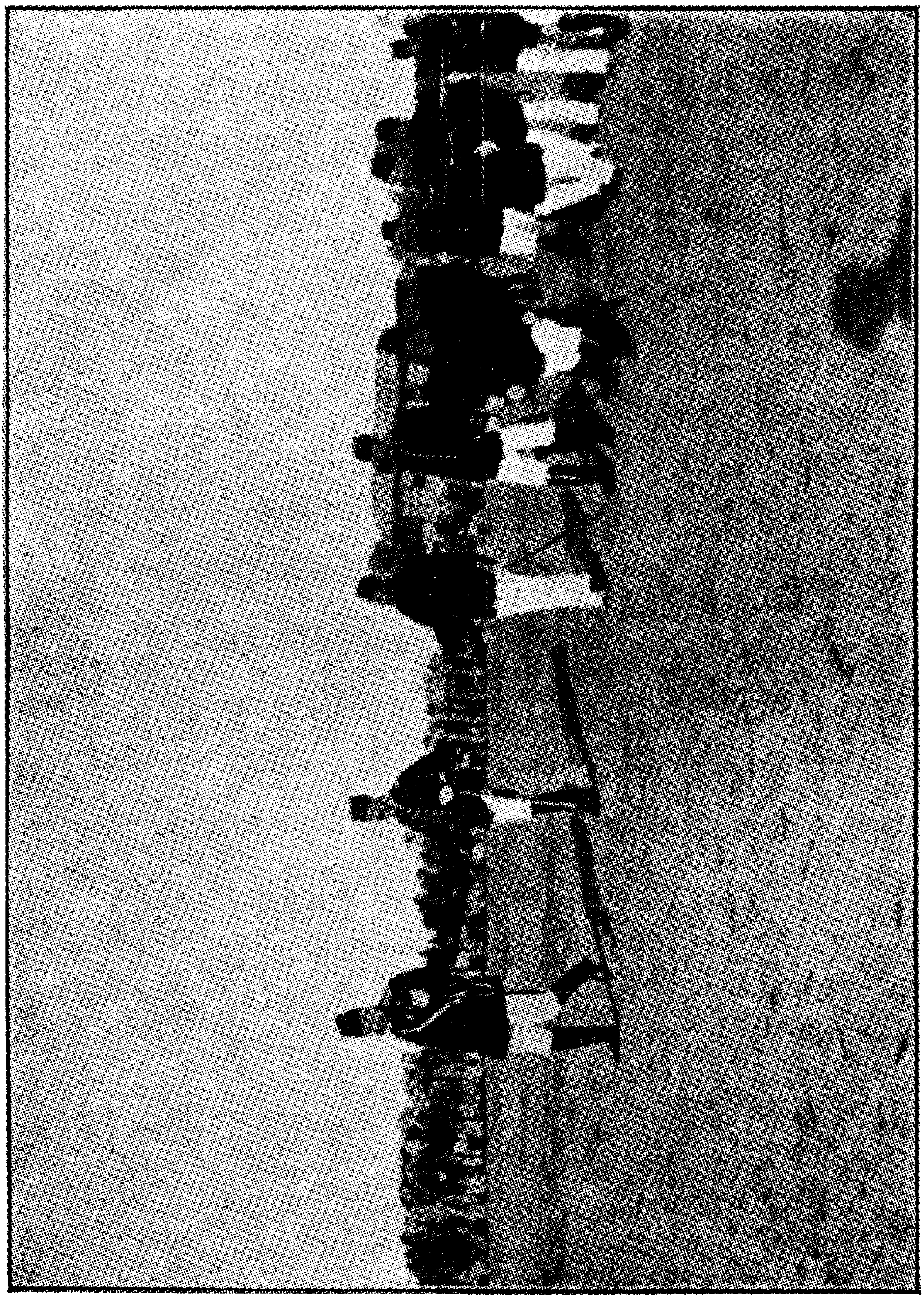

ضباط عديدون بسيوف طويلة
(رجب باشا وحاشيته)

عندما يكون المؤذن على المئذنة يدعو للصلاة ، شمعدانات نحـــاسية ضخمة ، وراءها رسم مطرز طويل. ولا بد ان يتوجه الإمام الى مكة دائماً عندما يُصلي في هذا المحراب .

وهنالك حظيرة فسيحة في احدى الزوايا، ارضها مغطاة بالسجاد، يستخدمها بعض الاساتذة مكاناً لتدريس مجموعة من الشباب، ولكنها كانت اساساً لمجلس الباشا يوم الجمعة . ولكل المساجد مثل هذه المظاهر .

ويقال بأن سيدي دراغوت يحتوي على بعض مخلفات النبي (صلعم) . ان فيه اجمل مئذنة ، ثمانيـــة الشكل مرتفعة ، ذات شرفتين ، وهي تشرف على المسجد الذي زرناه من قبل ، مسجد الحاج مصطفى قـرجي ذي السبع عشرة قبة ، الواقع قرب القنصلية البريطانية . وكانت المئذنـــة المستديرة الجميلة ، القريبة ايضاً ، مئذنة مسجد سيدي سالم . ولما كانت ارادة الباشا قانوناً فقـد زرنا ستة مساجد او سبعة ، وكانت كلها ذات سمات جميلة ومؤثرة . وكان في احدها حاجز منحوت لإيواء العدد القليل من النساء اللواتي يسمح لهن بالحضور وهذا حق منح حديثاً . ولقد كان المسلمون مخلصين جداً في اعتقاداتهم الدينية وممارستهم ، وكان « مفتي » العجوز الذي يعمل في القنصلية نموذجاً جميلاً ونبيلاً للعرب العقلاء الأتقياء .

ويعتقد بعض المطلعين على تاريخ الأديان ان العرب من الجنس السامي ، وان عبادة الأصنام لم تكن في زمن محمد، الا حديثة عهد بينهم. وكان لبعض المصلحين ، حتى قبل محمد ، افكار مماثلة . ومن هؤلاء كان اربعة من المفكرين معاصرين له . واذا كان محمد اكثر هؤلاء القادة إثارة للاهتمام ، فان شخصيته وسيرته لم تكن لتعصو على الشرح . وكان اليهود منتشرين في كل مكان ، وكان عهده لهم مستمراً . وقد رأى ميزة ان يكون له كتاب مقدس ، وسعى للتحالف معهم ، ولكنه لم يكن راغباً في تبني كتابهم أساساً لدين جديد . الا" انه كان يقتبس

باستمرار منهم للقرآن ، وخاصة من التلمود ، ويكشف أثره الكامل عن أثر الزروسترية . وهو ربما شعر بضرورة اجراء تنازلات لعبادة الأصنام القائمة ، كما يظهر من الحجر الاسود في الكعبة بمكة . وكان محمد بلا شك مؤمناً عموماً ، مثلما هم اتباعه اليوم . وان التوجه المستمر الى مكة ، والتبتل التام للوجوه المهيبة ، تصبح مؤثرة جداً ، لأن العقل ، لتوقف كل الأعمال مؤقتاً وفي وقت واحد ، كان يتجه من هذا العالم الى عالم آخر .

الفصل الخامس والعشرون

مراسيم دفن الموتى

وكانت الجنازات تعبر الشارع تكراراً بخفة وصمت . ولقد مرّ اكثر من ثلاثين رجلاً يرتدون اللباس الأبيض ، في بعد ظهر أحد الأيام ، يرتلون مرة وأخرى ببطء وإجلال :

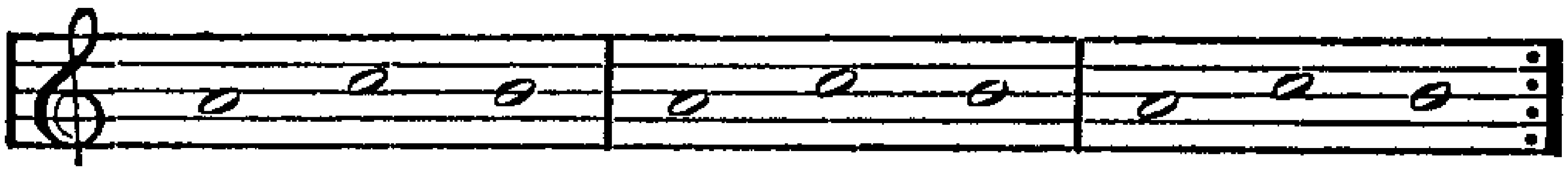

حمل اثنان منهم نعشاً مرفوعاً فوق رؤوسهم ، يلفه حرير جميل زاهٍ مخطط عليه سترتان أو ثلاث بلا أكمام من المخمل المطرز بالذهب . وسار وراءهم مباشرة رجل يحمل على رأسه نعشاً صغيراً مغطى بالحرير . وكانت تتبعهم ثلاث نساء مسلمات ، تلفهن الحوالي لفاً محكماً ، وقد كشفت كل منهن عن عين سوداء واحدة، ليست زاهية كالعادة . وكانت التلاوة الغريبة البطيئة والموكب السريع مؤثرين تأثيراً غريباً .

وهنالك قبتان على الرأس ، ظاهرتان عند دخول الميناء ، افترض طويلاً انهما قبور الباشوات القرمنليين ، ولكن الأبحاث الأخيرة اثبت ان سلطانة معينة ، اساءت السلوك في القسطنطينية فنفيت الى طرابلس . وقد طلبت ، إذ بلغ منها الحنين مبلغاً اصبحت معه مريضة حقاً ، ان تدفن إذا ماتت على ذاك الشاطىء البعيد ، في أرض تطل ما أمكن على القسطنطينية التي تحبها . إن لها قبراً واحداً ، أما القبر الآخر فقد يكون قبر باشا من عائلة القرمنلي .

لا بُدَّ أن هاتين القبتين قد كانتا جميلتين وغنيتين في زينتهما . وما زال يبدو في سقوفهما زخرفة مشجرة أنيقة من الجص المغربي ، المخرم تخريما أصيلاً وجميلاً .

ان أيدي التخريب قد حطمت وسرقت ، وجدعت ، حتى لم تبقَ إلا إشارات . ولقد ازالت الجماعات البربرية الأبواب ، وكل شيء آخر تمكن إزالته ، وقد حطمت النوافذ ، وحولت الحجارة والبلاط إلى قطع . وأتمت عناصر الطبيعة التخريب .

وتحتل المقبرة العربية المجاورة رأساً جبلية تمتد في البحر ،تغسلها أمواج البحر الأبيض المتوسط الهادئة .

وتقع على بعد قليل من هذا المكان المقبرة الانجليزية في شارع الشط ، التي كانت دارة أحد أصدقائنا الانجليز مجاورة لها . وتشع قلعة الباشا عبر الخليج ، وعلى طول الشاطىء الجميل . وانه لمن الصعب تصور هذه العمارات حين حوّلت للاستعمالات المعاصرة .

ووقفت بعد ظهر أحد الأيام الذي أتذكره جيداً القباب والمآذن في طرابلس مقابل الغروب وكأنها مدينة سحرية من مدن الأحلام وكنت أحاول في تخيلاتي أن أعيد إنشاء الزينة الأصلية الجميلة في سقف قبة القرمنلي ، وان اعود

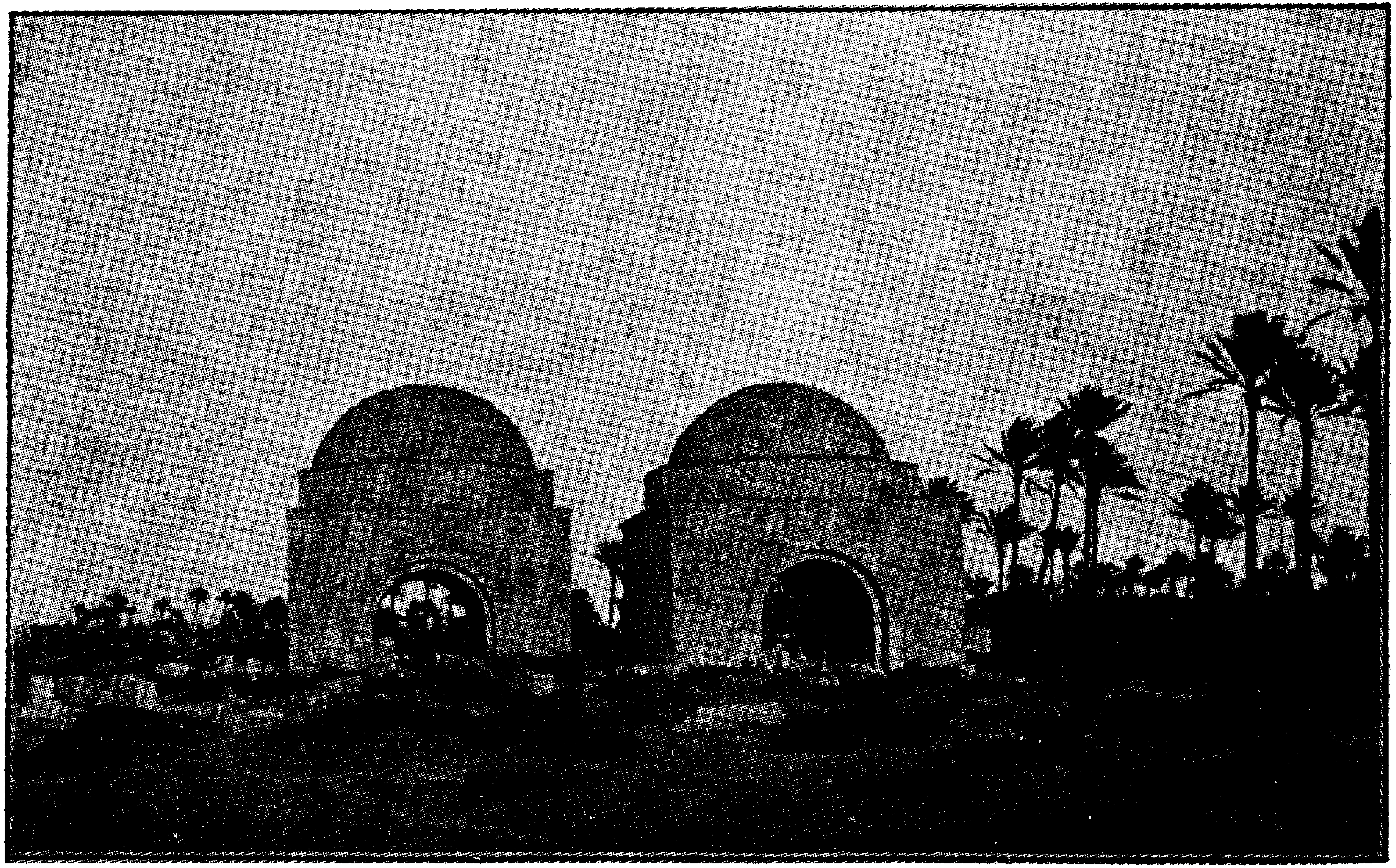

قبتان تبدوان عند دخول الميناء
(قبتا مقبرة القرهمانلي)

في الحديقة ، شارع الشط

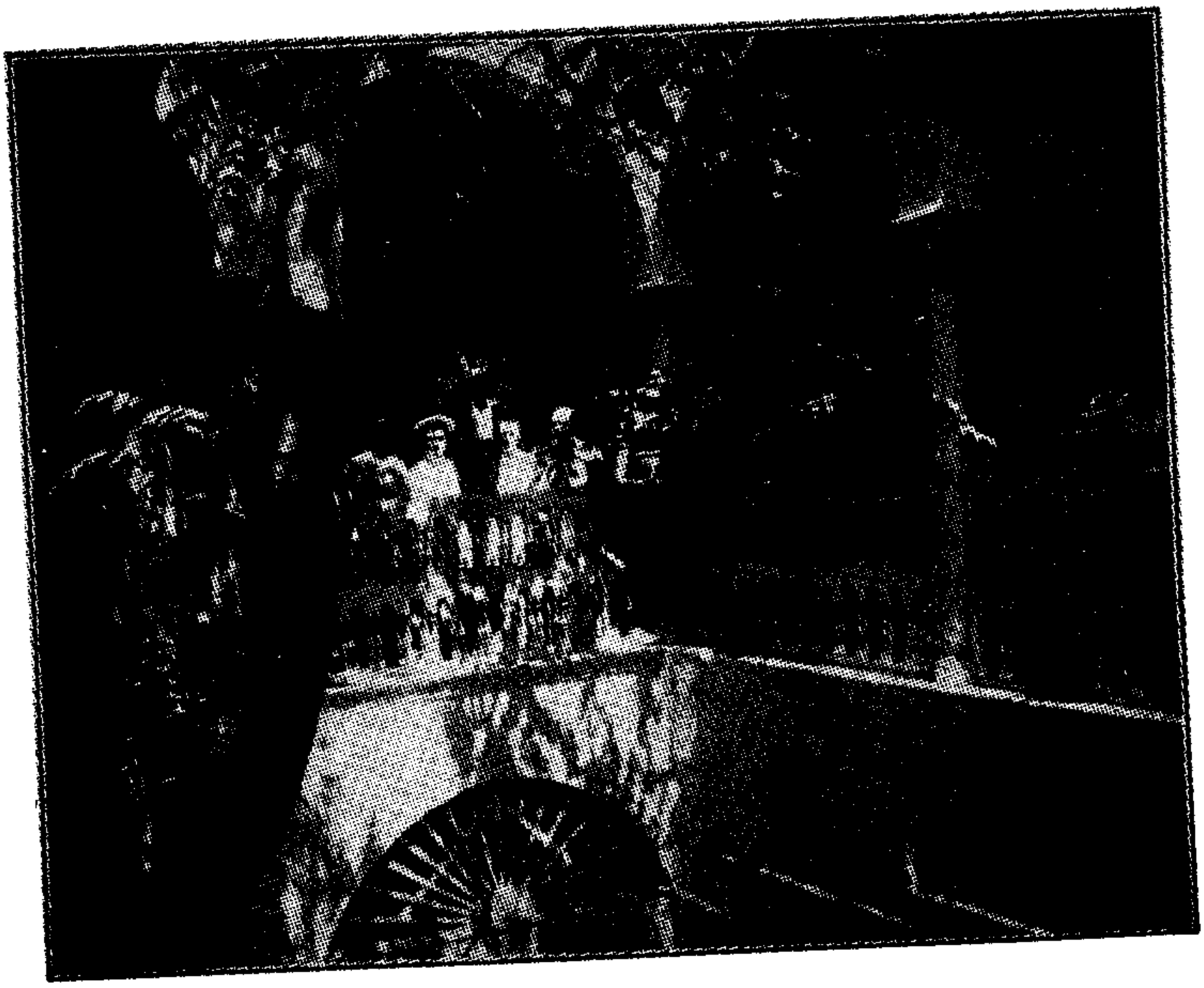

على الشرفة

الوراء متابعة القصة الطويلة جداً في الماضي السحيق .

وحفر قبر لامرأة عجوز ، على الطريقة التقليدية ، لا يزيد عمقه عن ثماني عشرة بوصة . وظهرت الجنازة بعد دقائق قليلة . وكان يقود موكب الرجال والنساء ذوي الملابس البيضاء عبر الطريق الرملية رجل أعمى أنيق الملبس ، وكان يحمل النعش إثنان كالعادة ، وكان الجميع ينشدون معا ، بسرعة هذه المرة ، ويرددون باستمرار :

وقد توقفوا مدة خمس دقائق في زاوية إحدى البنايات ، بينما كانت تتلى آيات القرآن ،وستّر الجميع رؤوسهم تماماً بدلاً من ان يحسروا الرؤوس احتراماً ولكنهم خلعوا احذيتهم . وفي القبر القليل العمق رفعت المرأة من نعشها الذي كان مجرد وعاء مؤقت ، وكانت ملفوفة لفاً اكثر إحكاماً في حوليها ، وبعد ان وضعت في القبر غطيت غطاءً رقيقاً بالتراب والحجارة . وتضع فيما بعد بلاطة من الجص فوقها . والى هنا ، فان الغني والفقير يعاملان معاملة متماثلة : ولكن الشكل النهائي للقبر هو الذي يحدد الوضع الاجتماعي للقابع تحته . ويكشف الشكل الحاد أو الجملوني الوضع المتواضع السابق ،وتحكي البلاطة المستطيلة ذات التجاويف والأواني الغارقة في الاسمنت قصة الثروة والجاه . وعلى كل حال ، فهذه الأوعية لم تكن للازهار ، كما يمكن ان يتخيل المرء ، بل لتحتفظ بالماء للطيور . ان كل قبر أملس السطح يحوي مولجات الرحمة هذه . ويقال بأن الطيور تجلب الحظ الحسن ، وهكذا فإن صحون شربها لم توضع كلياً لأسباب تتعلق بالإحسان .

الفصل السادس والعشرون

غداء عزلي

قال مترجمنا : « ان الطقس حار على الراكبين » يوم دعينا إلى غداء عربي ، دعانا إليه واحد من أغنى العائلات اليهودية في طرابلس ، في منـزله الريفي ، بعيداً عن الشاطىء .

وكانت هذه الدارة ، المحاطة بالحدائق المليئة بالأزهار الناضرة ، والتي تتدفق بئرها تدفقاً مستمراً إلى خزان واسع مكشوف ، مثـل بركة سرور ، تندفع من وسطها « نافورة » غزيرة إلى أعلى كل النهار بطوله ، واحدة من أوسع الاقطاعات في المنطقة . ولكن « القبلة » كانت تهب منذ يومين ، وكان الهواء لافحاً كالفرن وقد ملأ ضباب غبار الصحراء القاتم كل فجوة . واصبحت حتى الساعات وآلات التصوير المغلقة إغلاقا محكماً مشبعة بالجزئيات الدقيقة . وكان ميزان الحرارة يسجل درجة تزيد على المائة ، ولكن لكون الهواء جافاً الى هذه الدرجة ، فان الطقس لم يكن اكثر إزعاجاً من درجات حرارة اقل قرب خط الاستواء ، في مناطق الغابات .

ويقبع شريط ضيق من الظل على طول الشوارع المكشوفة قريباً مـــن

البيوت . وقد كان حتى السودانيون السود يضطجعون في هذا المأوى المفتوح ، ولم يغامر كلب أو حمار بالانتقال الى النار اللافحة .

وصحت متعجبة : «حارة جداً على الركوب ! »انني اظن أنها حارة جداً على على السائرين ! » .

أجاب « لا » . « احملوا مظلات ، وسيروا بهـدوء - وستشعرون بأن الحرارة أقل » .

ولمعرفتي من تجربتي الطويلة ان الأساليب الأهلية في مقاومـة الطقس أو التلاؤم معه أفضل ، قبلت ، وقد بدأنا السير ، وكنا المخلوقات البشرية الوحيدة التي تتحرك .

وبينما نحن نسير ببطء متتبعين خطوط الظل الضيقة ، خرجنا بسرعة إلى ضوء الشمس الذي لا يرحم ، والذي بدا وكأنه يقبض على المرء بأصابع ملتهبة. وكان طول هذا الميل دافعاً إلى تذكره ، ولكنه انتهى أخيراً بحدائق تواجه البحر .

وعندما فتح الخدام البوابات الكبيرة ، وأدخلونا عبر أبواب البيت ، كان ذلك كدخول قبو . وبدت البرودة الغبشاء جنة راحة داخل هذه الجـدران السميكة ، حيث لا يمكن ان تنفذ حرارة .

وأحضرت مشروبات مثلجة في كاسات طويلة حالاً ، وظهرت مضيفتي في الحال ، تلبس لباساً وطنياً أنيقاً بهياً . وكان هذا اللباس سراويل طويلة مـن الحرير الازرق والابيض ، وبرقعاً من الحرير الوردي وسترة بـلا أكمام مـن القطيفة الارجوانية المطرزة تطريزاً كثيفاً بالذهب . وكان شعرها المجدل ملفوفاً بمنديل من الحرير الابيض والازرق . واثقلت اذنيها أقراط ثقيلـة من الذهب

الاصفر الخالص ، وزين جيدها وكتفاها بأسماط من الليرات الذهبية . وغطت ساعديها أساور عريضة ، من الذهب النقي اللين إلى الكوع تقريبـــاً ، وكان حذاؤها الزحـّــاف الذهبي يُمسك بأصابع أرجلها فقط . وتضاءلت أجمل حللي الرسمية البيضاء المطرزة ، التي لبستها تكريماً للمناسبة ، تضاءلاً بلغ الحد الاقصى ، إلى جانب عرض الجمال هذا ، وبدت كل من مضيفتي الكريمـة والعديد مـــن صديقاتها المجتمعات عندها متفقات على هذه الفكرة . وقد سألنني من خـــلال المترجم اسئلة كثيرة حول ثوبي-ولماذا لبست ثوباً من لونين فقط ،ثم ألبس الحذاء الأبيض حاراً وكذلك القفازين ؟ وهل قمت أنـا بتطريز الزهرتين ؟ ولقـد استطعن تقدير التطريز ، ولكنهن ، خلافاً لذلك ، لم يوافقن بوضوح ، ولكن بأدب ، على فكرة الألبسة البيضـاء ، وأشرن بلطف في الحال ، ثم اقترحـن اقتراحاً محدداً ، وهن يحطن بي دائرة من الأنوثة الملونة والمتحركة كقوس قزح ، ان أرتدي ملابس مثل ملابسهن . ولحقن بي مثل الاطفال السعداء إلى غرفة نوم مضيفتنا الواسعة الطلقة ، وبقين إلى ان اخترت مجموعة من الالبسة الرائعة ، ثم انسحبن بأدب ، تاركات وصيفتين ليعنني على هذا اللباس الملكي الذي لم أتعوده .

وكانت الحلـــل ، وهي في الشكل والنسيج تشبه تلك التي تلبسهـــا كل السيدات ، وفيها نفس الالوان ، تختلف قليلاً في التركيب ، وفيما عدا مسألةقصة الشعر كنت اصبحت مثلهن تماماً! وبدت الاساور الثقيلة والقوية وهي قطع مستوية من الذهب الخالص المُطـَرّق ، كوّرت لتلائم الساعد احدّما عانيت في حياتي . وعندما أطللت على غرفة الاستقبال كانت هنالك حركة جلبة - ولم تكـــن للحماسة حدود . ولكني تنهدت اكثر من مرة على حلتي البيضاء الباردة قبل ان اتحرر منها .

واحضر مجسم ، ونظرنا كلنا ، نحن السيدات الشرقيات المتواضعات بوداعة إلى الصور مجال تسليتنا الوحيد.

ولما كان صاحب البيت ليس من دين النبي . فإن أزواج هذه المجموعة قـــد دعوا ، فظهروا في الحـــال ، وحيونا عندما كنا نجلس في دائرة متواضعة على الارض . وجاء معهم الفلكي الذي كان تأثره واضحا بعرض الجمال هـــذا . ولكنه فشل في ان يلاحظ اياً من معارفه السابقين ، مستخفياً هكذا في بهاء غير مألوف . وسمعته يسأل إذا كنت لم أصل بعد – وفي هذه اللحظة وقع عليّ بصره . ونادراً ما رؤي عالم اكثر دهشة . وكان انفعاله لايفسّر ، ولكنه َقبِـل الوضع بكياسة جيّدة في الحال ، مما سبب سروراً غامراً للسيدات اللواتي راقبن دخوله غير الواعي بفرح .

وقبل أن يمضي وقت طويل دعيت الجماعة إلى غرفة الطعام ، الباردة المعتمة ذات السقف العالي ، وكان كثير من الخدم في الانتظار . وقد وضع أمام كل ضيف كومة من عشرة أو أحد عشر صحناً ، وكان الطبق الاول في أعلاها ، ولم يكن من السهل معالجته باليد . وبإزالته تحققت الراحة قليلاً ، واستمرت متوالية حسابية مع استمرار العشاء . وقدمت أطباق مشهية كثيرة ، ولكنها محيرة ، كما قدم الكسكس «المقبل» الذي لا مفر منه ، وأشكال من الخضراوات الطازجة مع « الشوربات » الحارة « المبهرة » . وقدمت في النهاية قطع الحلوى الصغيرة والقهوة التركية .

ولم نقم عن المائدة إلا بعد الساعة الرابعة ، وكانت الثامنة تقريباً ، عندما امتطيت الجمل ، بعد ان لبست ثيابي العادية ثانية إلى عشاء أكثر ألفة ، ولكنه شهي بنفس الدرجة ، في الساعة الثامنة والنصف في القنصلية .

جمل يتهادى في طريق العودة إلى البيت

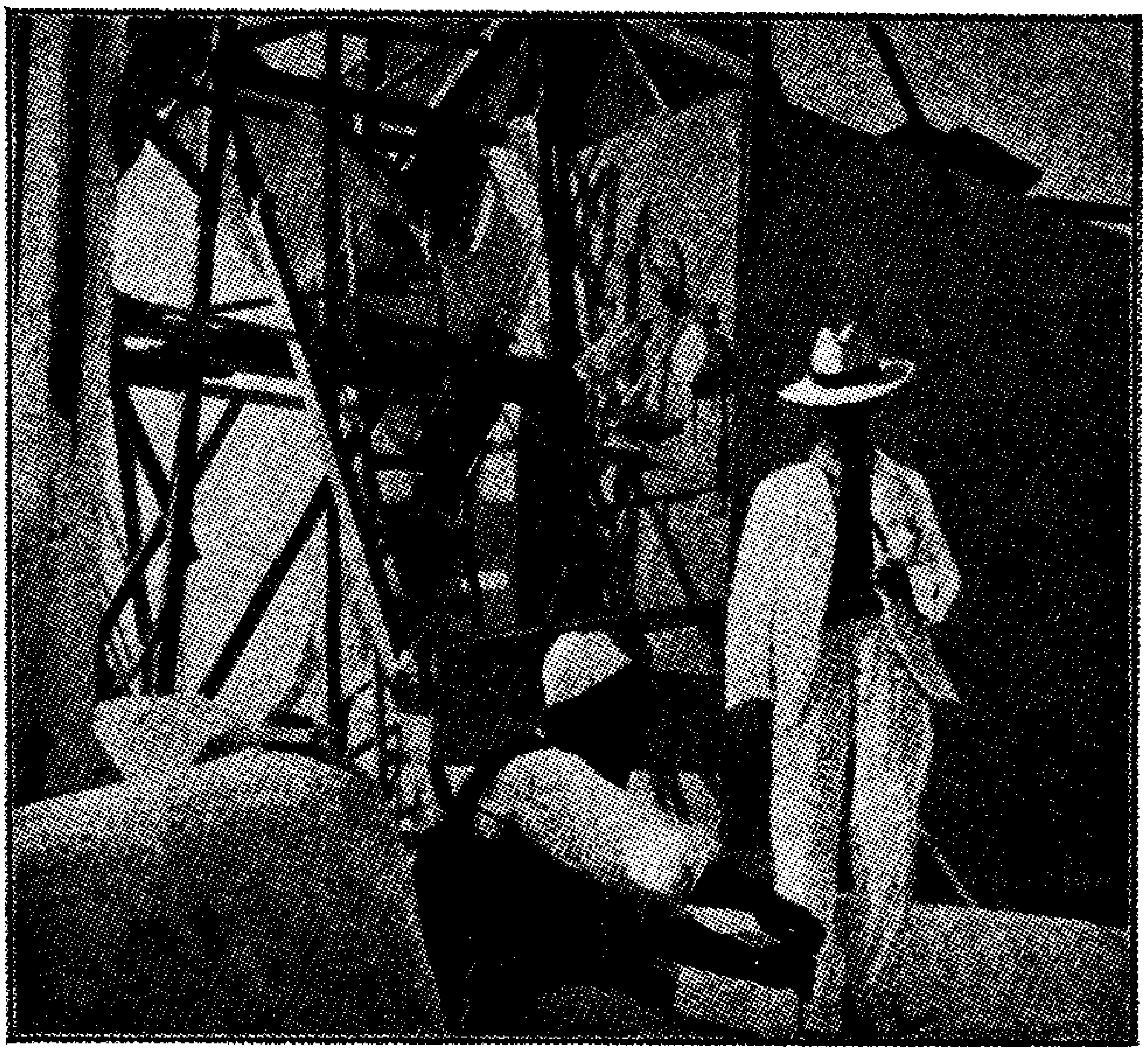

استعدادات للكسوف

تنظيم إخيالي ... لالتقاط الظـّل

TTM - D

الفصل السابع والعشرون

استعدادات من أجل الكسوف

ان على الفلكي ان ينجز اختيار المكان السليم لوضع التلسكوبات ، والعثور على العاملين الذين يتوفر فيهم الذكاء الكافي لأعمال غالباً مـا تكون دقيقة ، والاختيار الصحيح بين هواة هم دائماً اكثر من مستعدين للمساعدة ، والاختبار الليلي للأدوات أسابيع سلفاً ، واستخدام المصورين ، واقامة غرف مظلمة مؤقتة .

وقد تعثرنا فيما يتعلق بالتحضير تقنياً بقوميات العاملين وأديانهم ، حتى أن مجموعة أو أخرى كانت دائماً لا تعمل في عطلة اسبوعية. وما من مسلم يمكن ان يعمل يوم الجمعة ، وما من يهودي يعمل يوم السبت ، ولم يكن يوم الاحد من أيام العمل في برامجنا. ان هذه العوامل الثلاثة ، مع الاعياد والصيامات المختلفة ، وأيام شهر رمضان المقدسة، تداخلت في تقدم اعمالنا الفلكية تداخلاً خطيراً الى حد . وكان التنوع في اللغة على الاغلب حاجزاً دون استكمال التفاهم حول نقاط دقيقة . وكانت بضع كلمات من العربية والتركية واليونانية والايطالية كافية لجعل النهار يبدأ بداية رشيدة . وكانت السهولة اللغوية لدى الفلكي تضع في الحال

مهماته في ايدي الجماعة المتعددة اللغـات . وكان هناك أيضاً ، ملاذ آخر ، اذ حينما لا تنجح أية لغة في افهـــام خدمه المختلفين كان يفوه ، كوسيلة أخيرة ، ببضع كلمات توكيدية يابانية بين عمّاله المنتظرين ، الذين لم يبدُ أبداً انهم عجزوا عن فهم ما يعني عند بلوغ هذه المرحلة الحرجة .

ولقد وضعت تلسكوبات كثيرة سنة ١٩٠٠ على سطح شرفة القنصلية ، وصبغت كلها باللون الأبيض ، كما صبغت قواعدها وتوابعها ، حتى يكون ممكناً أن تستوعب قدراً أقل من الحرارة الشديدة ، التي تتعرض لهـا كل النهار — انه لتنظيم خيالي ذلك الذي اقيم لالتقاط ظل . وقد كان الكل مربوطاً بأنبوب مركزي ، وكان كلٌ منها مزوداً بسلسلة لا تنتهي من صحائـــف التصوير التي التقطت أكثر من مائه صورة خـــلال خمسين ثانية من الثواني التي حصل فيها الكسوف ، وذلك من أجل الكشف .

وكانت الفكرة العامة ، مشابهة تقريبـــاً لابتكارات الفلكي السابقة التي استخدمها في افريقيا واليابان ، والتي استخدمت فيهـــا كل من القوى الغازية والكهربائية بنجاح . ولكن اتساع باحةالقنصلية جعل استخدام الجاذبية المجردة كقوة محركة ممكناً ، وركب جهاز محكم من الحبال والبكرات تركيباً دقيقاً . وكانت الحبال تكعبل في نقاط محـددة بخرز من السبحات الاسلامية ، وكانت « الثقـّالات » دلاء من رمل الصحراء .

وقد عمل ترتيب مختلف ، ولكنه بنفس المستوى من الفعالية،للتلسكوبات على سطح القنصلية في الكسوف الثاني .

وجعلت اسباب معينةمن المرغوب فيهجداً مضاعفة الصور المأخوذةللإكليل خلال كسوف واحد . ولا يزال من الضروري ان تدرس صور كثيرة ، قبل ان تعرف تماماً طبيعة الاكليل ، الذي ما زالت مشاكله غير محلولة .وحين يجيءهذا

الوقت ، فان قصة الشمس كلها ربما يمكن ان تعلن . وفي هذه الاثناء ، لا يستحسن الاكتفاء بمقارنة صورهالات مختلفة في سنوات مختلفة ، تختلف كثيراً في الشكل والحجم ودلالات الفعالية الشمسية ، بل ينبغي مقارنة كل هذه الصور التي تؤخذ خلال اية حركة سريعة لكسوف كلي . ولم يلحظ تغير ، الى هـذا الوقت ، في الهالة الرقيقة المكونة من ضوء اثيري ، خلال دقائق رؤيتها القليلة ، في أي مكان ، كما لم يلحظ مثل هذا التغير حتى بين بدء مسارها الملحوظ ونهايتها ، اللذين تفصلها اكثر من ساعتين من الزمن الحقيقي .

ما هي السرعة ، إذن ، التي تتم بها التغيرات في الاكليل التي تحدد مظهره الكلي ، من كسوف إلى آخر — حيث تكون مرة دائرة صقيلة ، ومرة خاتماً مكسوراً غير مستوٍ ، وتظن احياناً شرائط ضوئية ممتدة كثيراً ، وفي حالة أخرى امتداداً مثل ورقة الزهرة تماماً ، دون تركيز في أي اتجاه .

وقد وجدت علاقة بين مراحل كلفة الشمس والشرائط الاكليلية . وتحدث احياناً ، كما نعلم ، تغيرات سريعة في كلفات الشمس ، وربما مر الاكليل ، الذي لا يرى بتقلبات مماثلة . فإذا امكن أخذ مائة صورة لكسوف واحد ، من ثانيته لأولى الى الثانية الاخيرة ، فلن يكون ممكناً متابعة التغيرات غير الممكنة ، مهما كانت ضعيفة وخفيفة ، ولكننا نحقق ما لا يقل عن هذا أهمية ، وهو بدء الاجابة على اللغز .

ولكن الدقيقة الواحدة ، أو الاثنتين أو الثلاث لاغلب الكسوف لا تكفي ليأخذ فلكي واحد عشرين أو ثلاثين صورة بيده . ويجب ان تستخدم وسائل ميكانيكية لمضاعفة العدد . وقد حققت مثل هذه الخطة مرة ثانية بنجاح ، من خلال المهارة التقنية التي استعملها الفلكي .

وتبرز احياناً لوازم لم يجرِ توقعها من قبل ، حتى بعد ان تؤمن كل الطوارىء.

وكانت تبرز الحاجة فجأة ،على سبيل المثال ، الى اذرع قليلة من نوع من القماش ، أو أقوى مضرب تنس ممكن ، أو وتر عود . ولن أنسى أبداً اندفاعي العصبي من أجل القماش المطلوب بسرعة . ولم أكن اعرف كيف يكون انجاز هــذه المهمة بالعربية . ولم يكن المترجم الخاص موجوداً في مثل تلك الساعـــة من ساعات الصباح الباكر ، ولم يكن ممكناً ان يوجد اصدقاؤنا عندئذ تحت الطلب ،ولكن احد كتبة مكتب البرق الذي يتحدث بعض الكلمات الانجليزية استعد لمرافقتي في هذا البحث .

وبدا عليه اخيراً انه فهم ما يُراد ، ومشينا مسرعين . ووجدت نفسي ، وأنا اعتبر مشاءة سريعة بالمقياس العادي ، متخلفة تماماً . ولقد سجّل دليـ-لي رقماً قياسياً دون ان يركض . وذهبنا من مكان الى آخر مثل الريح ، ولكننا لم نجد القماش . وعندما كان الصبي المتحمس ، وسراويله التركيـــة تطير امامه ، يلتقي بصديق حميم ، يكون من الواضح انه لم يرني أسير في المؤخرة ، يأتي هذا الى رسولي ويداه ممدودتان للتحية بمودة . وكان دليلي يأخذ اليدين الصديقتين ، حقيقة ، ولكن من أجل دفع صاحبهما جانباً فقط ، وكان يفعل هـــذا بلطف ولكن بحيوية . ومــــا زلت احتفظ بصورة التعبير المحزون والمستغرب لذاك الصديق ، عندما كان قد أُبعد بسرعة ، دون أية كلمة ايضاح بينما سار صديقه مسرعاً كالقدر ، تتبعه امرأة طائرة ترتدي رداءً ابيض .

وكانت القطة الصماء البيضاء من نوع انجورا واحدة من اكـــثر مشاهدي الاستعدادات اهتماماً، وقد اصرت على تفحص كل عملية بكثير من العمق . وكان الفلكي يُسرُّ ، لتعلقه بهـــذه الحيوانات الانيسة المرتبطة بالانسان ، بالاهتمامات المستمرة لصديقته الصغيرة ، مع أنها كانت عموماً تضع نفسها ، من أجل غفوة مريحة في قصبة التلسكوب التي تكون في تلك اللحظة مهيأة . وفي صباح أحد الأيام جرت اشياء عديدة مجرىً خطأً ، وخرقت خرقاً واضحاً

الفلسفة الهادئة التي تعودتُ عليها ، ذلك ان جُمــلاً قليلة انطلقت من اعماق الآلات التي غاص فيها الرأس والجسم الفلكيان ، منبثة عن هيجان أرضي . انهذه الجمل أشعرتني بالسرور ، وكانت تلفظ لطفاً واضحاً دون التفكر بأي مستمع ، قريب أو بعيد .

« احدهم عربي ، والآخر تركي والثالث مالطي – لا يستطيع ان يفهم كل منهم الآخر أو يفهمني . لا يستطيع احدهم ان ينزل كأساً من الرمل دون ان تقفز إليه بعض القومية . والقطة الصماء تلعب بالبكرات والحبـال حتى عقدتها كلها ، ويمكن ان تقود الى السماك المرزم أو الجحيم كل ما يمكن ان أراه . اين هي » . واصبح الباقي غير مسموع ، يسير متثاقلاً الى الصمت ليصبح اكثر اهمية من الكلمات المسموعة .

ولكن العمل كان لا زال يتقـــدم ، سيان هبت القبلة ، جالبة معها الغبار الرملي الذهبي الناعم الدقيق من الصحراء ، محوّلة الهواء حاراً وجافاً مثل فرن ، أو جاءت ريح البحر من البحر الابيض المتوسط الازرق ، صانعة اياماً طويلة وعذبة من الجمال الحي ، لتنافس الايام النادرة من ايام حزيران التي تبقى في الذكرى .

وفي النهاية كل شيء كان جاهزاً ، وبقي على الشمس والقمر والجو ان تلعب دورها .

الفَصْل الثامِن وَالعِشرُون

كسُوف سنة ١٩٠٥

كانت هنالك ثقة ، قليلا أو كثيراً في زيارتنا الثانية ، أن الكسوف لن يلبعه أي أذى . وعلق عربي عجوز بسرور ان الفلكي جاء من قبل لأخذ شمسهم ، ولكنه جاء الآن ليعيدها إلى مكانها . وهي عملية كان يبدو واضحاً انه موافق عليهـا .

وبات هناك اعتقاد واضح ، ان مثل هـــذا الحدث (الكسوف) سيكون فيما بعد متوقعاً بانتظام كل خمس سنوات. وآمل ان يكون اصدقاؤنا من القوميات العديدة المختلفة ، لم يفكروا ان الحرب كانت نتيجة لكسوفينا البريئين؛ الا أنهم سيكونون في اعفاء لمدة طويلة. ومع أن الشمس قد تصاب بكسوف سنة ١٩٣٦، فلن يرى الاكليل ثانية في طرابلس حتى سنة ٢٠٢٧ .

كان يوم الثلاثين من آب (اغسطس) يتقدم بسرعة ، وقد ازدادت الحرارة في اليوم السابق له . ولم يحاول الفلكي مدة اسبوع ان يذهب إلى فراشه اطلاقاً، سارقاً غفوة هنا وهناك عندما يستطيع ذلك في فترات مراقبة النجوم ، وهو يهيء الآلات ويحضّر بشكل عام ، وكانت ساعة أو ساعتان على الاكثر تغطي

ادهم بك(ايتم بك)، منفي تركي

كل نومه في كل اربع وعشرين ساعة .

وأفقت في احد ايام الكسوف في الرابعة كالعادة – وهكذا فعل دخان الخبازين ، ولكن الباشا اصدر أوامر،ولم تشعل نيران فيما بعد في النهار ،وكانت الشوارع ترش بالماء باستمرار ، لمنع الغبار المحتمل ، وعرض الآباء الفرنسكانيون بأدب ان يوقفوا دقات ساعتهم العالية خلال الكسوف ، حتى لا تُقاطع اصوات هذه اللحظات العابرة بسرعة،والتي يحددها اللفتنانت جانوبولس بواسطة جَرَسنا العربي القديم .

كان لون السماء في الصباح الباكر اصفر زعفرانياً، تتألق فيه كوكبة الجبّار والشعرى العبور والمشتري والزهرة تألقاً ، ولكن الحرارة كانت واضحة حتى آنذاك ، في تلك البلاد ذات النسائم الحيية . وبدأت تهب « القبلة » الخفيفة في اليوم السابق ، التي أملنا ان تكون انذاراً كاذباً . ولكن كان هنـــاك بوضوح حقيقة في انذارها ، لأن الحرارة ازدادت زيادة لا ترحم. وعندما وصلت سُطح شُرفة القنصلية،حيث كان الجميع جاهزين، وقف ميزان الحرارة على رقم ١٠١. وهبت ريح جنوبية قوية نسبياً ، وكان أفق البحر يبدو زاحفـاً اقرب فأقرب، معتماً جميلاً شاحباً هادئاً .

وصار شريط أشجار النخيل،فيما وراء قبة السلطانة اصفر ضبابياً،وتوهجت الصحراء بالحرارة . وكانت كل الرايات تتجـه نحو الشمال ، بينما التصق العرب واليهود والايطاليون والمالطيون وحتى السودانيون والفزانيون بشرائط الظلال الضيقة في الشوارع المنخفضة فيما دون. وكان الرمل المعلق في الجو يرتفع تدريجياً من الأفق ليلطخ الزرقة النقية ،من خلال سحابة متصاعدة أبداً. وكانت السحابة في العاشرة قد ارتفعت ثلاث او أربع درجات . وكانت السماء فوق رؤوسنا صافية صفاء عظيماً ، وزرقاء زرقة عميقة ، ولم تكن مخططة بالبخـــار . وكان الجو فوق باحة القنصلية مثل مربع من الياقوت الأزرق الباهر .

وظل الفلكي هادئاً خلال استعداداته النهائية، حتى انه لم ينظر ليرى كيف كانت السماء تتطور . ولكني اتذكر ذلك الصباح المذهـــل ، اذ انني ساعدت قليلاً هنا وهناك ، وركضت من الشرفـة الى السطح ، ومن زاوية الى أخرى ، لأراقب « القبلة » المتقدمة وأثرها في الجو . وزحفت الكتلة الصفراء ، زحفـــاً ثابتاً ولكنه متروٍ ، على القبة الزرقاء حتى وصلت الشمس نفسها .

واختار شالوم المبجل الجميل ، وهو يهودي ، ومعـــلم نجار ، بضع كلمات انجليزية ، وقد لفظها الآن لفظ مؤكد قال : « لا قبلة ، مساء » حين نظرت مرة ثانية على الصحراء ، الكثيفة الصفراء ، المقتربة باستمرار . وأومـأ لي بعد ساعة أو قرابة ساعة الى زاوية بعيـــدة من زوايا السطح ، مشيراً الى صخور معروفة :

قال : « انظري » . وكانت موجة صغيرة تتكسر ببطء على الصخور خارجة من بحر هادىء وناعم . كان هذا دليله على التغير .

وتوقفت قبل الظهر الرياح العاصفـة الحارة ، وحلت سكينة لا رياح فيها . وتدلت كل راية مترهلة على ساريتها . تحركت قليلاً بعدئذ راية او رايتان حركة ضعيفة مترددة ، ثم ارتعشتا ، ثم انتفختا انتفاخـــاً متقطعاً ، وابتدأت ريح البحر ، من الشمال البعيد ، لقد انقذنا. وبعد ذلك بقليل ، وقفت كلها بعيداً عن البحر الابيض ، الذي أصبح مرة ثانية نيلياً غامقاً متموجـــاً بملايين التموجات والأمواج المزبدة الفرحة .

وتراجع خلال ساعـة الرمل الطامح الى تلاله ووديانه في الصحراء ، وبات الهواء العظيم مرة أخرى متحرراً من التلويث ، وانسحب الأفق ، وسار بعـد الظهر واضحاً نقياً .

لقد هزمت القبلة .

وقبل ان يحصل التماس الأول ، أجري الاختبار العادي ، بينما كان كل فرد في مكانه ، وكان كل المساعدين النظاميين والمتعاونين الهواة في النور الباهر .

ولقد كانت اخبار الكسوف منتشرة جداً . ففي السوق المكشوف جلست جماعات من الرجال الى جانب جمالها ، في ترقب صامت جاد ، عندما كان الكسوف الجزئي يتقدم. وفي المقاهي الطلقة كان الرجال يتحدثون عن اقترابه، فيجيب زملاؤهم «عسى ان يكون الله رحيماً»عندما ينتقلون جميعاً الى الصمت، او الى نوع من الخشية .

واكتظت الاسطحة المجاورة تدريجياً . وأعد بعض العقلاء ملاجىء كالخيام لاتقاء الضياء،وكان الجميع مزودين بالزجاج المعتم بالدخان. وبدلاً من ان يحاول السكان ان يحدقوا إلينا بثبات ، كما فعلوا سنة ١٩٠٠ ، حين انتظروا ان تحدث مفاجئة مسلية على ظهر القنصلية ، فانهم هذه المرة كانوا جميعاً ينظرون الى الشمس .

وحصل أول تماس في الساعة الواحدة وثلاث واربعين دقيقة فجأة .وازدادت سرعة تلك القطعة الباهرة من القرص ، وتأرجحت الشمس الهلالية الكبيرة تأرجحاً سريعاً . وكما حدث من قبل ، فان الجسم المتلألىء النير كان قد غطي اكثر من نصفه ، قبل ان يحدث أي تغير واضح في الضوء والحرارة : وأخذ كل شيء يصمت بالتدريج ، حتى أنني فوجئت عندما تحققت ان الظل قد زحف إلى الأمام . وكانت المواد جاهزة لكي اقوم برسم الاكليل ، ولكن لم يكن ممكناً استعمالها حتى يحدث الكسوف الكلي .

وكانت مئذنة مسجد قرجي بشرفتيها المرتفعتين فوق المسجد مليئة بالمسلمين ذوي الثياب البيضاء المتطلعين الى المساء . وحين خبا النور،وصار بلا حياة وبدا

كل العالم المحسوس يسير نحو غيبوبة الموت التي تنتجها الكسوفات دائماً ، برز المؤذن العجوز من اعلى نقطة في المئذنة داعياً المؤمنين لتذكر الله ، وعدم التحول عنه . واستمر اكثر من خمس عشرة دقيقة دون انقطاع في تحذيره ، مطلقاً صوتاً يلائم المترقب المكتنف بالقتامة والمسحور والملح والمنقطع الانفاس .

وقبل الكسوف بمدة تتراوح بين ثماني دقائق وعشر ، بدأ مظهر غريب يزحف عبر بياض السطح عند قدمي . وعجزتُ لحظة عن التعرف على مـا كنت دائماً انظر اليه في كسوفات سابقة ، ولكني لم أره يوماً ، والذي كنت ، مع هذا ، انتظره حتى في تلك اللحظة .

وعندما رأيت الضوء الغريب والظلام الغريب المتذبذبين كان أول ما خطر لي « لماذا توقفت القبلة ! » ؛ ليس هنالك من سحب ! ما الذي وقف بيننا وبين البقايا الاخيرة من ضوء الشمس !

وفكرت لحظة قصيرة بدخان مندفع مع الريح . ثم تحققت فجأة انني أخيراً كنت أرى « أحزمة الظل » الحقيقية ـ ارتعاشة السر الغريبة هذه ، التي تزحف أو تندفع أو تجري عبر العالم قبل أن يغمر ظل القمر الاصقاع . لقد تأثرت بذلك تأثراً فذاً ، ولاحظت الشرائط بعناية عظيمة . وكان كل من خطوط النور والظل ضيقاً جداً ، لا تزيد عن حوالي البوصة عرضاً ، وهي غير مستقيمة ، ولكنهـا متعرجة قليلاً ودون انتظام . وحيث كنت اواجه الشمس ، وظهري مُتجه نحو الشمال الشرقي ، كان الامتداد الطولي للشرائط متجهاً من مكاني نحو الشمس ، وكانت الشرائط تتحرك نحو الشرق بسرعة عظيمة ، لتكوّن زوايا قائمة مـع اتجاهها الخاص ، ومع اتجاه الريح ايضاً ، مع انهـا لم تكن مستقيمة استقامة مطلقة ـ بل كونت بالاحرى انحناء كبيراً أو جزءً من دائرة كانت الشمس مركزها .

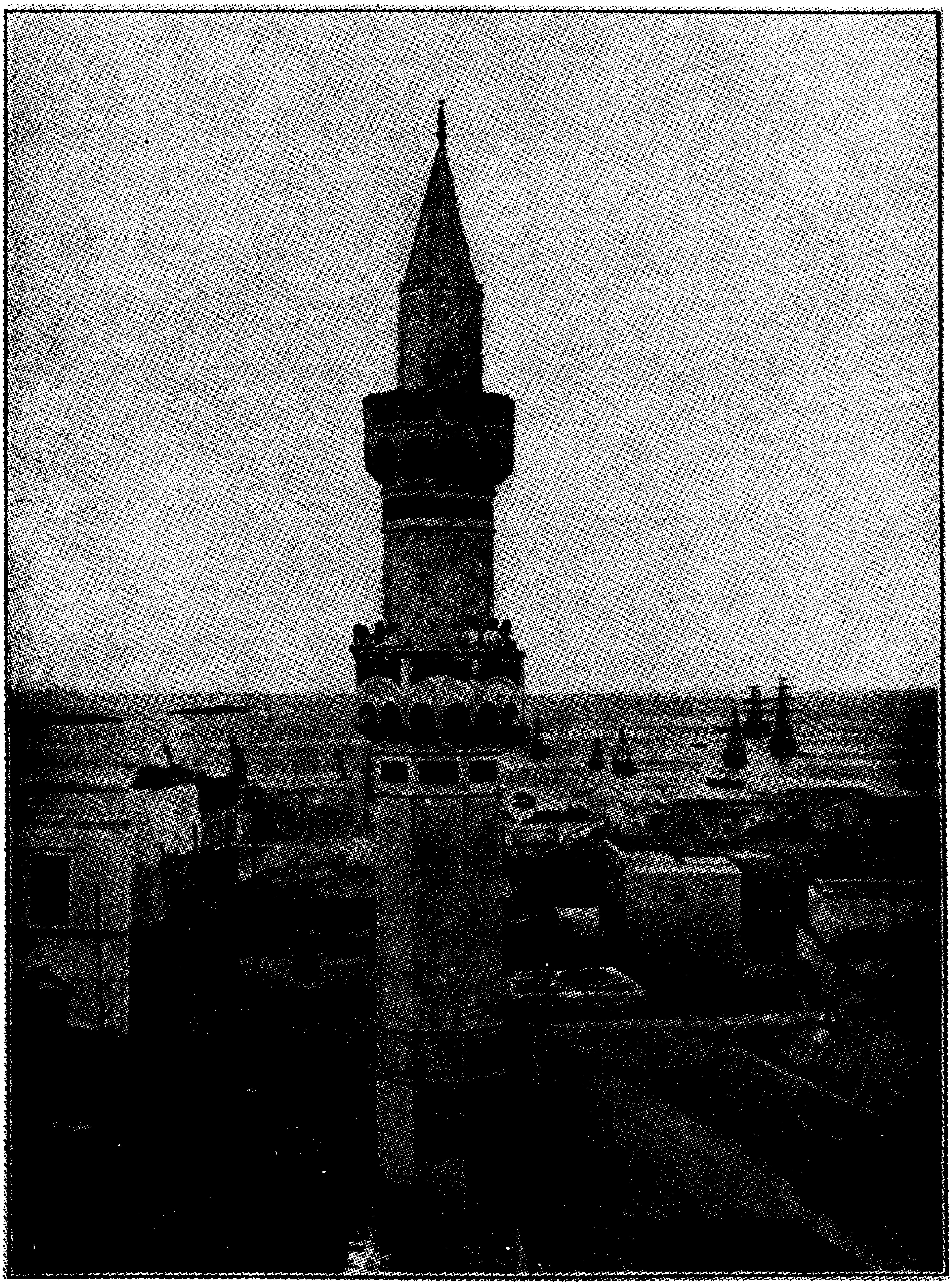

وكانت مئذنة مسجد قرجي الرائعة ... مليئة بالمسلمين ذوي الثياب البيضاء المتطلعين إلى السماء .

ومرت عني مندفعة كالاشباح الخداعة، على طول السطح ، ثم عن الاسطحة في الاسفل ثم فوق المدينة . وسوف لا اقول اندفعت الى الأمام ، مع ان السرعة كانت عظيمة جداً ، فقد كانت الحركة أكثر هوائية وحدة وتقلباً مما يمكن ان تعبّر عنه اية كلمة . وما كان لانسان سائر على قدميه ان يجاريها . وقد حال لونها ، وخبت تقريباً عن النظر ، وهي ترتفع وتسقط بقوة ، ولكنها ظهرت خمس مرات أخرى واضحة ومميزة . وعلى الرغم من أن هذا المظهر الغريب كان آسراً ، فقد كان علي ان أراقب الكسوف، لاعطي الاشارة لليفتنانت جانوبوس، كي يعلنها بواسطة الجرس العربي القديم . وكان عليّ ايضا ان انتظر تفتت القشرة الرقيقة في خرزات بيلي ، وهي ظاهرة سجلت في كسوف سنة ١٩٠٠ . ولكنها لم تظهر هذه المرة .

وقد غابت القشرة عن النظر – وأطفيء الشعاع الاخير من أشعة الشمس الحقيقية ، وقد رأيت الاكليل مدة عشرين ثانية كاملة تقريباً حتى النقطة الساطعة المنطفئة . كانت تبدو وكأنها تكافح من اجل الظهور ، حتى تبرز لأنظار الناس وعقولهم ، وأنها لا بُدّ من ان تعرض نفسها حتى قبل الوقت المحدد .

وادت لحظة الكسوف الى تأثير كبير على المدينة كلها. وذكر المحدثون الذين راقبوا تأثيرها على السكان أن الجميع تقريباً وقفوا ، وارتفعت الصرخات والصلوات من المئات وحتى من ألوف الاصوات . ورفع كثيرون أيديهم الى السماء نحو الشمس قائلين : « ان الله عظيم » . « وما أراد الله سيكون » « عسى ان يكون الله رحيماً بعباده » .

وعندما اضاءت الهالة ، أول ما أضاءت ، بشكل لا يرقى إليه الشك في ذات الزرقة العميقة ، انفجرت المدينة كلها في هتاف لا يرد ، فكانت موجة

متدحرجة من الصوت امتدت وامتدت من البحر الى الصحراء الصامتة ، وانطلقت خارجاً الى اللانهاية .

وكانت هنالك أشرطة ساطعة كثيرة استدارت بانتظام ، ولكن لم يكن هنالك اشرطة طويلة ، وكانت هذه برهاناً آخر على الصلة المشتبه بها بين الاكليل وفترات كلف الشمس . وكانت هنالك تفاصيل ثابتة كبيرة عن خيوط الضوء المتشابكة ، ولكن هذا الاكليل لم يكن اكليلاً مثيراً : لقد كان هالياً مستديراً ومع هذا فقد كان ذا أطراف حادة . وشددت وشددت ، ثم نظرت وشددت ثانية ، وكان الجرس العنيد يقرع انذاره كل خمس عشرة ثانية . ولما كان هذا الكسوف واحداً من أقل الكسوفات الكلية اطلاقاً ، فإن كل اعمال الرسم كانت تجري على ضوء الهالة فقط . واستمر المشهد العجيب مدة ثلاث دقائق واكثر . وكانت كل طبقات الجو السفلى صفراء دافئة ، وبزغ فينوس وكأنه مصنوع حديثاً من اعماق السماء بدلاً من ان يبزغ من البحر .

وهبط سكون ثقيل على المدينة والبساتين بينما كانت زهرة السماء النادرة تتورد . وعندئذ – انطلق ومض من ضوء الشمس المروع حقاً ، ولكني كنت قادرة على تتبع الاكليل مدة ثوانٍ كثيرة بعد ذلك . وبدا أنها تترددفي الغياب ، كما لو كانت نافراً من شرك آلات التصوير المتعجلة والمناظير الملهفة والاقلام المسرعة . ولكن الحياة العادية وضوء النهار عادا كما يبدو أنهما يفعلان عادة بعد هذه الدقائق من السكينة السامية .

ونادراً ما تأتي الكسوفات باكتشافات ذات طبيعة عظيمة ، فيما عدا استثناءات قليلة تستحق الذكر وتعود الحملات بشكل عام بزيادة قليلة من النور على أحدى مشاكل النظام الشمسي الكبيرة ، لتحل المشكلة كاملة بعد هجمات

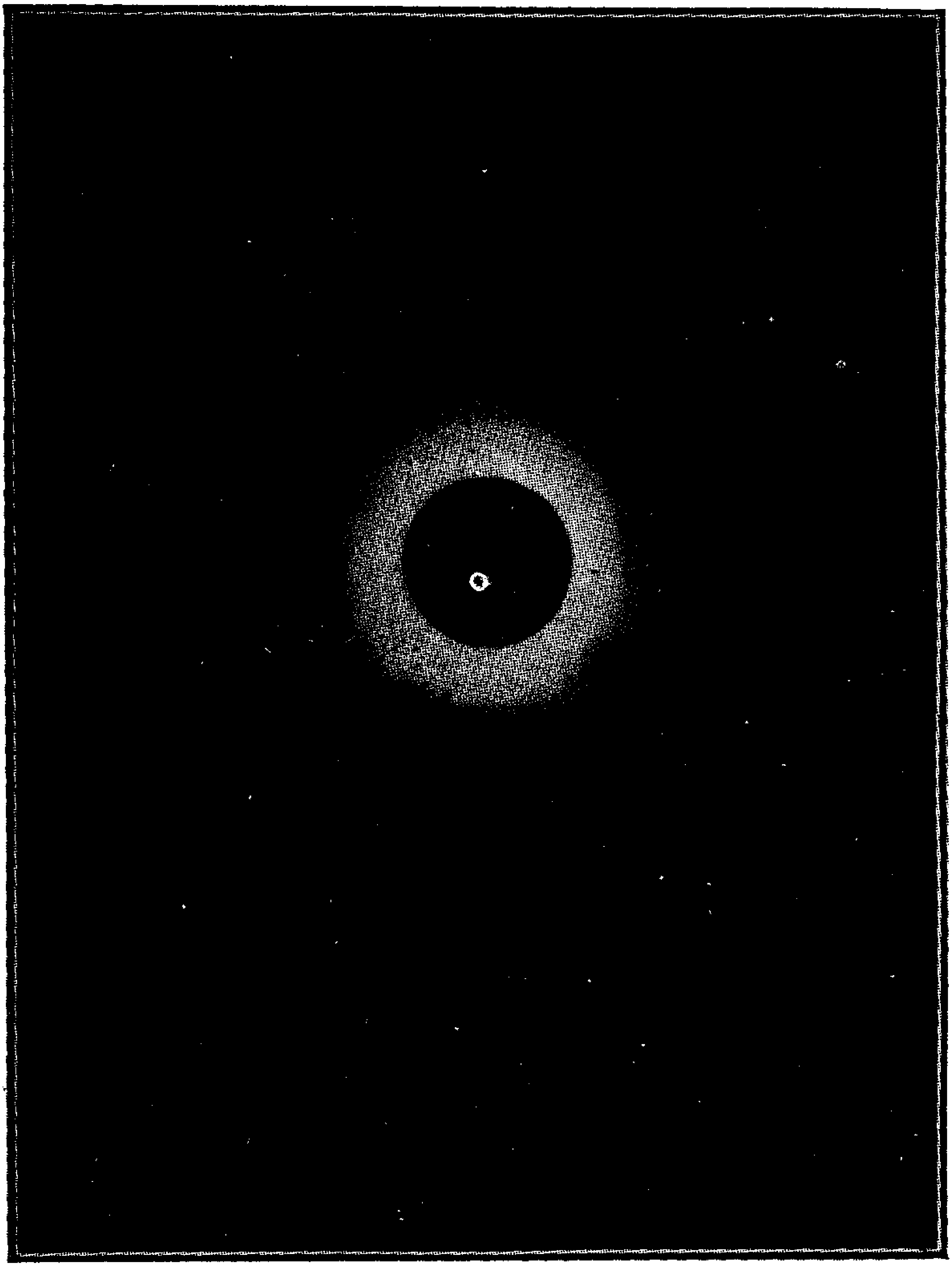

... اشرطة ساطعة كثيرة استدارت بانتظام

متكررة خلال اللحظات التي تلتقط بتلهف في كسوفات كثيرة . وقد اثبت هذا الكسوف في النهاية قانوناً ، أكدت صحته اليوم تماماً ، في ان نموذج الاكليل في كسوف سنة ١٩٠٥ متعلق تعلقاً لا انفصام فيه بشمس ذات كلف كثيفة. ولكن لماذا ؟ ان الإجابة يجب ان تأتي من خلال نظرية مغناطيسية جديدة عن توزيع طاقة الشمس الاشعاعية .

وبالنسبة للعقل العلمي حقيقة فإن حق ما هو جزء من الحقيقة الحقة ، الذي يتعلم حديثاً ، يجري الاهتمام به ويناقش . وإذا مـــا اقتضى الأمر أن تنجز « الكل » حملات لا حد لها ، فإن الفلكيين لا بد من ان يظلوا شاعرين انهم كوفئوا بسخاء على أي جهد .

هل هنالك شيء هام أهمية الحقيقة ؟ والحقيقة هي الواقعة التي يبذل الكثير من التعب في الكشف عنها خلال سنين من الكدح والتفاني .

ان الفلكي يتعامل مع الدوائر ونادراً ما يعبر عن المراحل الزمنية بالسنين . وبما أن المسافة التي لا يمكن تصورها بين الشمس والأرض هي مقياس العالم ، لهذا فان الزمن الفلكي هو مجموعات من القرون ، وان الصبر الدائب هو الميزة الأولى للفلكي .

لقد عمل الجهاز بدقة ، وكوفئت الايام الطويلة للتفاني الدائب ولياليه .
ولقد امتلأت الغرفة المظلمة بالسجلات ، وكان الكسوف قد انتهى .

ان الهالة ، الغامضة ، والتي لا ترى الا خلال هذه اللحظات العابرة ، تعرف وهي تحمل رسالة جديدة من الشمس جمالها الزعفراني الخاص وأهميتها، وهي مستعدة لكشف سرها اذا ما سمح لها. وفتحت ثانية في القبة الزرقاء الافريقية الصافية ، مثل الزهرة السماوية التي استولى عليها كمالهـــا ، وقد بيّضت تويجاتها نار الزمن

المشتعلة ، وكفاح حريق لا يمكن تصوره ، وتعلقت كرة القمر المعتم في وسطها بقوة عظيمة ، لترى الثمر المرجو ؛ الذي سار وابعد بلا رحمة . ولكن الزهرة دائماً هناك ، إلا أن وسائلنا العاجزة لم تستطع بعد اكتشاف الاسرار المنتظرة .

* * *

الفصل التاسع والعشرون

الصحراء

يشعر المرء في المدن الساحلية بنداء المحيط . وهنالك دائماً احساس داخلي بإدراك وجوده . وقد لا يعترف المرء بوجوده الذي يفرض نفسه ـ فالتجول وتجاذب الحديث وشرب الشاي والبيع والشراء والربح ، يمكن أن تسير بلا وعي واضح ، ولكن ذلك الحوار العظيم لا يغيب تماماً عن حياة المجتمع المستمرة .

ويحس المرء في طرابلس نفس الاحساس بالصحراء المتقلبة . انها هناك ، زاحفة ، متكاثرة ، منتظرة ، وذات رهبة لا تفسر ، واتساع كالمحيط نفسه ، وسحر غير مُعقد في متاهاتها التي تعصف فيها الرياح .

وتصل الجادات الضيقة التي تغوص في الرمال إلى الخلخال ، والتي تمر بين الجدران الطينية واحراج الزيتون ، إلى النهاية فجأة ، لتصبح امامنا الأبدية في شكلها المحسوس . ومهما كانت درجة الحرارة في المدينة ، فيبدو ان فوق الرمال هواءً اكثر نقاءً ، موجود دائماً ، وهو ملطف لعملية التنفس ، ومكمل لتجربة ممكنة للرئتين . ومن يميل إلى عالم تلفه شمس باهرة ، أو نار السماء الزرقاء ، عندما

كان الهواء الملائم للالهة ، وهو نعيم الاثـــير الحقيقي ، يملاء المرء بنشوة الحياة القريبة .

لقد خلّفت الواحات وراءً . هنا بعض نباتات الخروع ، وهنالك نبتة او اثنتان ، واعشاب متفرقة ، وهناك تجمعت النبـــاتات في حزم في آخر مواقعها ، كل هذه اختفت سريعاً ، ولم يبقَ الاّ القمم الرملية العالية ، ورشاش اصفر متطاير في دوامات من القمم الحـــارة مثل ندف الثلج ، والريح والغروب والسكينة ـ وانها لسكينة مباركة تشفي العليل وانه لهواء يشبه الخمرة . وامتزج الافق ، على مدى ما ترى العين ، بلون جميل مائل الى الزرقة .

وتحرك صفٌ من الجمال عبر الرمال غير المحدودة ، وبرزت قبة أحد الاولياء بيضاء ، كما برز راعٍ في حولي اسمر عقده برشاقة ، يقود قطيع ماعز ، ويعزف على مزماره الغريب ذي القربة عزفاً بربرياً قويـــاً . وبينما كان يتقدم بخطوات متباعدة ، ظهرت وراءه اعمدة البئر الاخيرة وجمال قليلة كانت مُنيخـة لقضاء الليل تحت نخلاته المبعثرة . ونمت شجرة منهـا ، اكثر جرأة من الباقيات ، وراء الأخريات وعلى بعد كبير منها ، وعندمـا يقترب المساء يتسلق جذعها صبي عربي بشجاعة ليعلق في قممهـــا « وعاء » فخارياً لتقطر فيه نقاط اللاقبي في الليل . وسيكون الوعاء في الصباح ممتلئاً بشراب لطيف ، ولكنه مسكر سكراً خفيفاً . واذا مـا وضع الوعاء في الصباح الباكر ، وترك حتى المساء ، فيعتقد بأن سائلاً اكثر حدة سيتجمع فيه .

هل يستطيع المرء يوماً أن يألف هـذا الفيض من الجلال والجـد ، والغنى والوحدة ! انها عظيمة في قسوتها ، قاسية في جمالها ، انها تفتن ، وتدهش وتسبي دون ان تسعى الى ذلك . وهي لا مبالية بفخامتها سيان اذا اهتممنا أو لم نهتم . وهي تغني أو تسحق بالحياد ذاته . وجوّها بهي ، مخيف في امتداده ، غير دائم ولكنه أزلي .

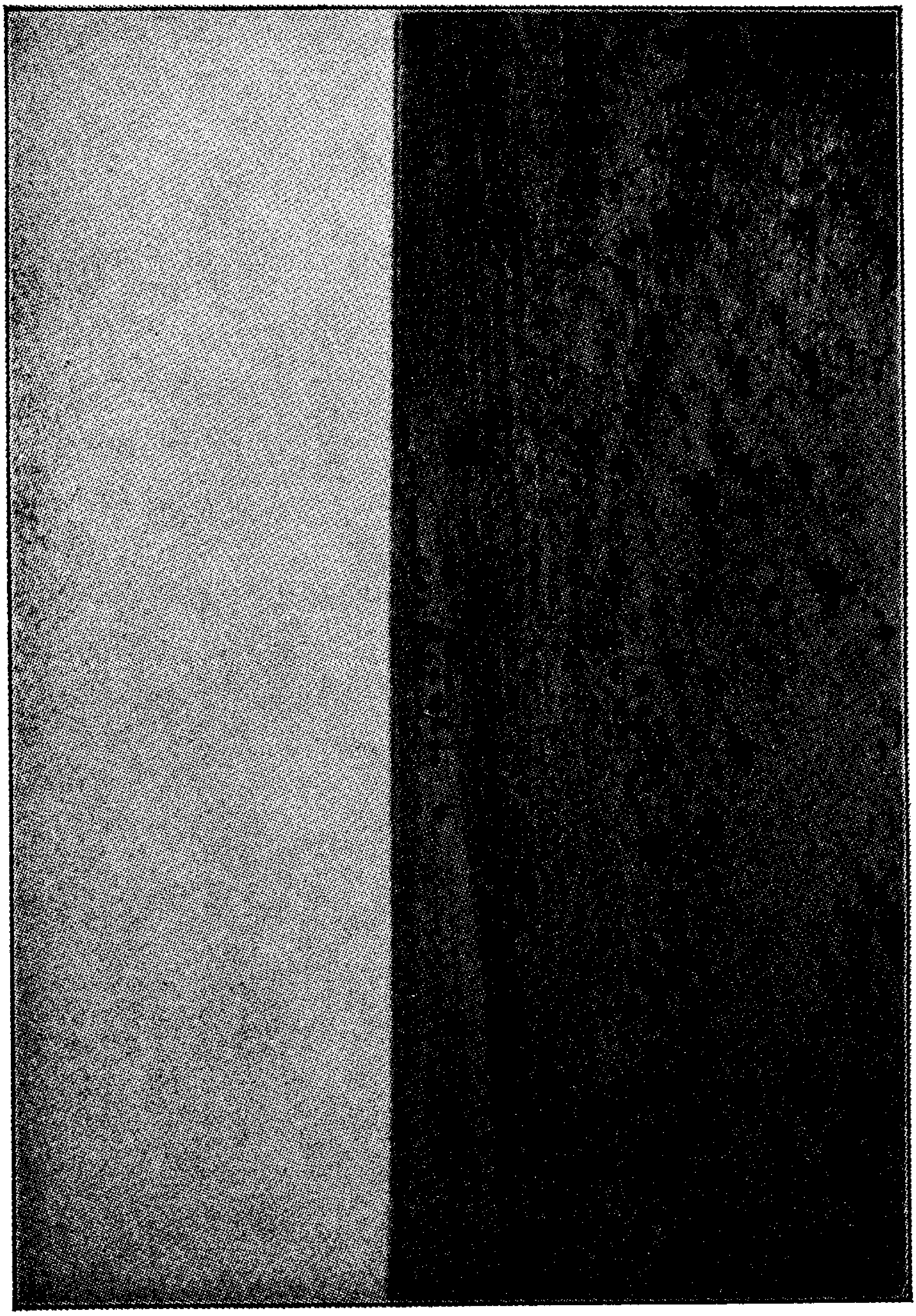

وتحرك صف من الجمال عبر الرمال غير المحدودة

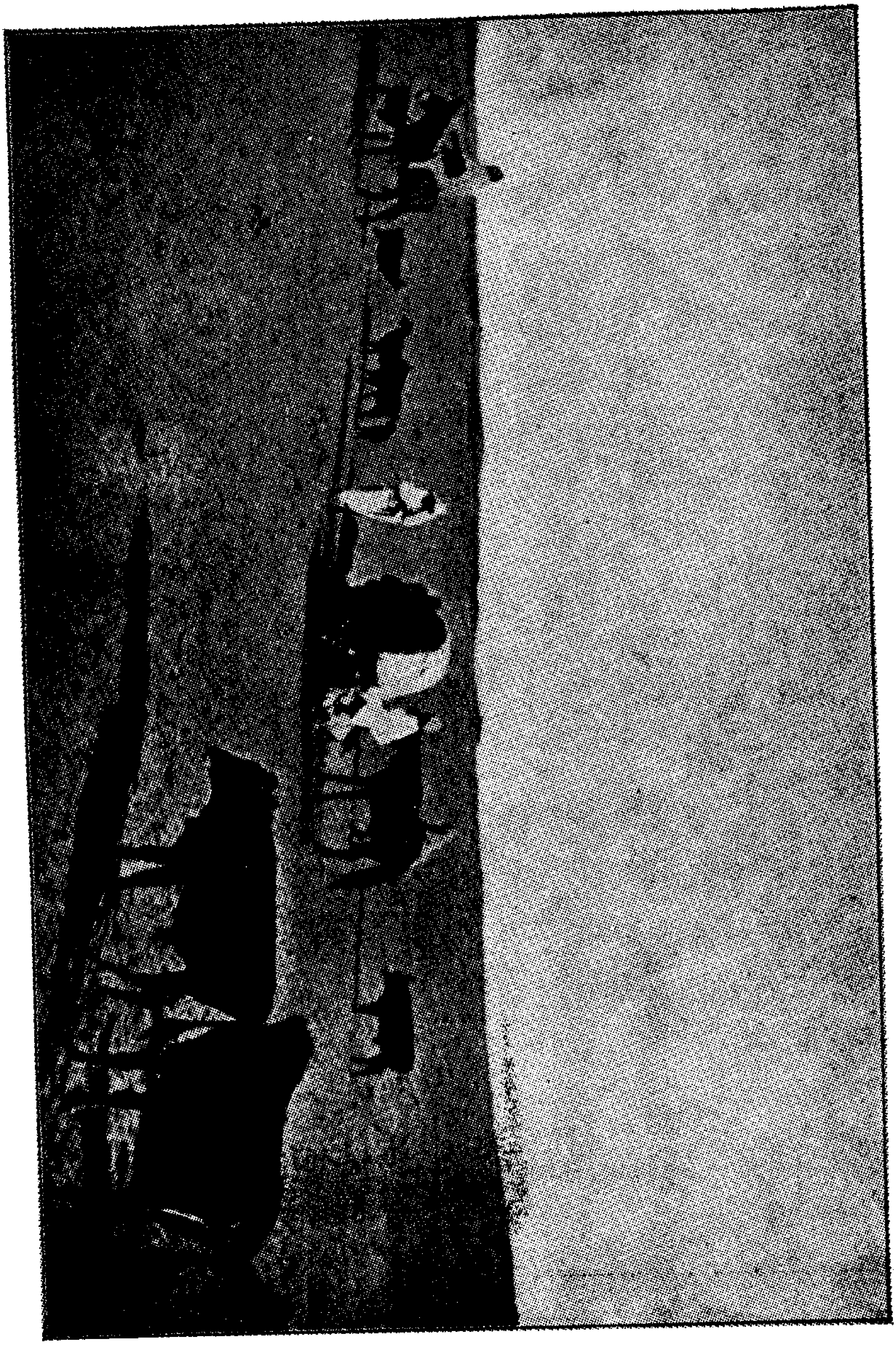

بئر من الماء العذب على حافة الصحراء

ان الصحراء تنتظر زمنها ، صامتة كمتاهات السماء العظيمـة منتظرة بصبر وحياً عظيماً سيأتي . ويروح الرجال والجمـال ويجيئون في جماعات صغيرة ، آثارهم اليوم تطمس غداً ، مجتازين أجزاء صغيرة من الامتداد الكلي ، معانـين التعب والعطش وضربات الشمس خـلال عبورهم ، ومع هذا فالصحراء الهادئة تتكاثر غير مهتمة، وانها لجزء من تلك الأبدية التي لا يمكن يوماً أن تقهر او تفهم أو ترافق ، وهي متغيرة دائماً ولكنها تظل كما هي دائماً وأبداً .

وتوجد هنا وهناك الكثبان الرمليـة الناعمة التي تعرقل إمكانية رؤية القفر غير المستوي، الذي تصنع فيه الريح ملايين التموجات الجميلة، المتناغمة والمنتظمة. ان الرؤوس والروابي التي تبدو دائمة ، هي في الحقيقة زائلة كمشهد من الاحلام . وما نسيم الصيف اللطيف الذي يهب بهـذه النعومة الجامعة الساحرة الآ يد حديدية في قفـاز من القطيفة ، لا تقـاوم كالقدر ولكنها تحضر التلال والوديان لتلائمها ، رافعة سطح الصحراء كله ، وواضعة إياه ، بناء على رغبتها الطائشة. وهي في عدم استقرارها وتقلبها وعدم ارتياحها ، تصنع وتلغي مشاهد متقلبة. وان وجود جمل هنا وهناك ، أو مضرب بدو كان الدليل الوحيـد على وجود الحياة الانسانية في القفر الذي لا شجر فيه . وحتى التلة التي وقفت عليها قد تكون زائلة في الغد ، ليقوم جرفٌ مكانها .

ان السكون الذي يُحس به ، والجفاف الذي يشوي ولكنه يسر، والوحدة التي لا يسهل التعبير عنها ، وامتدادات الرمال الصفراء الساكنة المتموجة الخافقة تنساب في شعور المرء انسياب بحر بعيد القرار .

انها بوذا في هدوئـه الذي لا يحير جواباً ، والنرفانا في قدرتهـا على تذكر المنسي ، وأبو الهول في غموضه العميق الذي لا نفاذ إليه ، والأبدية في وعدهـا الصامت وأملها المرتجف. ان الصحراء تبدو غير محدودة بحدود دنيونية . انها طبيعية، خارج الشروط الجغرافية ووراءها . وليس هنالك اقرب من شفق القطب الشمالي يستطيع ان يلمسها في الشمال أو الصليب الجنوبي على فلواتها البعيدة في مجاهل افريقيا . ان شروق الشمس وغروبها هما حدّاها فقط . إن الزمن هنا يصافح اللانهاية،

مع الآلهة الذين ما عادوا يقيمون على الأرض ، ولكنهم ما بين الحين والآخر يتعطفون بنظرة من نظرات دهشتهم ولانهائيتهم . وانه لممكن ان تجد النفس ذاتهـا في فضاءات الصحراء ، حيـث صوت الله مسموع ، ونـَفَس الانسان مسحوق .

وعندما ازدادت الرياح الغامضة ، النقية الى ابعد من كل الحاجات الانسانية ، بدأت الزوابع والتيارات وعصفات الرمـال في الهبوب والتدفق والانتشار ، مثل الثلج الخفيف في نيو انجلند في الشتاء ، حتى توج الغبار الذهبي كل التلال ، وانحدر في موجات من المجد من كل قمة .

وكان غروب الشمس متوهجاً مشتعلاً ، مكثفاً في لون مركز وعظمة مجتمعة ، وقـــد انتصبت شجرة أو شجرتان من اشجـــار النخيل في الظل مقابل اشتعال علوي . ويبرد سطح الرمال عندما يجيء المساء ، ولكن ما تحته يظل حاراً من تذكر الظهيرة .

وتمر الجمال الصامتة الناعمة الاقدام مثل ظـلال الافكار القريبة في الغسق المجتمع ، وتتوهج النجوم القريبة والوضاءة في السماء المخملية الزرقاء توهجاً غريباً . ولا تبدو النجوم أبداً ، حتى فوق البحر قريبة إلى هذا الحد ، وبهية إلى هـذا الحد ، ومع هذا ودودة إلى هذا الحد ، كما هي فوق القفار اللامتناهية للصحراء الخافقة خفقاناً عنيفاً ؛ من خلال هوائها الجاف الذكي ، عندما ترف الريح الطيبة لتصبح نفساً عذباً .

وانتشرت فوق الرمـــال ، منطلقة من الغروب ، ومالئة السماء اصوات لا تتحدث الا هنا ، وفاضت تيارات غريبة من حياة أخرى غير هذه ، مثل هواء لا يزول . وأشع الرمل أبيض ، وخيالياً خلال اميال ، واخذت تقترب النجوم وتزداد اقتراباً ، وحطت تمتمات الصحراء في اعماق الشعور ، بينما حجبت الحياة انفاسها للألم ، بفرح لا يُفسر ، في انتظار – من يستطيع ان يقول – اي إلهام إلهي .

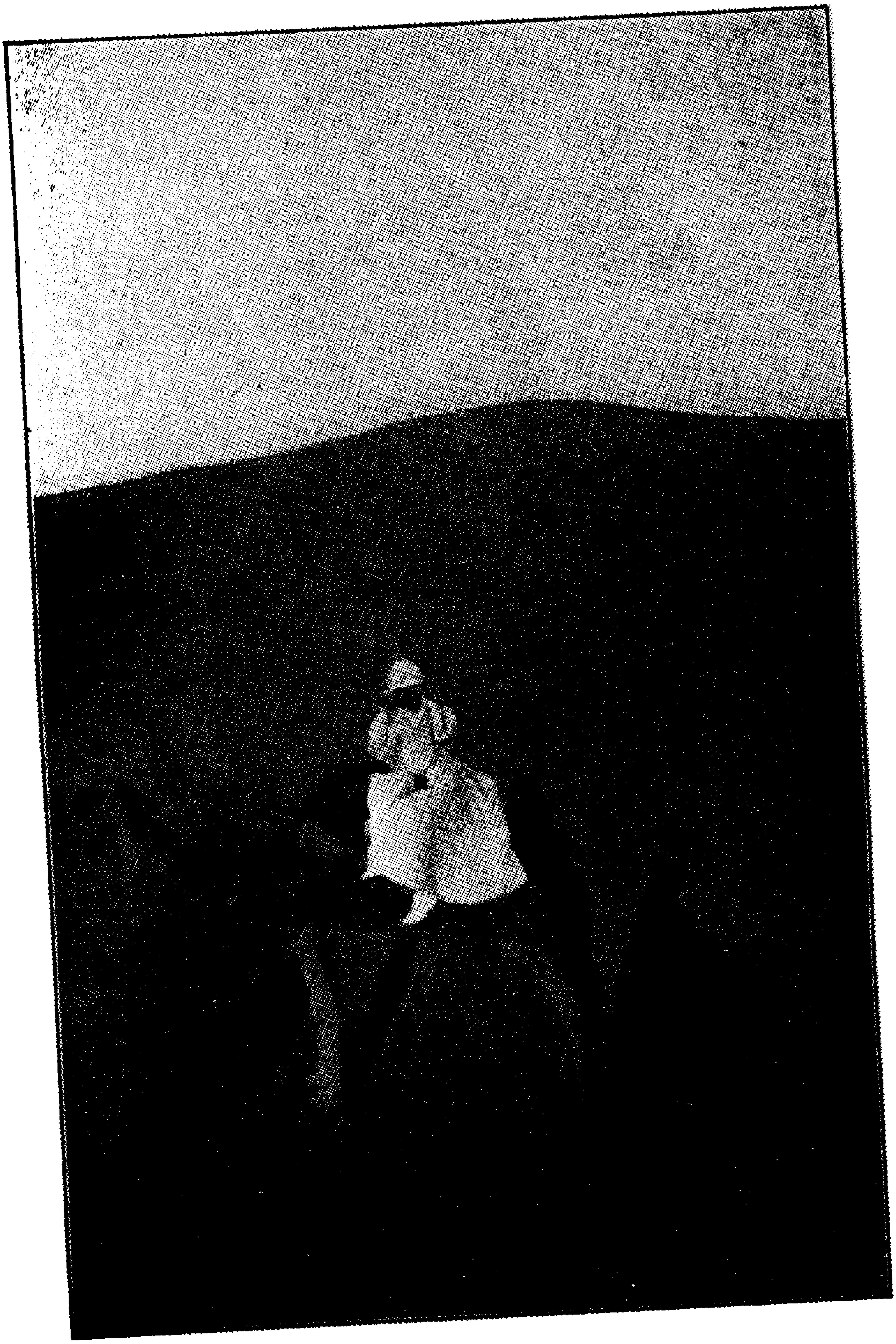

وكان غروب الشمس متوهجاً مشتعلاً

صوت http://mostafamas.maktoobblog.com التوحيد

الفصل الثلاثون

بالسلامة

ان سحر الحياة في منطقة هذا تكوينها يزداد كل يوم . ان البيوت المربعة مثل القطع الجامدة من البناء الأبيض ، والمساجد المقبية والقبور ، والمآذن المندفعة إلى أعلى والمتوجه بالهلال والنجم الذهبيين ، والبلاط المغربي المبيض بوحشية ، والآثار التذكارية الرومانية المثيرة للشجون ، والفنون المتوقفة والصناعات – كل هذه اتحدت لتعطي الدهشة سيطرة كاملة ، والاهتمام الاشد عمقاً ، والندم والرغبات غير المتحققة .

هل يستطيع المرء ان يدعو هذه الكتلة المتنافرة من الانسانية شعباً ؟ وهل مقاعدهم الجلدية الخشنة ، واطباقهم المصنوعة من القش ، والسجاد والحفر والصياغة غير المكتملين والحياكة وصناعة الفخار فن على الاطلاق ؟ وهل كانت اليد الحديدية للاسلام ، أو القوة القاتلة للحكم التركي ، أو ذمم الصحراء هي التي يجب ان تلام من اجل هذه الولاية النائمة ؟

ومهما كانت طرابلس فإنها مدينة سحر ، بيضاء كأحلام الجنة ، مزركشة

بحواش من النخيل والزيتون ، وذات جذور عميقة في ذكريات القرون .

وكان بقرب الكنيسة الكاثوليكية التي انجزت مؤخراً ، والتي يؤمها بشكل رئيسي الايطاليون والمالطيون ، رهبانية يتريض على سطحها الرهبان ذوو الأردية البنية المحزمة عند الفجر ، ودير للراهبات ، سألتنا راهباته الملاح الوجوه عما إذا كانت اللغة الاسبانية اللغة الوحيدة في امريكا . وكان أذان المؤذن الرنان المنطلق من المآذن العالية يختلط بأجراس الكنائس ، المتناقضة مع المشهد المحيط بها ، كما تتناقض انغام بيانو غير مضبوطة تنبعث من احد البيوت في اوقات اللهو ، تعزفها صبية مالطية تحس باكتفاء عميق . ولكن هذه كانت تأثيرات اجنبية تكاد لا تؤثر في الجو الشرقي . فالدعوات على الغداء في بيوت الحريم ، وحفلات الزواج التي لا يحضرها حتى العريس ، وتناول القهوة في الحدائق حيث تعزف الفرقة الموسيقية التركية - لقد مرت الايام الذهبية مثل السحر ، وتسللت طرابلس الى قلوبنا ، ولن يجري تذكرها أبداً دون اهتمام .

ووجدت ، عندما فككنا التلسكوبات ورزمناها ، وعندما قوضنا « مركز المراقبة الملكي » أن المدنية الغريبة الحقيرة ، الشاعرية قد استولت على قلبي . ولقد اعتبرت بعض الامكنة والاشياء المحيطة والاشخاص ، حتى ولو رؤيت عرضاً ، ملكاً للمرء . انها تخصنا بشكل حيوي . ان طرابلس وصحراءها لم تكونا ابداً غريبتين ، على الرغم من كل غرابة الانطباعات الأولى .

ولم يكن هنالك صحيفة نحاس نمر عنها ، ولا بوابة لنعبر منها سنة ١٩٠٥ ، ولهذا لم يكن هنالك يقين يجعلنا نتوقع أننا سنعود يوماً . ولكني أحسست بها . انني سأرى ثانية ذلك الخليج العظيم منحنياً للقاء الرمال الباهرة . ولسوف اتنشق ثانية ذلك الهواء غير العادي ، الذي ينبعث نقياً من مختبر خليقة جديدة .

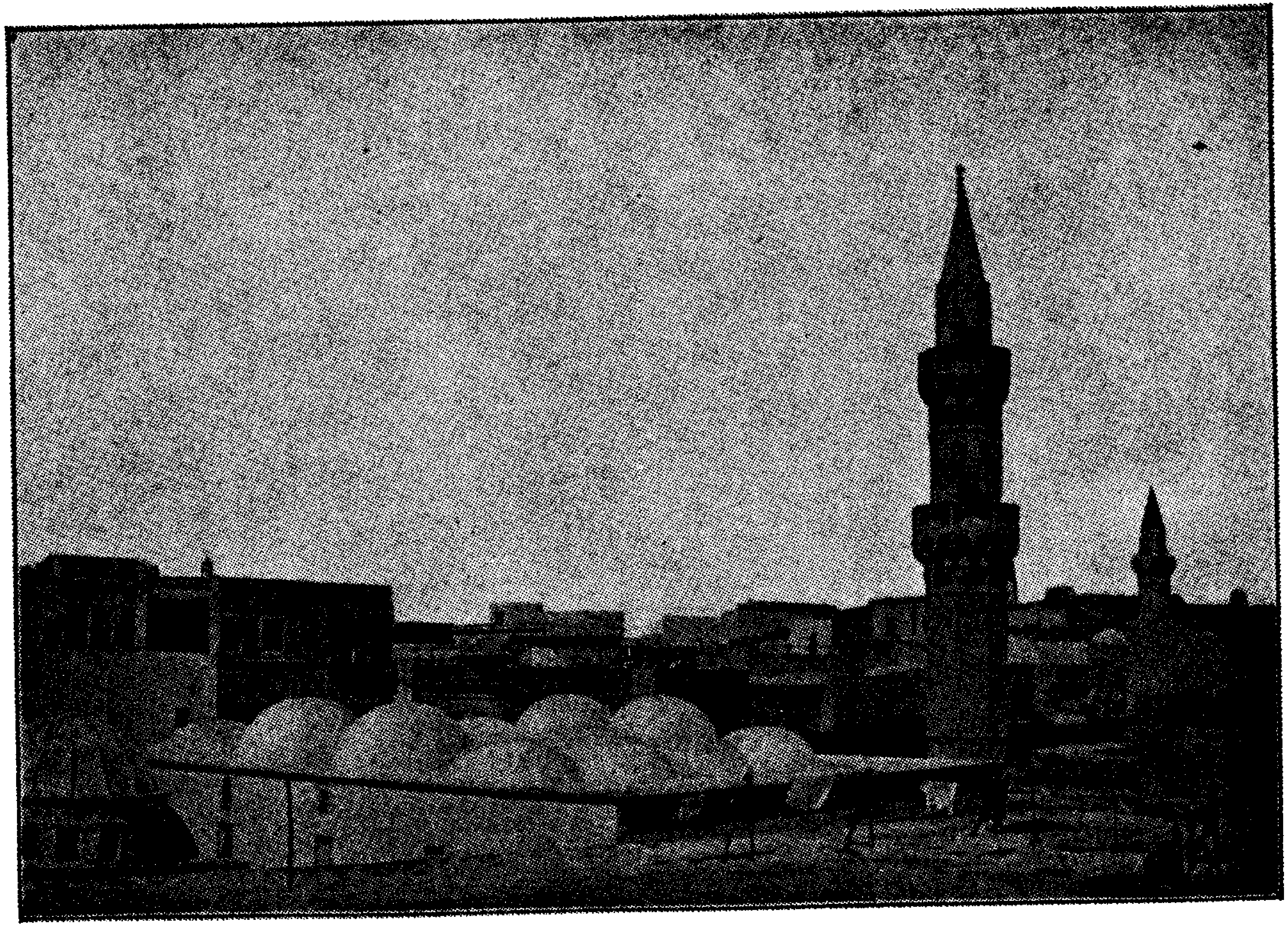

المآذن المندفعة الى اعلى

وجاء الجميع يودعوننا، وقد ازدحم الرصيف بالأصدقاء ، وتبعنا كثيرون حتى « جرجورة » ، التي تناولنا على ظهرها المريح كؤوس الشاي الوداعية التي قدمت لنا قبل الابحار . وكان الوفد المرافق لنا في الزورق السريع الذي يرفع علم القنصلية البريطانية مكوناً من القنصل ، ومفتي ومحمد . وخرج كثير من الضباط اليونانيين في قاربهم من السفينة « كريت » ، وأرسل الباشا تحياته الوداعية مع رسميين من القلعة ، احضروا معهم هدايا وتمنيات طيبة جداً . وكان اثنان من اصدقائنا الانجليز آخر من تركنا . وكانت اللحظات الأخيرة غير سارة .

ان الصحراء القريبة ، بهوائها النقي نقاوة رائعة، اشجار النخيل والبساتين ، المدينة نفسها — كلها جاءت عبر العودة المدهشة الى الماضي ، عندما شاهدت الشريط المائي الأزرق يتسع بين باخرتنا الصغيرة وكل هذه الاشياء الفاتنة .

وكانت القنصلية البيضاء العالية تزداد صغراً بإبقاء المسافة — وكان العلم البريطاني الصديق ، يخفق فوق شرفة مليئة بالوجوه الصديقة ، والايدي الملوحة بالوداع .

والآن لقد قصفت طرابلس بالقنابل . وتغير غزاتها مرة أخرى ، في قصة التقلبات الطويلة التي مرت بها . ان تلك المنارة القديمة كتلة بيضاء لا شكل لها ، وكل الحياة الناعمة ، هزت من نومها. وستزرع وتشجع التربة الخصبة ، المترصدة دائماً تحت الرمال المعتدية ، منتظرة الماء فقط ، لتنفجر بالزهر والثمر . وستخلي الآبار المتداعية ، التي لم تتغير منذ أيام قرطاجنة مكانها حالاً للخزانات الحديثة، وستحتل الأنابيب محل جلود الماعز ، وستقوم الآلات بعمل الابقار السائرة بصبر ، كقوة محركة . وستتقدم المدينة ، بعد أزمتها الأخيرة على الطرق

الحديثة ، وسيكون هنالك في يوم من الأيام حتى تليفونات وكهرباء وشوارع معبدة ، وسيارات .

ولكن لن يكون مستطاعاً قهر الصحراء مرة واحدة ، ولا الطوارق الذين يجتازون فلواتها الغامضة . وسيظل هنالك دائماً اميال غريبة من الرمل الذهبي، حيث تترصد اللانهاية .

ان كل قذارة تبدو مغسولة في امتداداتها الموحشة ، ولا بُدّ من ان تجلب الشمس الواهبة الحياة والهواء المتوهج فرحاً رائعاً ، وأن نسيم الصبح المتلهف والمدى المتلألىء وسماء المساء الكئيبة ستظل تحكي قصة رائعة وان كانت غامضة .

وستبقى طرابلس تلك ، مهما كانت قرارات الدول الكبرى .

فهرس الاعلام

«أ»

الابار البدائية القديمة : ٩٤ ــ ١٠١
ابــن تومارت : ٥٥
ابناء يوسف باشا : ٥٥
ابو العينين (ملك مراكش) : ٥٣
ابو الهول : ٨٧ ــ ٢١٧
الاتحاد اليهودي : ٧١
الاتراك : ٢١ ــ ٧٨ ــ ١٣٣ ــ ١٤٨
احمد باشا : ٥٤
أدهم بك : ١٦٨ ــ ١٦٩
الاراجيل : ٣٣
أرثر جونسون : ٧٧
أساشي : ١٤١ ــ ١٤٢
الاسبان : ٣١
استاذ الرسم الايطالي : ١٣٧
الاستانة : ٥٤ ــ ٦٨
أسرة قرمنلي : ٥٤
الاسطول الاسباني : ٥٣
الاسكندرية : ٧١
الاصص الرومانية : ٧٤
الاصص اليونانية : ٣٨
الاصنام : ٨٩
اضرحة الاولياء : ٩٣
أفريقيا : ٢٢ ــ ٣٢ ــ ٨٩ ــ ١٥٢ ــ ١٩٤
اكوار : ٧٠
الآلات الوترية : ١٥٨
آلة التصوير : ١٢٣
اله الرياح الياباني : ١٦١
الالبانيون : ٦٤ ــ ٨٣
أمين المال الاول : ٧٩
الاميركيون : ١٨ ــ ٥٦ ــ ٧٤
أورليانوس فيروس : ٩٨
أوروبا : ٧٢ ــ ١٥٢
الاوروبيون : ١٥٢
أويا : ٢٥ ــ ٥٠
أيتم بك : ١٩٩
الدكتور آيرا : ٥٤
ايطاليا : ١٧ ــ ٢١ ــ ٢٢ ــ ٥٤ ــ ٥٥ ــ ٧١
الايطاليات : ١٣١
الايطاليون : ٢١ ــ ٦٤ ــ ٩٤ ــ ١٣٧ ــ ٢٠١

« ب »

الباب العالي : ٧٨ ـ ٧٩
بابـل : ٢٨
بار بروسا : ٥٤
باريس : ٩٠
الباشا (والي طرابلس التركـي) : ٤١ ـ ٥٩ ـ ٦٠ ـ ٦٣ ـ ٧٢ ـ ٧٧ ـ ٧٩ ـ ١٦٦ ـ ١٧٦ ـ ١٧٩
البترول : ٧٩
البحـــر الابيض المتوسط : ٥٥ ـ ١٤٨ ـ ١٥١ ـ ١٩٧ ـ ٢٠٢
بحرية الولايات المتحدة الاميركية : ٩٠
بربل (ضابط اميركي) : ٥٦ ـ ٥٩
برج بوليلة : ٥٣
برج التراب : ٥٥
البروفسور بلازو : ٦١
البروفسور تود : ١٣٧
بريطانيا : ٢٢ ـ ١٧٠
البزق (آلة موسيقية) : ١٦٢
البسـاتين : ١٠١ ـ ١٠٢
البسط : ١١٩
بليك : ٥٤
بنغازي : ٧٢ ـ ١٥٢
بوابة البحر : ٢٦
بوابة فم الباب : ١٧٦
بوذا : ٢١٧
بورني أوديا : ١٥٣
بورني كوكا : ١٥٢
بيانورا : ٦٣
بيبروج (ضابط اميركي) : ٥٩
بيرام : ٧٩
بيرينس : ٧٢
بيوت الحريم : ١٠٩ ـ ١١١
بيلي (خرزات ، حبات ، سبحـــة بيلي) : ١٣٤ ـ ١٤١ ـ ٢٠٧
بيساريوس (قائد بيزنطي) : ٥٠

« ت »

تاجورا (واحة) : ٥٢ ـ ٥٣
تركيا : ١٧ ـ ٣٢ ـ ٥٥ ـ ٥٩
ترهونة : ٩٠
ترسة : ١٥٢
تشاد : ١٥٢
تل الجمالات : ٨٨
التلمود : ١٨٠
تورين : ٧١
تونس : ٢٢ ـ ٣١ ـ ٣٢ ـ ٤٢ ـ ٥٣ ـ ٧١ ـ ٩٣ ـ ٩٥

« ج »

جامع مراد آغا : ٥٢
جاموس الماء الفيليبيني : ٣٤
جانوبولس (اللفتنانت) : ٢٠١ – ٢٠٧
جبل طارق : ١٣٧
جبـون : ٥١
جرار الماء : ٤٦
جربة : ٣١
جرزة : ٩٠
الجزائر : ٣١ – ٤٢ – ٤٩ – ١٧٢ – ١٧٥
جمبية (آلة موسيقية) : ١٦٢
الجمعية الجغرافية الاميركية : ٩٠
جنود اتراك : ١٣٨
جورجيا : ١٣٦
جوسيب آيـرا : ٧١
جوقة الشارع : ٣٧
الجيش التركي : ٢١ – ٢٣

« ح »

حارة اليهود : ١٣٠
الحامية التركية : ٧٢
الحجر الاسود : ١٨٠
حرب التربولاين : ٧٧
حركة تركيا الفتاة : ١٦٦
الحروب الاسلامية : ٣١
حفلات الزواج : ٣١
الحكواتي : ١٤٨
حمزة المسكوني : ٤٢
الحناطير : ٤١
الحوالي (اللباس الوطني) : ٣٧ – ٤١ – ٧١ – ٨٣ – ١٣٠ – ١٣١ – ١٥٣ – ١٥٦ – ٢١٤

« خ »

الخبازون : ٣٧
خرز السبحات الاسلامية : ١٩٤
الخلخال : ٢١٣
خمس (آثار) : ٩٠
الخيول العربية : ١١٥
الخيول المزينة بالفضة : ١٠٥

« د »

الدراويش : ٦٤
دراجوث (قرصان تركي) : ٥٣
الدواوين : ١١٣ ــ ١١٩
دنيسون بندر : ١٣٧
دير الراهبات : ٢٢٢
ديكاتير (ضابط اميركي) ٥٩
ديومفر : ٨٨

« ر »

راحات لكم (حلويات تركية) : ١٧٠
رتشارد تولي : ٧٤
رجب باشا : ١٦٤ ــ ١٧٧
رشيد باشا : ١٦٥
رمضان (شهر) : ٧٩ ــ ١٩٣
الرهبان الفرنسيسكانيون : ٤٦ ــ ١٣٨ ــ ٢٠١
الرهبان الماريانيون : ٦٨
راهبات القديس فانسنت : ٦٨
راهبات الروم الكاثوليك : ٤٦
رواق الصاغة : ٤١
رودس : ٥٣
روما : ١٧ ــ ٢٢ ــ ٥٠ ــ ٥٣ ــ ٧١ ــ ٩٠
الرومان : ٢١ ــ ٨٩

« ز »

الزاوية الشرقية : ٩٠
الزاوية الغربية : ٩٠
زكونيات (ليرات ذهبية ايطالية) : ٧٨
زلة : ٩٠ ــ ١٥٢
زنتان : ٧٢
الزنجيات : ١٤٨ ــ ١٥٨
الزنوج : ٦٨
الزهرة (كوكب) : ٢٠١ ــ ٢١٢

« س »

سافوي : ٥٤
سرت الكبرى : ٥٠
سرتيكاديفو : ٥٠
سرفيوس كورنيلوس ادرفتسوس : ٨٨
السجاد : ٤٢
السعن : ١٠١
السعوط : ٧٩
السلال الخشبية : ٤٦
السلطان (العثماني) : ٤٢ ــ ٦٣ ــ ٧٨ ــ ١٥٨ ــ ١٦٦ ــ ١٦٩
سلسبوري : ٨٩
سوق السمك : ٤٦
سوق الفخار : ٣٨
سوق اليهود : ٨٤
سيدي دراغوث : ١٧٩
سيراري باركا : ٥٠
سيراكوز : ٣١
سمث (امير البحر البريطاني) : ٩٠
سمط الاجراس : ٤١
سنان (قرصان تركي) : ٥٤
السوالب الفوتوغرافية : ١٢٠
السودان : ٧١ ــ ١٥٢
السودانيون : ٦٤ ــ ٦٦ ــ ٦٨ ــ ١١٦ ــ ١٥٨ ــ ١٨٧ ــ ٢٠١
سور الصين : ٥٥
سوس : ٣٢
سوق بيانورا : ١٤٤
سوق بين البيبان : ٣٥
سوق الثلاثاء : ٧١ ــ ١٤٤
سوق الخبزة : ١٥٠ ــ ١٥١ــ ١٥٣
سيرينا : ٧٢
سيريناكا : ٥٠ ــ ٧٢
سيلقون : ١٤٨
سيفيرس : ٥٣
سيوف صليبية : ١٥٢

« ش »

شارع الاربع عرصات : ٤٣ ــ ٨٤
شارع الشط : ١٨٢ ــ ١٨٣
شارل الخامس : ١٧ ــ ٥٣
شالوم اليهودي : ٢٠٢
الشبابات : ١٥٨
الشعار الوطني : ٣٣
الشعرى (كوكب) : ٢٠١
شيرا كاوه : ١٤١

صوت http://mostafamas.maktoobblog.com التوحيد

« ص »

صاحب الجلالة (ملك الانجليز) : ٧٧
صبراته : ٥٠
الصحيفة النحاسية في الشارع : ٤٥ ـ ٢٢٢
صفاقس : ٣٢
صقلية : ٣١
الصقليون : ٦٤
صمدة العروس : ١٢٧
الصنوج : ١٥٨
صيادو السمك : ٣٢

« ط »

طبرق : ٣١
طرابلس : ترد في كل صفحات الكتاب تقريبا .
الطوارق : ١٥١ ـ ١٥٢ ـ ١٥٤ ـ ١٥٦
الطواقي : ١٥٣

« ع »

العاج : ١٥١ ـ ١٥٣
عبد الحميد الثاني (السلطان) : ١٦٦
عبد المؤمن : ٥٥
العرب (سكان البلاد) : ٢١ ـ ٦٤ ـ ٦٨ ـ ١١٥ ـ ١٣٣ ـ ١٣٨ ـ ١٤٨ ـ ٢٠١
العلم الاميركي : ٣٣ ـ ١٦٦
العلم البريطاني : ١٦٥
العملة التركية : ٦٧
عيد ميلاد الملكة : ١٦٥ ـ ١٧٢

http://mostafamas.maktoobblog.com التوحيد

« غ »

غات (واحة) : ٣١ ـ ١٥٢
غداء عربي : ١٨٦
غرناطة : ٤٩
غرفة العروس : ١١٩
غريان (جبل) : ٧٢ ـ ١٥٢
غدامس : ٣١ ـ ١٥٢
غناء تركي : ١٣١
الغواصون على الاسفنج : ٣٢ ـ ٦٤ ـ ١٤٧ ـ ١٧٠

« ف »

فاليتا : ٣١
الفرنك الفرنسي : ٦٧
فرديناند الخامس : ٥٣
فرشات قش : ١١٠
الفرقة الموسيقية التركية : ٦٣ ـ ١٠٢ ـ ١٥٨ ـ ٢٢٢
فرنسا : ٢٢ ـ ٣٢ ـ ١٥٣
الفرنسيون : ١٣٧
فزان : ٣١ ـ ١٥٢
الفزانيون : ٦٤ ـ ٦٨ ـ ١٤٨ ـ ٢٠١
فنادق الحلفا : ٦٨
فناجين القهوة : ٣٣
الفندال : ١٧ ـ ٥٣ ـ ٨٨
فيتدوس مارسيلوس : ٨٨
فيلادلفيا (سفينة) : ٥٩
فينوس (كوكب) ٢٠٨
فينيسيا (أواني فينيسيا الزجاجية) : ١٥٣
الفينيقيون : ١٧

« ق »

قابس : ٣٢ ـ ٧١
القبلة (رياح) : ١٣٤ ـ ١٩٧ ـ ١٨٦ ـ ٢٠١ ـ ٢٠٢ ـ ٢٠٤

قبة السلطان : ٢٠١
قبة سيدي حمودة : ١٥٠
قبة القرمنلي : ١٨٢
القديس جورج : ٧٩
القرآن الكريم : ٣٧ ــ ٦٤ ــ ١٧٥ ــ ١٨٠
القراصنة : ٥٦
القرب : ١٥٨
قرطاجة : ٣٢ ــ ٩٠
قرقارش : ٩٣ ــ ٩٤ ــ ٩٦
قرية سودانية : ١١٢
القسطنطينية : ٧٩ ــ ١٦٩ ــ ١٧١ ــ ١٨٠
القطب الشمالي : ٢١٧
قطعان الماعز : ٤٦
قصر الجبل : ٧٢
قصر الغريان : ٧٢
قلعة الباشا : ٣٢ ــ ٦٠ ــ ٦٣ ــ ١٦٥ ــ ١٦٦ ــ ١٦٩ ــ ١٨٢
القلعة الرئيسية : ٥٥
قناديل نحاسية : ٤٢
قناة السويس : ٨٩
القنصل البريطاني : ١٨ ــ ٢٧ ــ ٦٧ ــ ٧٣ ــ ٧٤ ــ ٧٧ ــ ٧٨ ــ ٧٩ ــ ١٦٥
القنصل الفرنسي : ١٧٠
القنصل الايطالي : ١٧٠
قنصلية ايطاليا : ٤٩
قنصلية بريطانيا : ٢٧ ــ ٣٣ ــ ٤٩ ــ ٥٤ ــ ٧٣ ــ ٧٥ ــ ٨٠ ــ ١٣٤ ــ ١٣٥ ــ ١٣٨ ــ ١٦٥ ــ ١٧٠ ــ ١٧٢ ــ ١٧٩ ــ ١٨٩ ــ ١٩٤ ــ ٢٠١ ــ ٢٠٣
قنصلية فرنسا : ٤٩ ــ ٥١
قنصلية الولايات المتحدة الاميركية : ٦٧
القوس الروماني : ٨٤ ــ ٨٥ ــ ١٧٢

« ك »

كاتانيا : ٣١
كالبرنيوس سيلسوس : ٨٨
كاليفورنيا : ١٣٧
كبايات (مقاطعة) : ٥٤
كبلنج : ٣٧
كتابات رومانية : ٦٣
كروموبل : ٥٤
كريت (سفينة) : ١٧٠
الكريتيون : ٨٣
الكسكسي : ١٤٥ ــ ١٤٧ ــ ١٨٩
الكعبة : ١٨٠
الكلية الملكية التركية : ٦٨
كنيسة سان جرمان دي باريس : ٩٠
الكنيسة الكاثوليكية : ٢٢٢
الكهوف : ٩٣ ــ ٩٧ ــ ٩٨ ــ ٩٩
الكهنة اليهود في طرابلس : ١٨ ــ ١٣٢ ــ ١٦٩
كوبر : ٨٩
كوخ سوداني : ١٢١
الكوسمو بوليتي : ١٨
كيراكش (امير) : ٩٤

« ل »

اللاقبي (شراب) : ٩٣ ــ ٢١٤
لامبرت بليفير : ٥٠
لافكاديو هيرن : ٢٧
لبدة : ٥٠ ــ ٥٣ ــ ٩٠ ــ ٩١
لبتس ماجنا : ٥٠
اللبان : ١٥١
اللغة الاسبانية : ١٨
« الانجليزية : ٤٩ ــ ٦٧
« الايطالية : ١٨
« البونيـــة : ٥٣
« التركية : ١٨ ــ ٤٩ ــ ٦٣ ــ ١٦٩
« العربية : ١٨ ــ ٤٩
« العبرية : ١٦٩
« الفرنسية : ١٨ ــ ٦٣
« المالطية : ١٨ ــ ٤٩
« اليونانية : ١٨
اللير : ٦٧
لندن : ٧٤ ــ ٧٧ ــ ٩٠
ليو افريكانوس : ٩٤
لويس السادس عشر : ٩٠
ليدي ماري ورتلي مونتاجو : ٧٤
ليكيوس سبتيموس سيفيرس : ٥٠

« م »

ماركوس اوريليوس : ٨٧
ماركوس اورليانوس انطونيـــوس اوغسطوس : ٨٨
المارينا : ٤٦
مانشستر (حرير) : ١٥١ ــ ١٥٣
مالطا : ٣١ ــ ٥٣ ــ ٥٤ ــ ١٣٧
المالطيات : ١٣١
المالطيون : ــ ٢١ ــ ٦٤ ــ ٦٧ ــ ٦٨ ــ ٨٣ ــ ١٣٨ ــ ٢٠١
المتحف البريطاني : ٧٧
المدرسة الايطالية للصبيان : ٧١
« الفرنسية للبنات : ٦٨
« التركية للصبيان : ٦٩
المدينة المنورة : ٥٣
مراكز البريد : ٦٧
مراكش : ٣١ ــ ٤٩
مراوح الاعشاب : ٤٥
المرجان : ١٤٤ ــ ١٤٧ ــ ١٤٨
مرسيليا : ٣٢
محطة المراقبة الجوية : ٧١
مخدات مطرزة بالذهب : ١١٩
مسدة : ١٥٢
مسجد حامد باشا : ١٧٦
مسجد السبع عشرة قبة : ٨١
مسجد سيدي سالم : ١٧٩
مسجد قرجي : ٢٠٣ ــ ١٧٩ ــ ٢٠٥

المسجد القرمنللي الكبير : ١٧٦
مسلاته : ٩٠
المسيح : ٥٠ ـ ٥٣ ـ ٨٧
مسينا : ٣١
المشتري (كوكب) : ٢٠١
المصاطب : ٣٧ ـ ٨٠
مصر : ٢٢ ـ ٣١ ـ ٥٠
مصراته : ٧١
المطرزات التركية المذهبة : ١١٣
معبد بوذي : ١٧٦
المغاربة : ٤٩ ـ ٧٤ ـ ٧٨
مفاتيح ابواب الاندلس : ٤٩
مقاعد جلدية : ٤٢
المقبرة الانجليزية : ١٨٢
مقبرة سيدي حمودة : ١٥٠
المقبرة العربية : ١٨٢
مقبرة القرمنللي : ١٨٢ ـ ١٨٣
المقبرة الكاثوليكية : ٥٣
مكتب البرق : ١٩٦
مكة المكرمة : ٥٣ ـ ٧٩ ـ ١٥١ ـ ١٧٥ ـ ١٧٩ ـ ١٨٠
ملك الانكليز : ٧٩
المنارة : ٥٥ ـ ٨٣
المهدية : ٣٢
موسيقيو الصحراء البرابرة : ١٥١
ميناكيوس اوغسطوس : ٨٨
ميوه هادي : ٥٥

« ن »

نابولي : ٣١
نادي الضباط : ١٥٠
النبي (صلعم) : ١٧٩ ـ ١٨٠ ـ ١٨٩
نحاتو العاج : ٤٥
النخلات الثلاث : ١٥٤
النرفانا : ٢١٧
نسر روماني : ٨٧
النعام (بيض ، ريش) : ٤٥ ـ ٥٦ ـ ٧٩ ـ ٩٠ ـ ١٥١ ـ ١٥٢ ـ ١٥٣
نلسون : ٥٩
نيو انجلند : ٢١٨

« هـ »

هالي : ١٤١
هـ . بيك : ٦٣
هـ . س . كوبر : ٨٨
هسبيريا : ٧٢
الهوادج : ٧٤ ـ ١٥١ ـ ١٥٤
هوفتون : ٨٧

التوحيد http://mostafamas.maktoobblog.com صوت

« و »

واشنطن : ١٣٧

الولايات المتحدة الاميركية : ٧٧

وندسور : ٦٠

« ي »

اليابان : ١٧٦ ـ ١٩٤

اليونان : ٣٢

الينبوع التركي : ٤٢

اليهود : ٦٤ ـ ٦٨ ـ ١٠٢ ـ ١٣٠ ـ ١٣١ ـ ١٣٣ ـ ١٣٨ ـ ١٧٩ ـ ٢٠١

اليهوديات : ١٣١

يوسف باشا قرمنلي : ٥٤

التوحيد http://mostafamas.maktoobblog.com صوت

تصويب

ص	سطر	خطأ	صواب
٩	٥	المدنية	المدينة
٣١	٣	رؤوا	رأوا
٣٨	١١	ما رالت	ما زالت
٥٦	١٤	الذي	الذين
٦٠	١٦	الصخري	الصخر
٧٨	٩	مهمن	مهما
٨٧	٢٠	الأقارفة	الأفارقة
١٠٥	٧	الرمال	الرمان
١٤١	١٦	كانت	كان
١٤٤	١٣	للاستعمالات	لاستعمالات
١٤٧	٢١	وكثيراً	وكثيراً ما
١٤٨	٣	وصيائغ	وصائغ
١٥٨	١٢	طويلا	طويل